بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
تصدر عن المنتدى الإسلامي
العدد الثالث - ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

رئيس مجلس الإدارة
خالد بن عبد الله الفواز
fawaz@qiraaat.com

رئيس التحرير
خير الله بن طالب
talib@qiraaat.com

الهيئة الاستشارية
المشير: عبدالرحمن سوار الذهب
د.إبراهيم أبو عباة
د.عبدالرحمن السميط
أ.د. عبدالغفور البوسعيدي
أ.د. حمدي عبد الرحمن حسن
د.حقار محمد أحمد
د.محمد أحمد لوح
د.محمد الثاني عمر
أ. إبراهيم كنتاو

التحرير
editors@qiraaat.com

التسويق / التوزيع
marketing@qiraaat.com

الاستفسارات
info@qiraaat.com

المراسلات
بريطانيا - لندن:
7 Bridges Place,
Parsons Green Fulham,
London SW6 4HW,
UK
هاتف: 0044-207-4718261
فاكس: 0044-207-7364255

المحتوى

الافتتاحية — قراءات وتوريث الخبرات — ٢

إسلامية — المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والدعوي بغرب أفريقيا — ٤
د. هارون المهدي ميغا

جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة الإسلامية والعربية - غرب أفريقيا أنموذجاً — ١٦
د. علي يعقوب

تاريخية — مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وغاوو وجنّي في عهد الأساكي — ٢٦
د. محمد حمد كنان ميغا

رؤية نقدية لكتاب (تاريخ الماي إدريس وغزواته) للإمام أحمد البرنوي — ٣٧
آدم أديبايو سراج الدين

سياسية — الصين الصاعدة وفرنسا الآفلة في قلب أفريقيا — ٤٥
أمير سعيد

حوارات — رئيس الجمعية الإسلامية للإصلاح في مالي (الشيخ: أبوبكر كمارا) .. في حوار مع قراءات أفريقية — ٥٦
المجلة

شعوب أفريقية — الديانات التقليدية في غرب أفريقيا — ٦٧
عاصم محمد حسن محمد

اجتماعية — اللغة العربية في إثيوبيا — ٨٨
د. عمر عبدالفتاح

تنموية — الجفاف في أفريقيا — ١٠٣
محمد الزواوي

ترجمات — القرصنة في الصومال — ١٠٨
إعداد مجلة قراءات أفريقية

قراءات
وتوريث الخبرات

الحمد للـه الذي علّم بالقلم، علّم الإنسـان ما لم يعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم، وبعد:

تمثل المعلومة ركيزة من ركائز العمل التنموي أياً كان، تعليمياً، أو إغاثيـاً، أو اجتماعياً، أو إعلامياً، أو غيره، فالعمـل الناجح ينبني أولاً على المعلومات الدقيقة والأفـكار الصحيحة، وبحسـب دقة تلك المعلومـات والأفكار وصحتهـا، وتراكمها وكثافتها؛ يتحدد مدى نجاح ذلك العمل وأثره.

موضع خلل في العمل الدعوي:

ونتجـاوز المثال الفردي إلـى المثال الجماعي، وكثيراً ما نشـاهد أعمالاً أو مشـروعات دعوية أو غيرها تبذل بعض الجهات لإنشـائها جهوداً كبيرة فـي جمع المعلومات، ودراسـة الواقـع، وتخطيط البرامج.. إلى قائمة طويلة من الخطوات المعلوماتية اللازمـة لكل عمل؛ وإن لم تشـعر أنهـا معلومات بهـذا المسـمّى، دون أن تعتني بالتعـرف الدقيق على التجارب السـابقة وجوانب نجاحها وإخفاقها وأسـباب ذلك. وقـد تتحفظ الجهـة التي أقامت مشروعاً مماثلاً في تقديم خبراتها للجهات الدعوية الأخرى، وهكـذا تضيع كثير من الجهود والخبرات والمعلومات والأفكار، أو تبقى بعيدة عن الاسـتفادة منها واسـتثمارها في مجال التخطيط المسـتقبلي للأعمال والمشروعات الخيرية.

وهنا يظهـر خلل نعانيه في كثيـر من مناطق العالم الإسـلامي، وهو انقطاع التواصل المعلوماتي بين العاملين في مجال العمل الخيري والدعوي.

وهكذا تبقى كثير من الأعمال قصيرة المدى، لا تحقق إلا أهدافاً قريبة أو صغيرة، بينما لو تراكمت الخبرات، واستفاد الآخر من الأول، لكان للنجاح في العمل شأن آخر.

والسـؤال الذي نطرحه:

متى ينتبه العاملون في مجالات الخير والتغيير والإصـلاح والدعـوة إلى أهمية تبـادل المعلومات والخبرات؟ وكيف يمكن لهم حفظ جهودهم الخيِّرة على مرّ الزمان مـن الضياع؟ وكيف يمكن لهم بناء عمل دعوي ينطلق من خـبرات سـابقة ومعلومات تراكميـة؛ تضمن لهم اختصار المسـافة الزمنية، وتوفير الجهود والتكاليف، وتصل بهم إلى مستويات عالية من النجاح؟

ليس توريث الأعمال وتبادل الخبرات والمعلومات في رأينا مجـرد فكرة جيـدة أو برنامجاً له وقت محدد، بل نـرى أنه ضرورة، تـوازي في أهميتها المشـروع نفسـه، وثقافة ينبغي لها أن تنتشر بين العاملين في المجـالات الخيرية، وتُترجم إلى صور مختلفة، كمراكز الدراسـات والبحـوث، والمكتبات الجامعة، وتأسـيس قواعد البيانات، وغيرها، في الجانب النظري.

ومثل المجالس التشـاورية، ولجـان العلاقات العامـة أو مكاتب الاتصال في المؤسسـات، ولجان التعاون المختلفـة، والدورات، والمراكـز التدريبية، والصحف، والمجلات، في الجانب العملي.

ولكـي نقف علـى الدور الذي يمكـن أن تقوم به الوسائل السـابقة وغيرها في مجال توريث الخبرات وتبادل المعلومات؛ نشير هنا إلى مثالين على درجة كبيرة مـن الأهمية، الأول من الجانـب النظري، وهو المراكز البحثية، والثاني من الجانب العملي، وهو المجلات.

المراكز البحثية.. توريث للخبرات:

يعتمـد البحـث العلمي في المقـام الأول على المعلومات التراكمية؛ ليقـدم الجديد من المعلومات والنتائج التي تخدم مراكـز التخطيط، وصانعي القرار،

ومن هنا يعد البحث العلمي أحد مقاييس التقدم في العصر الحديث، بل صارت المعلومة التي تقدمها تلك المراكز البحثية (منتجاً) مهماً، تبذل لأجله الدول المتقدمة الكثير من الأموال.

وفي حين تنفق البلدان العربية على البحث العلمي أقل من ١٪ من موازناتها العامة، وهي النسبة نفسها في أكثر دول أفريقيا تقدماً في البحث العلمي مثل مصر وجنوب أفريقيا؛ يبلغ إنفاق إسرائيل – مثلاً – على البحث العلمي نسبة ٤,٧٪ من الناتج القومي الإجمالي.

ولهذا تُعَد مراكز الدراسات والأبحاث من المميزات المهمة لتفوّق الغرب على بلدان العالم الإسلامي؛ إذ يصل عددها عندهم بالمئات، وفي جميع المجالات، لا نتحدث عن المراكز المستقلة فحسب، بل هناك مراكز تابعة لهيئات ومؤسسات رسمية، وغير رسمية، ومراكز داخل البلد المُنشئ، أو تابعة له خارج حدوده[١].

وتقوم مراكز البحوث والدراسات بعدة وظائف؛ منها:

١. **معلوماتياً:** رصد المعلومات وجمعها، وتوثيقها وحفظها، مع تصنيفها وفهرستها، وتسهيل نظام استرجاعها، وتقديمها للباحثين والمطلعين.
٢. **دراسياً:** تحليل هذه المعلومات والبيانات، والربط بينها، وتفسير الظواهر المختلفة فيها، واستكشاف القواعد والنظم التي تفيد في بناء التوقعات المستقبلية.
٣. **بحثياً:** توفير مراجع المعرفة والمعلومات ومصادرها للراغبين، وتقديم قنوات متنوعة من أوعية المعلومات المرئية والسمعية والمقروءة للتبادل المعرفي.
٤. **إعلامياً:** نشر ما يتوفر لديها من معلومات للمهتمين والجماهير المعنية، مع تقديم توصيات، أو اقتراح حلول وبدائل، أو تقديم خطط وسياسات مقترحة.

المجلّات المتخصصّة.. توريث أيضاً:

تُعد المجلات العلمية المتخصصة أيضاً مقياساً للتقدم، فهي تقوم بعمل مشابه لعمل المراكز البحثية، إضافة إلى كونها وسيلة مباشرة لنشر المعلومات، وتبادل الخبرات، وتوريثها على نطاق أوسع من المهتمين.

ومن هنا تتنافس المجلات العلمية على التأثير باختلاف توجهاتها، ومن مؤشرات دراسة تأثيرها ما يُسمّى (معامل التأثير للمجلات والدوريات)، يعطي هذا (المعامل) مدلولاً عن مكانة المجلة العلمية، ومدى استخدامها في المجلات أو الدوريات الأخرى، واستخدام الباحثين للبحوث المنشورة فيها من خلال الإشارة إليها في دراساتهم العلمية، فالمجلة التي لها معامل تأثير يساوي صفراً يشير إلى أنها لم يقرأها أحد من الباحثين، أو قرئت لكن لم يرجع أحد لأيٍّ من البحوث الواردة فيها. وعليه يحرص محررو المجلات والدوريات على أن تحظى مجلاتهم ودورياتهم بمعامل عالٍ؛ من خلال نشر بحوث ذات مكانة ونتائج بحثية مهمة ومثيرة[٢].

وتشير بعض الدراسات إلى أن عدد المجلات العلمية في العالم عام ١٨٦٥م بلغ مائة مجلة، أما اليوم فعدد المجلات يقارب مائة ألف مجلة، إضافة إلى مليون من المنشورات العلمية.

وعلى مستوى الدعوة إلى الله تعالى في أفريقيا؛ تفتقر الساحة إلى مثل هذه الوسائل لتحقيق ثقافة التوريث الدعوي، وتحرير المعلومات والخبرات التي تظل حبيسة في عقول أصحابها، أو في الملفات والأرفف، لتصبح معلومات وخبرات دعوية متاحة لجميع الدعاة.

- **ولهذا كانت «قراءات»:**

(مجلة قراءات) توريث تنموي على مستوى أفريقيا، توريث للمعلومات، والخبرات، والإحصاءات، والتجارب، وأخبار التاريخ، وهموم الحاضر، وتطلعات المستقبل، نطمح فيها أن تحقق التواصل بين العاملين في المجال الخيري والدعوي الأفريقي، وبينهم وبين غيرهم من الدعاة والمفكرين والمثقفين في العالم الإسلامي، في تبادل المعلومات والأفكار والآراء، وأن تكون وعاء يحفظ الخبرات للأجيال الحاضرة والقادمة؛ وقنطرة بين تجارب الماضي وخطط الحاضر والمستقبل، وأن تسهم في بناء واقع دعوي مشرق في أفريقيا، بإذن الله.

(١) أنور الخضري: مراكز البحث والمخاض الصعب.

(٢) إحصائيات مختصرة حول واقع البحث العلمي. ص ٥٦.

المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والدعوي بغرب أفريقيا .. رسالة ابن باز أنموذجاً

د. هارون المهدي ميغا (*)

أشرت في مقال سابق في (مجلة قراءات إفريقية)(١) إلى أبرز روافد النهضة الإسلاميّة المعاصرة وأقواها في غرب أفريقيا، وأنّ منها (المراسلات العلميّة بين علماء المنطقة ودعاتها وبين غيرهم من علماء الإسلام المصلحين، حول مسائل فقهيّة أو عقديّة أو غيرها، وكذلك المبعوثون والوفود الدعوية والتعليمية، وخاصة من السعودية ومصر... إلخ)، فاتجهت الرغبة إلى محاولة التأصيل التاريخي لهذه المراسلات، والكشف عن جذور هذا الرافد، وبيان أثره التعليمي والدعوي، مع التمثيل لذلك بإحدى رسائل سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله تعالى - المفتي السابق للديار السعودية.

كانت المراسلات العلمية رافداً قوياً من روافد هذه النهضة الإسلامية في غرب أفريقيا، وكان لها أثرها البالغ في توجيه الدعاة والدعوة إلى المنهج السليم، والأسلوب القويم، في التعامل مع المدعو، وفي تصحيح بعض العقائد والأفكار المنحرفة، وفي التعليم ونشر الوعي الإسلامي بين المسلمين، وفي حل الخلافات، وبيان أسبابها وآثارها السيئة على وحدة المسلمين.

وهذا النوع من المراسلات العلمية قديم في غرب أفريقيا منذ عهود الإمبراطوريات الإسلامية فيها، كما كان الشأن في مناطق العالم الإسلامي الأخرى، لكنه على الرغم من ذلك لم يحظ إلى الآن - حسب علمي - بدراسة علمية، دعوية كانت أم تاريخية، أم تعليمية تربوية، أم غيرها.

أما قديماً: فمن أشهر ما يتعلق بغرب أفريقيا مراسلة الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) لسلاطين بلاد التكرور عموماً، ولسلطان كاشنه خصوصاً(٢)، وقد ضمّنها الوصية بتقوى الله، والتذكير بالآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا وزينتها، والدعوة إلى الوقوف مع حملة الشريعة فيما يعرض لهم من مشكلات، وإنكار بعض المخالفات الشرعية التي سمع عنها في دولهم.

وفي (تاريخ الفتاش) لمحمود كعت، أن أسكيا محمد الكبير إمبراطور سنغاي الإسلامية التقى السيوطي بمصر في عودته من أداء الحج(٣)، وسأله عن قضايا، وافقت إجاباته عنها إجابات علماء السودان الذين كان أسكيا قد سألهم كمحمد المغيلي ونحوه(٤).

وللسيوطي مراسلة علمية أخرى ذات صلة بأفريقيا الغربية، كانت بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت ٩٠٩هـ)، تتعلق بتحريم السيوطي للمنطق وتحليل المغيلي له ورده عليه، وقد وردت الرسالتان

(*) باحث من جمهورية مالي.

(١) مجلة قراءات إفريقية (المنتدى الإسلامي)، عدد ٢ شعبان ١٤٢٦هـ /سبتمبر ٢٠٠٥م ص ١٠ - ١١.

(٢) انظر: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني. آدم عبد الله الآلوري. ص ٨٩. ط ٣. عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(٣) انظر: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش. محمود كعت. نشر هوداس ودلافوس. مطبعة بردين. باريس. عام ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م. ص ١٢ - ١٣.

(٤) انظر: المصدر السابق. ص ١٥.

نظماً، ذكر أبياتاً منها أحمد بابا التنبكتي[1].

ويقال إن السيوطي زار غرب أفريقيا، ومكث في كاشنه وأغدز وكانو، ثم رجع إلى مصر، وإنه اجتمع بالشيخ محمد المغيلي في السودان، فكانت بينهما مناظرة في المنطق، لكن اختُلف في مكان الاجتماع أهو كاشنه، أم تكده، أم تنبكتو[2].

والأقوى أن يقال إن المناظرة كانت بالمراسلة والسيوطي في مصر، وهذا هو الأشهر؛ لأنه لا يمكن لزيارة مثل زيارة السيوطي أن تكون سقطاً لا تتحدث عنها المصادر التاريخية، كيف وقد ذاعت فيها مراسلتاه السابقتان! ثم كيف تُغفل المصادر زيارة السيوطي نفسه وفي كتابه (التحدث بنعمة الله) إشارات كثيرة إلى لقاءاته في القاهرة بوفود حج السودان الغربي من السلاطين، والقضاة، وطلبة العلم، وأخذ بعضهم عنه وقراءتهم كتبه عليه[3]! وهذا مما رجح لدي أن تكون المناظرة رواية شفوية تحتاج إلى ما يعضدها، وهو ما أكده الشيخ آدم الآلوري – رحمه الله –، وهو رجل ثبت في نقوله التاريخية، حيث ذكرها بصيغة التمريض (يقال).

وأما كتابات محمد المغيلي وفتاويه لأسيكا محمد الكبير ملك إمبراطورية سنغاي الإسلامية، ولأمير كانو أبي عبد الله محمد رنفا بن يعقوب؛ فالراجح أنه كتبها حينما كان في بلاط كلٍّ منهما[4].

وأما طلب ملك مالي منسا موسى من القاضي والمدرس بالمدرسة المالكية بالقاهرة محمد بن أحمد بن ثعلب المصري، المعروف بابن كشتغدى، أن يضع شرحاً لمختصر المدونة[5] الذي ألفه أبو الحسن الطليطي محمد بن عيشون (ت ٣٤١هـ / ٩٥١م)؛ فكما قال أحد الباحثين: لا ندري هل كان في لقاء بينهما في القاهرة عام (٧٢٤هـ / ١٣٢٤م)، حيث التقى منسا موسى عدداً كبيراً من فقهاء المالكية بمصر، أو كان ذلك بالمراسلة بينهما[6]!

وفي العصر الحديث يمكن أن نمثل بالمراسلات بين الشيخ محمد الأمين بن محمد الكانمي (ت ١٨٣٥م)، والشيخ عثمان بن محمد بن فودي (ت ١٨١٧م)، حول جهاد الأخير في بلاد الهوسا وكانم برنو.

درس الكانمي في المدينة المنورة والقاهرة وفاس، ثم عاد إلى كانم، فلم يمض وقت طويل حتى ذاع صيته في البلاد كلها لعلمه وورعه، وصار له نفوذ وتأييد كبيران لدى الخاصة والعامة، ورأى أن ابن فودي بجهاده في تلك البلاد قد بعد عن رسالة الفقيه المتواضع المسالم، والعالم الورع؛ إلى رسالة السياسي الذي يؤمن بالحديد والنار[7].

ولن أقف عند قضية الجهاد؛ لأن الكانمي – فيما يتعلق بهذه القضية – قد وقع مرتين فيما آخذ به ابن فودي؛ الأولى بدفاعه عن برنو وكانم، ومنه جهاده بشجاعة مع سلطان برنو أحمد دونمة لتحرير عاصمته من الفولانيين مرتين، والأخرى بالجيش الجرار الذي قاده هو بنفسه عام ١٨٢٦م إلى غركو لملاقاة جيش ابن فودي وأتباعه، وقد هزم الكانمي ونجا بحياته، وآلت دولة برنو كانم إلى أولاده وأحفاده الذين يلقبون بالشيخ حتى اليوم[8].

أما المراسلات بينهما فقد بلغت عشرات

(١) انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للعلامة أحمد بابا التنبكتي، بهامش كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري، ص ٣٣٢، دار الكتب العلمية ببروت. والإسلام في نيجيريا، ص ٩٨.

(٢) انظر: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، آدم عبد الله الآلوري، ط ٣، عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ٨٩ - ٩٠.

(٣) انظر: التحدث بنعمة الله، للسيوطي، ص ١٥٨ ، ٢١١، المطبعة العربية الحديثة - القاهرة، عام ١٩٧٢م.

(٤) انظر: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي عليها، محمد بن عبدالكريم المغيلي، تقديم وتحقيق الأستاذ عبد القادر زباديه، ص ٦ ، ٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، عام ١٩٧٤م. وانظر: عن كتابات المغيلي لأمير كانو: الإسلام في ينيجيريا، ص ٣٢، ٧٥ - ٨٥ .

(٥) انظر: نيل الابتهاج، ص ٢٣٧.

(٦) انظر: الإسلام والمجتمع السوداني - إمبراطورية مالي، أحمد الشكري، ص ٢٢١، ٢٥٠، ط ١، عام ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

(٧) انظر: الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠م إلى ١٩٦٠م عام الاستقلال، د. علي أبو بكر، ص ٩٢ - ٩٣، بتصرف، ط١، عام ١٩٧٢م، والإسلام في نيجيريا، ص ٦٤.

(٨) انظر: المرجعين السابقين والصفحات نفسها.

الرسائل باللغة العربية، ودامت ست سنوات قبل المعركة الأخيرة، يدافع فيها كل واحد منهما عن مواقفه. وأما موضوعاتها فقد شملت قضايا عدة تتعلق بالجهاد وأسبابه، وبمن يجاهد، وبما يثار حول ابن فودي وأتباعه من تكفير أهل القبلة بسبب بعض الكبائر، كالتبرج، وأخذ الرشوة، وأكل مال اليتيم، والجور في الحكم. ومن القضايا: اتهام الكانمي لابن فودي بالخروج على الإمام، واتهامه وأتباعه بحب الملك والسعي وراءه باسم الدين، ولبعض أتباعه بنقض العهود. ولقد رد الشيخ ابن فودي على تلك القضايا كلها بكتابات تولاها بأمر من أخيه عبد الله – تارة – ، وابن الشيخ محمد بللو – تارة أخرى – [1].

كما تناول عثمان بن فودي في كتابه (شفاء الغليل)[2] بعض تلك القضايا بشيء من البيان والتقييد؛ للعموم والإطلاق اللذين وردا في كلام شيخه جبريل بن عمر في منظومته في تكفير أهل السودان بالمعاصي، والتي ذاعت بين العلماء وطلبة العلم في مناطق الهوسا والبرنو قبل حركة ابن فودي وفي أثنائها.

وكان لمراسلات الكانمي وابن فودي أثرها التعليمي والدعوي؛ بتصحيح المفهومات، والرد على التهم، ووزن الوقائع بالكتاب والسنّة وأقوال العلماء، وعلى الرغم من أنها لم تَحُل دون المواجهة؛ فإنها من جهة أخرى تعطينا (صورة مصغرة مما يتمتع به كلا الرجلين في المزية العلمية، بل هي نموذج مما عليه علماؤنا الأقدمون من رسوخ القدم في العلوم، والمناظرة والجدال)[3]، والتواصل العلمي والدعوي، ونموذج لجهودهم في نشر التعليم الإسلامي بين الناس، والاجتهاد في النوازل على ضوء الكتاب والسنّة.

- **أقسام المراسلات:**

تنقسم هذه المراسلات في العصر الحديث إلى نوعين:

النوع الأول: مراسلة علماء من أبناء المنطقة يعيشون في إحدى دولها: يستفتيه أبناء شعبه، أو قريته، أو من اشتهر بينهم بالعلم والدعوة والورع من القبائل الأخرى.

ومن ذلك، على سبيل المثال، الشيخ الداعية موري موسى كماري – رحمه الله – (ت ١٩٧٦م)، مؤسس مدرسة دار الحديث بمدينة بؤاكي في ساحل العاج، فقد كانت تأتي إليه الرسائل والوفود من شعب المانذغ / البمبارة من مناطق ساحل العاج، وغينيا، وبوركينا فاسو، في مسائل العقيدة والفقه وغيرهما؛ إذ كان أحد أبرز رواد النهضة السنّية الحديثة والدعوة الإسلامية المعاصرة في غرب أفريقيا، وتخرج في مدرسته المئات من أبناء معظم دول المنطقة.

والشيخ المحدث الخضر سعد – رحمه الله –، وهو من أبناء سنغاي الذين كانوا يعيشون في غانا وتوغو، ومن علمائهم الذين درسوا في المنطقة، ثم في الحرمين الشريفين، كان يراسل في المسائل الخلافية؛ إما كتابة، وإما بتكليف شخص يسافر إلى حيث يعيش، وقد كان لفتاويه قبول حسن بين أبناء شعبه في مالي والنيجر، وفي الدول المجاورة لهما؛ بسبب شهرته العلمية وورعه.

وكذلك كان الشيخ حبيب الله بن عبد الله ميغا، مدير مدرسة دار الحديث في مدينة سيفاري بموبتي؛ قبل انتقاله من جمهورية النيجر للعيش في هذه المدينة وبعده.

والشيخ الفاضل خالي ألفا سمبا محمد ميغا – رحمه الله تعالى – العلامة بالفرائض، والمرجع

(١) انظر: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، محمد بلّو، ص ١٥٨، مطابع الشعب، القاهرة، عام ١٩٦٤م، والثقافة العربية في نيجيريا، ص ٩٥ - ١٠٨، ونص بعض المراسلات في ملحق رقم ١ من هذا المرجع، ص ٤٧٥ - ٥١١، والإسلام في نيجيريا، ص ١٢٢.

(٢) انظر: شفاء الغليل، وهي رسالة صغيرة، لا تتعدى خمس صفحات، قدم لها ونشرها مع غيرها الدكتور أحمد محمد البدوي في كتابه: أوراق عربية في صكتو، ص ١٣ - ٣٨، ٣٩ - ٤٤، من جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط٢، عام١٩٩١م.

(٣) انظر: الإسلام في نيجيريا، ص ١٣١.

في علم المواريث في منطقة غاو، فقد كانت تأتيه استفتاءات شفوية ومكتوبة من أبناء شعبه؛ في كل من غانا، وتوغو، والنيجر، وربما استُقدم إليها من أجلها.

والشيخ أبو بكر غومي – رحمه الله – من نيجيريا، وكانت تأتيه الاستفتاءات من أتباعه الهوسا في النيجر، وغانا، وغيرها.

وأمثال هؤلاء وغيرهم كثير، ومن الصعوبة بمكان استقصاؤهم، ولا يقتصرون على أهل السنّة فقط، كما لا يختص بهم شعب دون شعب، ولا دولة دون دولة؛ إذ لا يمكن أن يخلو منهم مجتمع أو بيئة؛ من الهوسا، والماندغ / البمبارة، والسنغاي، والولوف، واللاتة، والسوننكي، والبورنو، واليوربا، والدغومبا، والموسي، وغيرها؛ مصداقاً لقوله تعالى: ... فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (النحل : ٤٣)؛ مع التفاوت بينهم في العلم والتأثير، والشهرة العلمية والدعوية، واختلاف الاتجاه للسائل أو المجيب.. وغير ذلك.

والهدف هنا ليس الاستقصاء، وإنما الإشارة إلى الأثر التعليمي والدعوي لهذه المراسلات قديماً وحديثاً، وإلى أهميتها، وأهمية تناولها في دراسات علمية متخصصة ومعمقة في غرب أفريقيا وغيره.

النوع الثاني: المراسلات العلمية: وهي التي دعمت النهضة الإسلامية الحديثة، وكان لها أثر بارز في التعليم والدعوة المعاصرة بغرب أفريقيا، هو:

المراسلات الخارجية: يوجد هذا النوع بين علماء السنّة ودعاتها في المنطقة وبين غيرهم خارجها، وله جانبان:

أحدهما: أن يكون العالم المستفتى من علماء المنطقة المهاجرين:

ومن أبرز هؤلاء الشيخ محمد المرزوق الفلاتي، وعبد الرحمن بن يوسف الإفريقي، المدير الأسبق لدار الحديث بالمدينة المنورة، وعماد الدين بن حنبل، وحماد الأنصاري، وإسماعيل الأنصاري – رحمهم الله –، والدكتور أبو بكر إسماعيل ميغا، وهؤلاء هاجروا جميعاً من شرق مالي وشمالها (منطقة غاو) إلى السعودية، والشيخ عمر محمد فلاتة – رحمه الله – الأمين الأسبق للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والمدرس بالمسجد النبوي، وكثير غيرهم من علماء غرب أفريقيا ممن جاوروا في الحرمين ولم يعودوا [1].

ويلاحظ أن الغالب على هذا النوع من المراسلة هو الاتصال بالعالم حسب مجموعته التي ينتمي إليها شعباً أو دولة، وأن الاستفتاء يتم إما بالمراسلة، وإما بتكليف حاج أو معتمر بلقاء العالم المستفتى في الحرمين الشريفين وغيرهما، فقد كان من عادة بعض المذكورين وغيرهم أن يستضيفوا بعض أبناء منطقتهم ممن قدموا للحج، وبخاصة طلبة العلم والدعاة، ورؤساء القبائل، وفي ذلك فرصة مهمة لمناقشة بعض الأمور الدينية، والعلمية، والاجتماعية في المنطقة، والرد على ما يرد إليهم من مسائل.

وكذلك كان الحال مع بعض الطلبة الدارسين في الجامعات الإسلامية والعربية ومعاهدها، وبخاصة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وحلقات العلم في الحرمين الشريفين، وجامعة أم القرى، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وغيرها.

وقد يكون المستفتى ممن لا يطمئن المستفتون إلا إلى رأيه؛ لأسباب منها: كونه مشتهراً بينهم قبل التحاقه بالمعهد أو الجامعة؛ لأنه من أبناء قبيلتهم، أو ابن شيخ مشهور يُعقد عليه الأمل ليحل محله.

أو يكون السبب عدم الاطمئنان أو القبول بما قد يكون صدر في المسألة من فتاوى بعض علماء المنطقة المحليين، حتى لو كان من خريجي إحدى الجامعات

(١) أما الذين عادوا؛ فقد تناولت جهود بعضهم في الدعوة والتعليم في بحث آخر بعنوان: (حجاج ومجاورون ينقلون دروس الحرمين الشريفين إلى غرب أفريقيا). نشرته مجلة الحج والعمرة (تصدرها وزارة الحج السعودية) عدد ٥ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ/ يونيو - يوليو ٢٠٠٥م. ص ٤٠ - ٤٣.

الإسلامية، أو إمكان اتصال المستفتي بالجهات العلمية كهيئة كبار العلماء بالسعودية، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر وغيرهما.

وكذلك إمكان اطلاعه على مصادر قديمة ومراجع حديثة، لا يسهل الاطلاع عليها لمن في المنطقة، كفتاوى جديدة، وقرارات علمية لبعض المجامع الإسلامية، كمجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، ومجمع البحوث الإسلامية في الأزهر، وغيرها.

وإذا كان المستفتي من العلماء أو طلبة العلم لم يخل الأمر من الأخذ والرد، والمناقشة، والجدال بالحسنى بينه وبين من استفتاه، وهذا يدل على أن الأقوال التي يفتون بها لم تكن مسلماً بها تسليماً مطلقاً، بل تكون – أحياناً – عرضة لمقارعة أدلتها بأدلة أخرى؛ لصدق الرغبة في الوصول إلى الحق، وفي إيصاله من غير مواربة أو مجاملة، وليصل المستفتي إلى اقتناع عن بصيرة وعلم، ولا سيما إذا كان علماء المنطقة قد خاضوا فيها، ولم يسلم الأطراف المختلفة بحجج بعضهم وأدلته.

وكم كانت مثل هذه المراسلات سبباً في تأليف كتيب للتفصيل في موضوعها، قال الشيخ عبد الرحمن الإفريقي في مقدمة كتابه (الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية): (أما بعد، فيا أخي المحترم؛ قد وصلت إليّ وثيقتكم وقرأتها، وفهمتُ ما ذكرتموه، وها أنا أكتب جوابها إن شاء الله تعالى)[1]، وقال إن سبب تأليفه لكتابه السابق هو: (أن طائفة من الإخوان وقعت بيني وبينهم مذاكرة علمية، حتى ذكرنا البدعة ... فطلبوا مني الدليل على ذلك، وخاصة على إنكار أهل السنّة على التيجانية)[2].

فالسبب في تأليف هذا الكتيب أمران؛ أحدهما: سؤال ورد إليه من بعض إخوانه في غرب أفريقيا عن التيجانية وبعض أفكارها ومبادئها، والآخر مذاكرة علمية حول البدعة؛ طولب فيها بالدليل على ما ينكره هو وغيره من أهل السنّة على التيجانيين.

ومن الأسباب التي تدعو أيضاً إلى مثل هذه المراسلات؛ أن يكون أحد القولين مخالفاً للمذهب السائد في غرب أفريقيا، وهو المذهب المالكي، أو لم يشتهر عندهم قول فيه، سواء كان من ذهب إليه ممن درس المذاهب الفقهية الإسلامية في الخارج، أم عالماً اطلع عليها فترجح له بالدليل.

ولهذه المراسلات دور دعوي وتعليمي آخر، وهو حسم كثير من الخلافات، والحد من التنابذ بين أطراف النزاعات.

ولما كان من الصعوبة الحصول على نماذج كثيرة ومتنوعة لتلك المراسلات؛ لأن كثيراً منها يتم شفوياً، أو مكتوباً لكن لا يلبث المرسل إليه أن يضيعها؛ فإنني أكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المسائل التي تعطي أمثلة لمضمون تلك المراسلات:

- إلقاء خطبة الجمعة بغير اللغة العربية، وهي مسألة قديمة لكنها متجددة.
- قراءة القرآن الكريم للميت؛ هل يصل ثوابها إليه أو لا؟
- المشاركة في السياسة.
- ختان المرأة، وقد احتدم الخلاف فيها مؤخراً، واشتد الجدل بين بعض الدعاة؛ لما خضعت بعض الحكومات للضغط الغربي، السياسي والاقتصادي، الذي يهدف إلى تطبيق قرار الأمم المتحدة بمنعه.
- وكذلك النوازل الكبرى التي تهم الأمة الإسلامية كلها.

الجانب الثاني من المراسلات العلمية الخارجية:

أن يكون العالم المستفتى أحد علماء السنّة من دولة إسلامية أخرى.

ومن أبرز هؤلاء سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت ١٤٢٠هـ) – رحمه الله – المفتي

(١) الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية، الشيخ عبد الرحمن الإفريقي، ص ٧، ط٢، عام ١٤١٢هـ، مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥.

السابق للمملكة العربية السعودية، فقد شهدت إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، والتي كان رئيسها، كثيراً من هذا النوع من المراسلات العلمية، حيث كانت ترد إليها من الدعاة والعلماء بغرب أفريقيا وغيره من أجزاء العالم الإسلامي؛ حول مسائل عقدية، وفقهية، ودعوية، وكان – رحمه الله – يقوم بلقاءات متكررة مع الدعاة وطلبة العلم في هذا الصدد؛ بمكة، والطائف، والرياض.

كما كان – رحمه الله – يبعث الوفود العلمية والدعوية إلى المنطقة للإرشاد والفتوى، والإصلاح بين العلماء، بسبب الاختلاف في مسائل يترتب عليه – أحياناً – تناحر وتقاطع، وإلى عهد قريب كان يوجد باسمه صندوق لمساعدة الدعاة والتعاقد معهم.

ومن مبعوثيه في أواخر السبعينيات إلى منتصف الثمانينيات الميلادية: الشيخ عمر محمد فلاتة، ومحمد أمان علي الجامي، وحامد أبو بكر الكتبي – رحمهم الله جميعاً –.

وإليك نموذجاً من جهود رئيس تلك الإدارة الشيخ ابن باز – رحمه الله – في الإصلاح بين الدعاة بالمراسلات، وإرسال الوفود العلمية والدعوية، ودعوتهم إلى اتباع منهج السلف الصالح في الدعوة، وفي التعامل مع المخالف.

ظهرت في شمال مالي – أواخر السبعينيات الميلادية تقريباً – طائفة أطلقت على نفسها الجمعية الإسلامية (جمعية أنصار السنّة)، وكان ظهورها في طور من أطوار النهضة السنّية الحديثة في هذا الجزء من غرب أفريقيا، وقامت لهدف نبيل، وهو أن يكون لأهل السنّة جمعية توحّد جهودهم في الدعوة والتعليم، وتجمع علماءهم، لكنها ما لبثت أن حادت عن الهدف، وانقسم أهلها إلى أكثرية وأقلية، وأحدث بعضهم أموراً تخالف منهج السلف؛ سيأتي بيانها.

وسنترك الحديث للشيخ حامد الذي ذكر أولاً عادات مخالفة للشريعة كان عليها بعض أهل غرب أفريقيا، والرد عليها، وبيان وجود منكرين كثيرين لها، ومحاولة التماس العذر بالجهل لمرتكبيها، وعدم تمكن الدعاة المخلصين من القيام بواجبهم نحوها؛ لانتشارها، وبسبب سيطرة الاستعمار الفرنسي الذي يحارب أمثال هؤلاء الدعاة[1].

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن طور النهضة (سمّاها اليقظة)، وفيه تكوّنت هذه الجمعيّة، فقال: (وبعد برهة من الزمان، وركود طويل وفترة؛ جاءت يقظة أبناء البلاد، وتغيّرت الأحوال إلى غير ما كانت عليها بالنسبة لهذه المنطقة (منطقة غاو، شمال وشرق جمهورية مالي)، وحصل تطور وتعلم؛ حيث انتشر أبناء البلاد لطلب العلم وسافروا إلى البلاد العربية، إلى أرض الحجاز (الحرمين) ومصر وغيرهما من البلدان في العالم الإسلامي، وتعلّموا ورجعوا، وحصل صحوة ونشاط في طلب العلم، وقد تهيأت لهم الظروف، حيث إنّ الاستعمار البغيض قد ارتحل عن بلادهم، فأصبحوا ليس هناك ما يعوقهم عن أي نشاط يزاولونه من ناحية الدين)[2].

كما بيّن أن هذه الدعوة كانت في البدء دعوة أولئك النخبة من أبناء البلاد الذين رجعوا بعد التعلّم، حيث قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن التقاليد المخالفة للشريعة الإسلاميّة، وعاشوا على خير ما يرام (حتى أصبح أمرهم يسرُّ كلّ مسلم سمع بخبرهم ورآهم، وتكاتفوا وتعاونوا فيما بينهم، كما هو المطلوب بين جميع المسلمين، رغم ما يحصل من نوع خلافات يسيرة؛ كاختلافات التنوّع)[3]. وقد تجاوز تأثيرهم العلمي والديني، على مذهب أهل السنّة غالباً، منطقتهم إلى كلّ دول غرب أفريقيا التي يعيشون فيها، أو التي تسكن لهم فيها جاليات.

ثم ذكر مرحلة الانحراف عن الصورة السابقة للدعوة وللدعاة عامّة، وذكر أسبابها، ومنها: التغيرات

(١) انظر: رسالة في بيان عادات مخالفة للشريعة في غرب أفريقيا... ص ٣٤ - ٣٥.
(٢) المرجع السابق. ص ٣٥ - ٣٦.
(٣) المرجع السابق. ص ٣٦.

التي أدخلوها فيها بحجّة الإصلاح والتطور، وتناسي الهدف الأساس من إنشائها، وحب الرئاسة، والتلقب بأمير المؤمنين، يقول: (كان أوّل خلاف بينهم حينما عيّنوا رئيساً للجمعيّة اختلفوا في تلقيبه، قال بعضهم نسمّيه بأمير المؤمنين، وبعضهم خالف في ذلك، وقالوا يستحيل في الوقت الحاضر أن يكون شخص أميراً للمؤمنين جميعاً، ولا يصلح لذلك ويستحقه إلا من سبق في صدر الإسلام، واشتدّ الخلاف بينهم حتى كتبوا رسالة إلى طلبة العلم في الحرمين [من أبناء شعبهم ومنطقتهم، وكان أكثرهم طلاباً في الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، وفي حلقات التعليم بالحرمين الشريفين، ودار الحديث الخيرية في مكة] يسألونهم هل يجوز ذلك أم لا؟)[1].

كانت خلاصة أجوبتهم؛ أنّه لا يلزمهم تسمية رئيس جمعيّتهم بالأمير؛ لوجود ما يغني عن هذه التسمية، كلفظ رئيس، أو بتقييد الإمارة بنحو أمير الجماعة الفلانية ونحو ذلك، لا أمير المؤمنين، ونصحوهم بالتكاتف والتآلف، ونبذ الفرقة والخلاف[2]، لكن الجمعيّة تمسكت بمواقفها، فشقّت عصا أهل السنّة الذين انقسموا بين مؤيّد، ومخالف وهم الأكثر، بل قسِمت القرية (كاج) إلى قسمين.

أمّا رئيس الجمعية سعد إدريس - رحمه الله - (ت ١٤٢٧/٤/٣هـ، ٢٠٠٦/٥/١م)، وهو من خرّيجي حلقات التعليم الإسلامي في المنطقة، فقد نصب نفسه على أحد قسمي القرية، وسماه (دار السلام)، وتلقّب بأمير المؤمنين، ورفض الطاعة لأمير القرية الذي عيّنته الحكومة.

ثم أخذت الجمعيّة تكفّر مَن لا ينتمي إليها من أهل السنّة ومن غيرهم، ولا تأكل ذبائحهم، ولا تصلي خلفهم أو في مساجدهم؛ إذ تعدّهم مشركين أو مرتدّين، تستبيح أعراضهم وأموالهم ونفوسهم، فأقامت الحدود - حسب زعمها - على أتباعها، وبخاصة حد الردّة (الخروج منها)، ففرقت بها بين الرجل وأهله، كما أوجبت الهجرة إلى مراكزها في مالي، والنيجر، وغانا وغيرها، في تجمعات خاصة، وبيوتات منتشرة في الدول المذكورة، الهدف منها جميعاً الانفصال عن المجتمع، والإبقاء على الصلة القويّة بأميرها، والطاعة المطلقة له أو لنائبه في كلّ دولة أو تجمّع!

إنّ هذه الجمعيّة، إضافة إلى ما سبق كله، تعدّ نفسها الطائفة السنيّة الخالصة، وتلقت - قبل اكتشاف حقيقتها - تشجيعاً مادّياً ومعنويّاً من بعض الوفود الإسلاميّة التي زارتهم في الثمانينيّات؛ طمعاً في إصلاحها بجعلها تنبذ معتقداتها المخالفة لمذهب أهل السنّة، والتي أحدثت بها انشقاقاً كبيراً بين المسلمين في هذه المنطقة وفي الدول التي توجد فيها جالياتهم.

وقد أطلق عليهم مخالفوهم (الخوارج)؛ لكون معتقداتهم موافقة في الجملة لعقائد الخوارج، وقد ذكرت، في مقال سابق بمجلة قراءات إفريقية[3] هذه الجماعة، وأمثالها من الغلاة الذين ينتسبون إلى أهل السنّة، ضمن معوقات الدعوة الإسلاميّة المعاصرة في غرب أفريقيا، وستجد في رسالة ابن باز ما يؤيّد اعتبار أمثالها من معوقات الدعوة، كما أشرت - هناك - إلى أنّ الجمعيّة ذابت إلا قليلاً لعوامل تآكل كثيرة؛ منها عودة كثير من أعضائها إلى المنهج السليم بعد التعلم في الجامعات الإسلاميّة، وتبيّن الحق في أمر مَنْ تبقى من أعضائها في محاورة مشهودة لأميرها بمدينة الطائف أمام لجنة علميّة من كبار العلماء، برئاسة سماحة الشيخ ابن باز - رحمه الله - في أواخر عام ١٤١٢هـ وأوائل ١٤١٣هـ.

■ مراسلة ابن باز لهذه الجمعيّة:

لما استفحل الخلاف وبلغ الأمر سماحة الشيخ

(١) المرجع السابق، ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.
(٣) انظر: مجلة قراءات إفريقية (يصدرها المنتدى الإسلامي)، عدد ٢ شعبان ١٤٢٦هـ / سبتمبر ٢٠٠٥م، ص ١٤.

ابن بـــاز – رحمه الله –؛ أرســـل وفـــداً للإصلاح والنصح، والدعوة والإرشـــاد، يتكون من: الشـــيخ محمد عمر فلاته رئيســـاً للوفد، والشيخ حامد أبو بكر ســـكرتيراً للجنة، كان معهـــم خطاب رقم ٣٣٣ بتاريخ ١٤٠٢/٣/١٨هـ إلى أمير تلك الجماعة[١].

غـــادروا المدينـــة المنـــوّرة ثـــم جدّة فـــي يوم الأحـــد ١٤٠٣/٤/٩هـــ إلـــى كانـــو بنيجيريا، ثم إلى بماكـــو عاصمـــة مالـــي التي وصلوهـــا يوم الاثنين١٤٠٣/٤/١٠هـ، أمّـــا منطقة غاو فوصلوها صباح الخميس ١٤٠٣/٤/٢٠هـ[٢].

وســـأضطر هنا إلى الإطالة في نقل مقتطفات من هذه الرســـالة بنصّها، ومـــن غير تصرف فيها لأهميتها، لتتبين لنا محاولته فيها توجيه مسار هذه الدعوة الوجهة الصحيحة على ضوء الكتاب والسنّة، وتوحيد كلمة الدعاة، والدعوة إلى الرفق والتيسير، وسدّ الأبواب التي قد تؤتى الدعوة من قِبلها، وذكر كثير من المعوّقات التي واجهت – ولا تزال تواجه – نشـــر الدعوة الإسلامية المعاصرة؛ بعضها من صنع بعض الدعاة أنفسهم.

وما أكثر مثل هذه الرســـائل من الشـــيخ إلى المسلمين في جميع أنحاء العالم متى ما علم بفُرقة واختلاف؛ فكان لها أثر كبيـــر في التعليم والدعوة والإصلاح، وتوحيد كلمة المسلمين على الحق.

جاء في مقدمة خطابه:

أ – مـــا يفيد متابعة الشـــيخ لأخبـــار الدعوة والدعـــاة في غرب أفريقيا وغيـــره، ثم الدعاء لهم بالتوفيق، والإخلاص لله في القول والعمل، والدعوة عن بصيرة وعلم.

ب – بيان الغرض من الخطاب.

ج – تحديد مهمّة الوفد الدعوي الذي أرســـل الخطاب معه، وبيان مدى أهليّتهم العلميّة والدعويّة للقيام بما نيط بهم، وثقته في استعداد المرسل إليهم للالتقاء بالدعاة والعلماء للمناقشة والحوار.

يقول: (من عبد العزيز بن عبد الله بن باز، إلى إخوانه في الله في جمهورية مالي: الشيخ سعيد بن إدريس وإخوانه.

وفقنا الله وإياهم لمرضاته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

نفيدكم بأننا نتتبع أخباركم لنعرف عن ســـيرة الدعوة عندكم، ونسأل الله لكم التوفيق والسداد في دعوتكم وإصلاحكم، كما نسأله – تعالى – أن يجعلنا وإياكم من دعاة الحق الصالحين الذين يريدون وجه الله في أعمالهم، ويدعون إلى الله على بصيرة، ولما نعلم من رغبتكم الشـــديدة في الالتقاء بطلاب العلم والعلماء الذين يعملون فـــي مجال الدعوة إلى الله؛ ولما نعتقد من وجوب النصح فيما بين المسلمين عامة وبين الدعاة خاصة، رأينا أن نوفد لكم بعض العلماء الذين يعملون في الجامعة الإسلامية، بل بعض كبار المدرســـين في المسجد النبوي وهم ... [ذكر الثلاثة الذين ســـبقت الإشارة إليهم] وهم معروفون لديكم، فلســـنا بحاجة إلى تعريفهم لكم، وأوفدناهم إليكم؛ ليتعاونوا معكم في ســـبيل الدعوة إلى الله في فترة وجودهم هنـــاك؛ وليقوموا بإصلاح ذات البين؛ لأننا نسمع أن هناك بعض الاختلاف فيما بينكم)[٣].

والشيخ قد سلك أســـلوباً تهذيبياً عظيماً يتمثل في (أن يعمد المربّي فيجمع لمن يربيه بين ما يدل على بقيّة كمال فيه؛ حتى لا يقتل همّته باليأس من كماله، فإنّه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكدّ في طلب العلا والكمال)[٤]؛ ومن ثَمّ الإصرار على موقفه، تجد هذا الأسلوب التهذيبي العظيم في إشـــارة الشيخ إلى الرغبة الشديدة لديهم

(١) اقرأ نص الخطاب في: رسالة في بيان عادات مخالفة للشريعة، ص ٥٨ - ٦٥.

(٢) انظر تفاصيل الرحلة وأحداثها في المرجع السابق، ص ٤٨، و ص ٥٦.

(٣) رسالة في بيان عادات مخالفة للشريعة في غرب أفريقيا .... ص ٥٨ - ٩٥.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١ / ٣٣٥.

في الالتقاء بطلبة العلم والعلماء، ومن ثم دعاهم إلى التعاون والتباحث معهم للوصول إلى الصواب، بالإضافة إلى ما في هذا الأسلوب من البعد بالمخاطَب عن المكابرة والعزّة بالإثم حين يستشعر أنّه ندّ لمن سيلتقيهم، ويناقشهم بالدليل، ويأخذ ويردّ بالبرهان.

وأخذ الشيخ في بيان ما أوصى به ذلك الوفد، كالتباحث العلمي معهم بموضوعيّة للوصول إلى نتيجة مقنعة، مبناها الدليل والبرهان، وإزالة الحزازات، وتهيئة النفوس لقبول الحق من كل أحد مهما كان، وبيان أنواع الاختلافات وأسبابها (دنيويّة شخصيّة، وتطلع إلى الرئاسة، ودينيّة فقهيّة أو عقديّة)، وما يجوز في الاختلاف، وما لا يجوز فيه، والتنبيه على الأسلوب الصحيح في تناول المسائل المختلف فيها، وآثارها السيّئة إذا لم تعالج على نهج قويم وبحكمة وموضوعيّة، وبالدليل والبرهان من الكتاب والسنّة.

يقول في رسالته نفسها: (وقد أوصيناهم أن يطلعوا على نوع الخلاف الذي بينكم، ثم يقوموا بالإصلاح، إن كان الخلاف للأغراض الدنيوية، والحزازات النفسية، والتطلع إلى الرئاسة؛ فمثل هذا الموقف يجب على الدعاة أن يبتعدوا عنه، ويتنزهوا منه، ويتوبوا إلى الله إن وقعوا في شيء من ذلك؛ لأن مثل هذا الموقف يكون عقبة في سبيل الدعوة إلى الله.

وأما إن كان الخلاف في المسائل الدينية، مثل الاختلاف في الأحكام الفقهية، والمسائل الفرعية التي هي محلّ الاجتهاد للعلماء المؤهلين للاجتهاد؛ فسوف يبحث المشايخ معكم في ذلك الاختلاف على ضوء الكتاب والسنّة، حتى تجتمعوا على العمل بالحق، والدعوة إلى الحق، فهذه أمنيتنا فيكم، وفي أمثالكم من الدعاة، فنسأل الله – تعالى – لنا ولكم التوفيق.

وإن كان الخلاف في مسائل العقيدة، وتحقيقها، ومعرفة موقف السلف من النصوص الواردة فيها، وفي تحقيق توحيد العبادة بمعرفة حق الله على عباده، ومعرفة حق العباد على الله حق تفضل وإحسان، فهؤلاء المشايخ الموفدون إليكم قد مارسوا تدريس مادة العقيدة مدة طويلة، كما عملوا في مجال الدعوة والتوعية بتصحيح العقائد، ومحاربة البدع؛ لذا نرجو أن تُوَفَقوا في التباحث معهم بإنصاف حتى تصلوا إلى النتيجة؛ بتحقيق تلك المسائل التي اختلفتم فيها في هذا الباب الخطير)[1].

ثم أخذ الشيخ – رحمه الله – في تقديم النصائح، وبيان الحلول في مسائل الاختلاف السابق ذكرها، وبيان منهج السلف فيها، يقول: (ومما نؤكد لكم أنّ سلفنا الصالح – رحمهم الله – لم يختلفوا قطّ في أيّ مسألة في العقيدة، سواء كان ذلك في توحيد العبادة، كما لا يخفى عليكم، أو في توحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية فهو محلّ إجماع بين الكفار والمسلمين على حدّ سواء، كما لا يخفى عليكم، فنسأل الله لنا ولكم التوفيق حتى تتغلبوا على هذا الاختلاف الذي نسمعه.

ومن المسائل التي يختلف حولها الإخوان كثيراً، على ما سمعنا، مسألة تقسيم الكفر والشرك والظلم؛ إلى كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وظلم دون ظلم، فمعرفة هذه المسائل وتحقيقها، وإعطاء كلّ قسم من الأقسام حقه من الحكم، وعدم الخلط بينهما أمرٌ مهم جدّاً لكلّ مسلم، وخصوصاً لطلاب العلم الذين يعملون في ميدان الدعوة إلى الله، وإصلاح ما فسد من أمور الناس الدينية.

وقد وردت بعض النصوص تسمّي بعض الذنوب والمعاصي كفراً، وهذا النوع من الكفر يقال له: كفر عملي أو كفر دون كفر، وليس كفراً ناقلاً عن الملّة، ومن أمثلة ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، وبإجماع أهل العلم أنّ المسلمين لو تقاتلوا عصبية

(١) رسالة في بيان عادات مخالفة للشريعة في غرب أفريقيا .... ص ٥٩ - ٦٠.

أو حمية، وقتل بعضهم بعضاً لا يخرجون بذلك من الملّة، بل هم عصاة وفُسَّاق بما ارتكبوا من الكبيرة؛ ما لم يستحلوا ذلك الدم...)[1].

ثم يدعو إلى عدم التسرع في الحكم على الناس، خاصة في بيئتهم، وعلى ضرورة فقه الواقع الذي يعيشون فيه، ومن فوائد فهم ذلك الواقع: معرفة أنّ كثيراً من العامّة يجهلون أحكام الدين، والتفريق بين الجاهل بالحكم وغيره، وخصوصاً مع قرب عهد هذا المجتمع بالاستعمار الذي كان يحول بينه وبين الدعاة، ويحارب نشر الوعي الإسلامي الصحيح فيه.

كما دعاهم إلى الانطلاق من التيسير والرفق والحكمة، وعدم التسرع إلى تكفير الناس، قال: (ومما ننصحكم به عدم التسرع بالتكفير إلا بعد التأكد أن هذا الإنسان قد اقترف الشرك الأكبر، إنّ من كفّر شخصاً ليس بكافر في حقيقة الأمر يصبح هو الكافر، بل الواجب في مثل ذلك البلد الذي تعيشون فيه التأنّي، والتريّث، واستعمال الورع في أمر التكفير؛ لغلبة الجهل على كثير من الناس، حتى على بعض المنتسبين إلى العلم، وليس لديهم تحقيق في هذا الباب الخطير، والعامة من باب أولى، فينبغي الرفق بهم، وأخذهم بالحسنى، ولين الجانب، حتى يتبيّن الحق؛ لأننا مأمورون أمراً واجباً على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام: (بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا)، فيُفهم من مثل هذا الحديث أنّ التعسير على الناس وتنفيرهم حرام، ويعتبر صدّاً عن سبيل الله، كما أنّ التيسير والتبشير، والرفق والرحمة، واجب على كل داعية إلى الله.

ومما ينبغي أن يُعلم أنّ الصلاة صحيحة وراء كلّ مسلم مستور، ما لم يُعلم أنّه يشرك بالله شركاً أكبر؛ مثل الاستغاثة بغير الله؛ من الأصنام ونحو ذلك، والموتى، والأشجار ونحو ذلك، معتقداً أنّ ذلك

(١) المرجع نفسه، ص ٦٠ - ٦١.

الغير يسمعه فيغيثه ويقضي حاجته، ومثل الذبح إلى غير الله، وغير ذلك من أنواع الشرك الأكبر، ومن فعل ذلك، وهو ممن لا يُعذر بالجهل، فهو كافر خارج الملّة، وهكذا تصح الصلاة خلف العصاة في أصح قولي العلماء لأحاديث وردت في ذلك.

فنرجو من الإخوان أن ينتهزوا فرصة وجود المشايخ معهم ليبحثوا هذه المسألة وغيرها من المسائل المهمة، حتى يصلوا إلى المفهوم الصحيح. ومن شُك في أمره وجب التوقف عن تكفيره حتى يوجه إلى الخير، ويُبين له حكم ما وقع فيه)[2].

(ومن المسائل التي سببت الخلاف بين الإخوان - مما سمعنا - اختلافهم في مسألة أكل اللحوم العامة التي تُشترى من السوق، أو التي يذبحها أحد من غيرهم، وهذه المسألة لا ينبغي التشدد فيها إلى تلك الدرجة التي بلغتنا، بل إذا ذبح الذبيحة مسلم مستور لم يُعلم أنه ارتكب شركاً ناقلاً من الملّة؛ فتؤكل ذبيحته دون بحث عن عقيدته، بل بناء على ظاهر إسلامه. أما عدم أكل ذبيحة إلاّ إذا كان الذابح منكم أنتم فهذا أمر غريب، وتشديد زائد قد يؤدي إلى التنطع، وقد هلك المتنطعون، كما جاء في الحديث، وهكذا ذبيحة أهل الكتاب حلٌّ لنا؛ لأنّ الله - سبحانه - أباح طعامهم لنا ما لم نعلم أنّها ذُبحتْ على وجه يحرمها... فنرجو من الإخوان الاهتمام بتحقيق هذه المسألة مع المشايخ الموفدين إليهم.

وكذلك تلك المسألة التي تتعلق بالزواج، والسفر، وحكم من تخلف عن صلاة الجماعة؛ بعذر أو بغير عذر، ومسائل أخرى تتعلق بصلة الرحم، وزيارة الأقارب للرجال والنساء، ومسألة التزام الناس بالهجرة إلى مكان معيّن يسمى (دار السلام).

وهنا أحب أن أصارحكم أنّ مثل هذه التصرفات لا تخدم الدعوة، ولا تجذب قلوب الناس إليكم، بل

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٢ - ٦٣.

هي تضر بالدعوة، وتنفر الناس عنكم، وتصدّ عن سبيل الله، وهي تتنافى مع الحكمة التي أمر الله بها بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ (النحل: ١٢٥)...

هذا ونكرر النصح لكم باستعمال الرفق، وعدم التشدد، والاستفادة من طلاب العلم، سائلين الله - تعالى - لنا ولكم الهداية والتوفيق للإخلاص لوجهه - سبحانه - مع إصابة الحق، إنّه قريب مجيب. وصلى الله وسلم وبارك على نبي الرحمة محمد وآله وصحبه وسلم.

الرئيس العام لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد)[1].

■ ويبقى سؤال مهم وهو: ماذا كان موقف الجمعيّة من الخطاب؟ وما تأثيره التعليمي والدعوي؟

رفض رئيس الجمعيّة الاستجابة للخطاب، بل قام بتحريف بعض ما ورد فيه بطريقة تخدم أهدافه، يقول الشيخ حامد عن موقف رئيسها: (كان المفروض أن يرسل صورته... إلى أتباعه، ولكن لم يفعل ذلك، بل كتب رسالة بخطّه وغيّر فيها وبدّل، وحذف وزاد ونقص؛ على أنّ هذه هي مضمون خطاب الشيخ، ثم إنّ بعض أتباعه وجدوا صورة خطاب الشيخ مع الفريق الثاني (أي المخالفين لهم)، وعلموا أنّ ما جاءهم غير خطاب الشيخ بل يخالفه كل المخالفة، ووجد بعض أتباعه في أنفسهم شيئاً من ذلك، وفهموا منه عدم اعتباره لهم كأعضاء عاملين معه في الدعوة إلى الإسلام حتى يخفي عنهم خطاب سماحة الشيخ عبد العزيز، وقد كان ذلك من أسباب ضعف العلاقة بينه وبينهم)[2].

وبالرغم من هذا الرفض؛ فإنّ ابن باز - رحمه الله - لم يألُ جهداً في محاولة إصلاحها؛ باستقبال أميرها في مكة المكرمة والطائف، في زيارات متكررة، ومحاورته، ومحاولة الأخذ بيده إلى المنهج السليم.

لعلّ قائلاً يقول: إذا كانت الجمعيّة ورئيسها قد رفضت خطاب ابن باز وحرّفته؛ فمن أين كان لهذه المراسلة العلميّة تأثير دعوي وتعليمي؟

وللإجابة أقول: لقد كان لها أثرها التعليمي والدعوي من عدّة نواح، شملت الجمعيّة، ومخالفيها، والساعين إلى الدعوة والإصلاح في كثير من مناطق العالم الإسلامي؛ منها على سبيل المثال لا الحصر:

- بنشر المضمون الحقيقي للخطاب بين الخاصة والعامة؛ وجدوا فيه توجيهات سديدة في التعامل مع المخالف، ونصائح قيّمة للدعاة والعلماء، وبيان لمواطن الاختلاف، ورودوداً قويّة وأدلة من الكتاب والسنّة على بطلان مبادئ تلك الجمعيّة وأمثالها، ومخالفة مناهجها للشرع الحنيف.
- ومن أثرها التعليمي والدعوي فيمن يريد الإصلاح والتوفيق بين المسلمين فيما يختلفون فيه: أنّ عليه ضرورة الاتصال بطرفي الاختلاف والاستماع إليهما، وفقه واقعهما التعليمي والاجتماعي، ودقة التثبُّت والتحرّي لمعرفة الشّبه والأدلّة والدوافع؛ فبذلك تتضح حقيقة المواقف، ويتمكن المصلح من التأليف بين النفوس، وتهيئتها لقبول الحق الذي يؤيّده الدليل والبرهان، ويوجد الثقة بمن يريد الإصلاح والتوفيق، فقد كان سبب عودة بعض أعضاء تلك الجمعية إلى الصواب وجود صورة من الخطاب لدى المخالفين للجمعية.
- قيام بعض أعضاء الجمعيّة بمراجعة مواقفهم التي انتهت بهم إلى الخروج منها؛ بعد أن فقدوا الثقة برئيس الجمعية واتهموه، وذلك نتيجة إخفائه لحقيقة مضمون خطاب ابن باز.

(١) المرجع نفسه، ص ٦٣ - ٦٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٦ - ٥٧.

- تقوية موقف المخالفين لهم والذين وصفوهم في البدء بالخـــوارج، ورأوا في مواقفهم وأحكامهم مخالفات صريحة لمذهب أهل السنّة والجماعة الذي سمّوا الجمعيّة باسمه.
- أدت نوعاً ما إلى تصحيح مواقف بعض المخالفين لأهل الســـنّة والجماعة، ممن كانوا لا يرون في كبار علماء الســـعوديّة، وفي كثير من خريجيها مـــن العلماء والدعـــاة، إلاّ التشـــدد والتزمُّت، والتكفير للمسلمين، وغير هذه الصفات السيّئة التي ظنوها فيهم بســـبب الجهل، أو سوء الفهم والقصد، واختزلوها في كلمة (الوهابية).

هكذا، كان للمراسلات العلميّة قديماً وحديثاً، ولبعـــض الوفود الدعويّة إلى جميع شـــعوب غرب أفريقيـــا، أثر تعليمـــي ودعوي كبير فـــي النهضة الإســـلاميّة الحديثة والمعاصرة، ســـواء في توجيه مســـارها الوجهة الصحيحة؛ بمحاولة توحيد كلمة الدعاة، وبيـــان مواطن الاختـــلاف وآدابه، ومنهج الســـلف عند الاختلاف، أو في وضع بعض المعالم المهمّـــة لمنهج ســـليم في الدعوة إلـــى الله، كالرفق والتيسير، وحسن التعامل مع المخالف، والعودة إلى الكتاب والســـنّة، والبعد عن التكفير، وسدّ الأبواب التي قد تؤتى الدعوة من قِبلَها.

كما تمثل هذه المراسلات جانباً مهمّاً من جوانب التواصل العلميّ والثقافي والدعوي بين المســـلمين في غرب أفريقيا دعاة ومدعوِّين، وبين بعض علماء المسلمين في أجزاء من العالم الإسلامي، كالحرمين الشـــريفين وغيرهما، ذلك التواصل القديم المتجدد تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿... **فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل : ٤٣).

واللـــه وليّ التوفيـــق، وهو الهادي إلى ســـواء السبيل.

جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة الإسلامية والعربية..

غرب أفريقيا أنموذجاً

د. علي يعقوب (*)

يهدف هذا البحث إلى إبراز جهود العلماء الأفارقة في مجال العلوم الشرعية واللغوية، سواء في التأليف أو التدريس، وقد بدأته بعلماء دولة سنغي في عهد أسكيا محمد تورى إلى عصرنا الحاضر، وتناولت المشاهير منهم، فذكرت جوانب من إسهاماتهم في العلوم المذكورة.

وقد قسمت البحث إلى قسمين؛ الأول عن دخول الثقافة الإسلامية العربية إلى الدول الإفريقية الغربية، والثاني عن جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة الإسلامية والعربية.

■ أولاً: دخول الثقافة الإسلامية العربية إلى الدول الإفريقية الغربية:

من الصعب أن نحدد متى بدأ انتشار اللغة العربية في أفريقيا، وبخاصة غربها، لكن تذكر بعض المصادر أن تجَّار المغرب ومصر كانوا يترددون على الأسواق الرئيسية في أفريقيا، وذلك في العقود الأخيرة للقرن السابع الميلادي الموافق للقرن الأول الهجري، ومن الطبيعي أن ينقل هؤلاء التجَّار لغتهم إلى القارة، هذا في غربها.

وأما شرقها، وبخاصة الحبشة وما جاورها من البلدان مثل جيبوتي والصومال، فقد عُرفت اللغة العربية هناك منذ قرون قبل ظهور الإسلام، لصلتهم بأرض الحجاز واليمن.

ولكن الذي نستطيع أن نؤكده أن انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في أفريقيا واكب انتشار الإسلام، فهما متلازمان حيثما يدخل الإسلام تدخل معه اللغة العربية، ولا يكاد الإسلام يستقر في مدينة أو قرية حتى يفتح الدعاة أو التجار فيها مدرسة لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين واللغة العربية التي لا يفهم أحد الإسلام فهماً صحيحاً بدونها.

وكذلك كان للحج دور كبير في نقل اللغة

(*) محاضر في الجامعة الإسلامية - بالنيجر.

العربيـــة والثقافـــة الإســـلامية إلى القـــارة، فقد كان بعـــض الحجاج يبقون فـــي الحجاز بعد الحج للدراســـة، وتحصيل العلم والمعرفة، ثم يرجعون إلى بلدانهم لنشـــر العلم الذي حصّلـــوه في الحجاز، ومعهم بعض الكتب الإسلامية والعربية، وكان بعض الأمراء والملوك الأفارقة حين حجهم يستقدمون إلى بلدانهم بعض العلماء لتعليم الإسلام واللغة العربية، ويجلبون معهم كتباً في العلوم الإســـلامية والعربية، وبهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى أرض أفريقيا، وبخاصـــة غربها؛ مما ســـاعد على انتشـــار اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

وأصبحت اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وأصبح الحرف العربي هو الحرف الذي تُكتب به أشهر اللغات الإفريقية، مثل الهوسا والفلانية والســـواحلية والولفية، وأصبحت المنطقة عظيمة الحضارة والتقدم بســـبب الإســـلام ولغته، (وسرعان ما شـــكّل الإسلام عادات السكان، وطور أحوالهم، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره، أو يفوقه في الدول المعاصرة لها، في تلك الفترة في أوروبا)[1].

■ ثانياً: جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية:

وقد كان للممالك والعواصـــم والمراكز العلمية التـــي ذاع صيتها في غرب أفريقيـــا، مثل: تمبكتو وجنى وأغاديس وكنو وكتشـــنا، الفضل العظيم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، ووصلت الثقافة العربية الإســـلامية إلى ذروة ازدهارها في القرنين الخامس عشـــر والسادس عشر الميلاديين، وذلك في عهد (إمبراطورية سنغي الإسلامية) التي اشـــتهرت بكثرة علمائها ومؤلفاتهـــم العلمية التي أســـهمت بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب القارة وخارجها.

وقـــد حفلت مدينة تمبكتو – العاصمة الثقافية لإمبراطورية سنغي – بالعديد من مشاهير العلماء الذيـــن ألفوا في شـــتى العلـــوم الدينيـــة واللغوية والتاريخية.

ومن أشهر علمائها؛ الشيخ أحمد بابا التمبكتي، لم يحظ عالم في تمبكتو بمثل سعة علمه وشهرته، وكان عالماً موســـوعياً، مؤرخاً، عالماً بالشريعة، ومن المتبحرين في اللغة العربية وآدابها، يذكر مترجموه أنـــه ألف ما يزيد على أربعـــين كتاباً[2]. وقد درس في دولة ســـنغي وخارجها، وذلك في مدينة مراكش المغربية لمـــا نُفي إليها، وحضر دروســـه مئات من طلاب العلم في مراكش وخارجها.

ومن أشهر مؤلفاته: (كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وهو كتاب ذيَّل به كتاب ابن فرحون المالكي (الديبـــاج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، وله شـــرح على (مختصر خليل)، و(كفاية المحتاج)، و(معراج الصعود) وغيرها من الكتب.

ومن العلماء الذين أســـهموا في نشـــر الثقافة العربية الإســـلامية في الســـودان الغربي في عهد إمبراطورية ســـنغي؛ المؤرخ المشهور الشيخ محمود بـــن كعت الكرمني صاحب كتـــاب (تاريخ الفتاش)، وهو كتاب يؤرخ لدولة ســـنغي والـــدول التي قبلها مثل دولة مالي، وكان المؤلف من وزراء الحاج أسكيا محمد تورى، ومن الذيـــن صاحبوه في رحلة حجه المشهورة.

ومنهم؛ الشـــيخ عبـــد الرحمن بـــن عبد الله السعدي صاحب (تاريخ السودان)، وهو كتاب يؤرخ لدولة سنغي الإسلامية، وقد امتدت دولة سنغي في

(١) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، مجلة أم درمان، العدد الثاني عام ١٩٦٨م، ص ١٩.

(٢) انظر: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، للولاتي، ص ٣٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٩١م.

أوج اتساعها إلى منطقة آير في النيجر، ومن أشهر مدن آير في تلك الفترة مدينة أغاديس وتيجدا، وقد أسهمتا في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة آير وخارجها إسهاماً بارزاً، وذلك بكثرة علمائها، ومؤلفاتهم العلمية.

وقد بدأت النهضة العلمية في آير بمجيء الشيخ عبد الكريم المغيلي إليها عام ١٤٧٩م، وافتتاحه مدرسة قرآنية للصغار، وأخرى للكبار، لتعليم علوم الدين والعربية، وبقي فيها فترة قبل مواصلة رحلته إلى كتشنا وكنو، وقد تتلمذ على يديه كثيرون، ومن أشهر طلابه الذين برزوا وأسهموا في نشر الثقافة الإسلامية العربية: الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمني الأغدسي، وقد ترجم له الشيخ أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج فقال: (فقيه نبيه زكي الفهم، حاد الذهن، وقّاد الخاطر، مشتغل بالعلم، في لسانه حدّة، له تعاليق من أحسنها تعليقه على قول خليل «وخصصت نية الحالف»)[١]، وقد اختصر الشيخ أحمد بابا هذا التعليق وسماه (تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف).

وله جزء بعنوان (وجوب الجمعة بقرية أنوسامان)[٢]، ألفه في الرد على الذين يرون أن قرية أنوماسان لا يصح إقامة الجمعة فيها؛ لأن تعداد سكانها لا يسمح بذلك، والشيخ يرى أنه يجب إقامة الجمعة فيها مع العدد الموجود في القرية. وقال الشيخ أحمد بابا: (فأرسلوه، أي الكتاب، إلى علماء مصر فصوبوه)[٣]؛ أي صوبوا الشيخ العاقب فيما ذهب إليه من جواز إقامة الجمعة في قرية أنوسامان.

ومن إنتاجاته العلمية أيضاً (الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود)، وله أيضاً (أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير)، وقد أجاب فيها عن أسئلة السلطان الحاج أسكيا محمد. وهذه المعلومات القليلة عن شخص العاقب يشهد له بالمكانة التي كانت له لدى العلماء ورجال السياسة في عصره.

ومن علماء آير الذين أسهموا إسهاماً فعالاً في نشر الثقافة العربية والإسلامية في تلك الفترة؛ الشيخ شمس الدين النجيب بن محمد التيجداواي، قال أحمد بابا التمبكتي عنه: (أحد شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين: كبير في أربعة أسفار، وصغير في سفرين)[٤]، وله تعليق على كتاب (المعجزات الكبرى) للإمام السيوطي، و(شرح العشرينيات للفازازي)، وله أيضاً (الطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى).

ومن العلماء الأفارقة الذين لهم إسهامات في الثقافة العربية الإسلامية؛ الشيخ أحمد فورتو البرنوي، الذي كان معاصراً للسلطان إدريس ألوما سلطان إمبراطور البرنو من عام ١٥٧٠ - ١٦٠٣م، وكان الشيخ أحمد فرتو حافظ سره وإمامه في الصلاة، وله كتاب في تاريخ البرنو، وكتاب آخر في حروب سلطان إدريس ألوما وسيرته، ويعد الكتابان مصدرين مهمين عن إمبراطورية كانم برنو في القرن السادس عشر الميلادي، وقد ترجم الكتابين إلى الإنجليزية رتشمون بالمر R.M.PALMER، ونُشر عام ١٩٢٦م[٥].

ومن أشهر علماء السودان الغربي في القرن الثامن عشر الميلادي على الصعيد العالمي؛ الشيخ محمد الكشناوي المتوفى بالقاهرة عام ١٧٤٢م، وقد اشتهر هذا العالم عند علماء الشرق بفضل السيرة

(١) انظر: نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب. ص ٢١٧. دار الكتب العلمية.

(٢) وهي قرية تقع بقرب من مدينة تيجدا في شمالي غرب مدينة أغاديس.

(٣) أحمد بابا. نيل الابتهاج. ص ٢١٨.

(٤) المصدر السابق. ص ٣٤٨.

(٥) الحضارة الإسلامية في النيجر. من منشورات الإيسسكو عام ١٩٩٤م. ص ١٠٥.

التي كتبهـا عنه عبد الرحمـن الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجـم والأخبار)، حيث قال عنه: (وحج سـنة ١١٤٢هـ [الموافقة لسنة ١٧٢٩م]، وجـاور بمكة، وابتدأ هناك بتأليـف (الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم)، وهـو كتـاب حافل... ومـن تآليفه كتـاب (بهجة الآفاق وإيضاح اللبـس والأغلاق في علم الحروف والأوفاق)... وله منظومة في علم المنطق سـماها (منح القدوس)، وشرحها شرحاً عظيماً سماه (إزالة العبوس عن وجه منح القدوس)... ومن تآليفه (بلوغ الأرب مـن كلام العرب) في علـم النحو، وله غير ذلك)[1]، وقد تلقى حسـن الجبرتي علوماً مختلفة من محمـد الكشاوي، وترجمة ابنه للشـيخ محمد الكشاوي تظهر لنا جلياً مكانة هذا العالم الجليل.

وإذا انتقلنا إلى دولة الشـيخ عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر الميلادي في شمال نيجيريا والـدول المجاورة؛ نجد أن إسـهام الأفارقة قد بلغ ذروته من حيث التأليف والتدريس، والجهاد لإعلاء كلمة الله، ففـي مجال التأليف نجـد أن مؤلفات الشيخ عثمان بن فوديو قد تصل إلى مائة مؤلف، ما بين كتاب ومقالة، ومن أشهرها كتاب (إحياء السنّة وإخماد البدعة).

وإذا نظرنا إلى علامة السودان، أوعربي السودان، أو نادرة السـودان الشـيخ عبد الله بن فوديو شقيق عثمان بن فوديو؛ نجـد عنده مؤلفات عدة في المجال الشـرعي والأدبي ومنها: (ضيـاء التأويل في معاني التنزيل)، وهو كتاب في تفسـير القـرآن الكريم، وله أيضاً: (مفتاح التفسـير)، وهي منظومـة تزيد على سبعمائة بيت، نظم فيها علوم القرآن من كتابي الإتقان في علـوم القرآن والنقاية للسـيوطي، وله في مجال النحو (البحـر المحيط)، وهو منظومة في أربعة آلاف وأربعمائة بيت، نظم فيها جمع الجوامع وهمع الهوامع للسـيوطي، وفي الصرف له (الحصن الرصين)، وهو منظومة في ألف بيت، وله ديوان شـعري مشهور وهو (تزيين الورقات لما لي من الأبيات).

وكذلك الشيخ محمد بلو بن عثمان بن فوديو، وله مؤلفات عدة، ومن أشـهرها (إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور)، وهو من المراجع الأساسية لتاريخ الجهاد العثماني، وأهم علماء تلك الفترة وما قبلها.

ومن الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية؛ الشـيخ أحمـد حمد لبو الماسـني، مؤسـس الدولة الإسـلامية في ماسـينا – مالي، وكان له جهود في نشر المدارس القرآنية في منطقة ماسينا وما جاورها، حيث جعل تعليم القرآن الكريم واجباً إلزامياً على كل طفل بلغ السـابعة من عمره، وارتفع بسبب ذلك نسبة الحفاظ وعلماء الفقه واللغة العربية وآدابها بين مختلف طبقات المجتمع، وكان للشيخ أحمد نفسه حلقة تفسير في المسـجد الجامع، وتقدر بعض المصادر التاريخية عدد العلماء والفقهاء المشهورين في دولة ماسينا بنيف وثلاثمائة عالم، ولكن للأسـف الشديد فإن مؤلفاتهم العلمية والأدبية قد اندثرت بسبب الحرب الأهلية التي نشـبت بين حفيد أحمد لبو الشيخ أحمد أحمد أحمد لبو، والشـيخ عمر الفوتي والبكائي الكنتي، رحم الله الجميع – آمين.

ومنهم؛ الشيخ عبد القادر كن (١٧٢٨م – ١٨١٠م) مؤسس الدولة الإمامية في حوض السنغال، وكان للشيخ عبد القادر كن دور كبير في إنعاش الثقافة الإسلامية ونشرها في منطقة فوتا تورو، (وكان أول عمل قام به لإصلاح وإنعاش الحركـة الثقافية؛ أن أقدم على بناء أربعين مسجداً جامعاً في طول البلاد وعرضها، وعين في كل مسـجد إماماً راتباً، ويتولى القضاء في الوقت نفسـه، وفي كل مسجد حلقات لدراسة القرآن الكريم

(١) انظر: تاريخ الجبرتي، (١ / ٢٠٨ - ٢١٠)، مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة.

والدين واللغويات... ولقد شجع العلماء، وأولى العلم بالاهتمام)[1]، وتعهد بنمو الحركة الثقافية في منطقة فوتا تورو وما جاورها، حتى وصلت بلاد فوتا في عهده إلى مستوى انتزع فيه قيادة الحركة الثقافية الإسلامية من حوض النيجر، وقد استمرت الدولة الإمامية في عطائها الثقافي حتى جاء الاستعمار الفرنسي وقضى عليها.

وكذلك كان لقبائل كنته العربية في صحراء مالي والنيجر دور مهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في الصحراء وما جاورها، وذلك على يدي الشيخ سيدي المختار الكبير (١٧٢٩م - ١٨١١م) وذريته من بعده، وكانت خيام الشيخ المنتقلة في الصحراء قبلة طلاب العلم يتوافدون عليها من جميع أنحاء الصحراء لينهلوا من معينة الذي لا ينضب.

وللشيخ سيدي المختار الكبير مؤلفات علمية كثيرة في الفنون الشرعية واللغوية، حتى قيل إنه ألف من الكتب عدداً يساوي سني حياته أربع وثمانون سنة، في حين ينسب له آخرون ٣١٢ مؤلفاً[2]. ومن مؤلفاته: (تفسير البسملة)، و (فتح الورود في شرح المقصود والممدود لابن مالك)، وغير ذلك.

ومنهم؛ الشيخ المحدث الحافظ صالح بن محمد الفلاني، وهو من العلماء الأفارقة الذين اشتهروا في خارج القارة؛ لأن إسهاماتهم الثقافية كانت في خارجها، ولد الشيخ صالح الفلاني بإقليم فوتاجالو- غينيا - عام ١١٦٦هـ، ونشأ بها، وأخذ العلم من علمائها، ثم ارتحل لطلب العلم وعمره اثنا عشر عاماً، فدخل مدينة تمبكتو ومكث فيها سنة، ثم ارتحل إلى الصحراء فمكث عند الشيخ محمد بن سنة عالم الصحراء في وقته، ومكث عنده ست سنوات، ثم ارتحل إلى المغرب، ودخل مراكش ومكث بها ستة أشهر، ثم ارتحل إلى تونس وأخذ من علمائها.

ثم ارتحل إلى مصر، وبقي فيها مدة يدرس على شيخ من شيوخها يسمى الشيخ علي الصعيدي أبو الحسن، وكذلك درس عند الشيخ الحافظ مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس، ثم ارتحل إلى المدينة المنورة التي استقر فيها بعد أداء فريضة الحج إلى وفاته عام ١٢١٨ هـ.

وعقد الشيخ صالح حلقة علمية في المسجد النبوي الشريف وتوافد عليه طلاب العلم، وبخاصة طلاب الحديث النبوي وعلومه، وحصل على شهرة في عصره حتى عده بعض العلماء من مجددي القرن الثالث عشر الهجري[3]، وقلّ أن تخلو بلدة من بلاد الإسلام في وقته إلا وله فيها عدة من الطلاب، وبخاصة من لهم الاعتناء بعلم الحديث، ومن أشهر تلاميذه في الهند - باكستان- الشيخ محمد عابد السندي، وفي مصر الشيخ علي بن عبد البر الوناني، وفي بلاد شنقيط الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الشنقيطي، وفي الشام أحمد بن عبد اللطيف، وفي تركيا الشيخ محمد الكردي، وغيرهم[4].

ومن أهم مؤلفاته (إيقاظ همم أولي الأبصار)[5]، وهو كتاب في ذم التقليد والتعصب للمذاهب الفقهية السائد في عصره، ومن كتبه المشهورة عند المحدثين (الثمار اليانعة في رفع طرق المسلسلات والمسانيد والأجزاء والجوامع وذكر طرق التصوف وما لها من

(١) عمر باه. الثقافة العربية والإسلامية في الغرب الإفريقي. ط١. مؤسسة الرسالة - بيروت. ص ١٣٩.

(٢) بول مارتي. من عرب مالي والنيجر.... تعريب محمد محمود ولد دادا. دمشق. بدون تاريخ. ص٥٣.

(٣) عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني. فهرس الفهارس. (٢ / ٩٠١). دار الغرب الإسلامي. بيروت. بلا تاريخ.

(٤) المصدر السابق. (٢ / ٩٠٢).

(٥) اسم الكتاب كاملاً هو: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع في القرى والأمصار ومن تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأمصار. وقد طبع الكتاب أكثر من مرة. الطبعة الأولى ١٣٥٤ بمصر. والطبعة الثانية بباكستان ١٣٩٥. والثالثة بالطائف عام ١٣٩٧. ثم اختصره الشيخ سليم الهلالي. وطبع بالمكتبة الإسلامية بالأردن.

الطوابـــع)، واختصـــره في قطف الثمـــار، وله أيضاً الأحاديث القدســـية، وكل كتبه مطبوعة ومتداولة بين المتخصصين في الحديث وعلومه.

ومن الســـلاطين الذين قاموا بنشـــر الإسلام والثقافة العربية في شـــمال جمهوريـــة غانا في القرن التاســـع عشر الميلادي؛ الســـلطان محمد باباتو الذي ولد في قريـــة أدونغد (INDONGA) في جمهورية النيجر، هاجر بعد دراسته في قريته إلى شمال غانا للتجارة، وكانت هناك جماعات من قبيلته (زبرما) قـــد هاجرت قبله إلى تلك المنطقة الغرض نفسه، وقد تمكنت هذه الجماعة من فرض سيطرتها ونفوذها على المنطقة بالدعوة والجهاد، وفي عام ١٨٨٠م قتل زعيم زبرما المجاهد لنشـــر الإســـلام الشـــيخ ألفا غزاري في إحدى المعارك، وخلفـــه محمد باباتو الذي واصل ما بدأه ســـلفه، وانضم إليه جماعات من قبائل الفلاني والهوســـا الموجودة في المنطقة.

وقد شـــهدت مناطق شـــمال غانـــا في عهد محمد باباتو تشييد المساجد والمدارس الإسلامية، واستقدم الفقهاء والعلماء من شمال نيجيريا ومالي، فأسهموا في نشر الثقافة الإسلامية والعربية في شـــمال غانا [1]، ومنها انتشـــرت إلى بعض الدول المجاورة مثل شـــمال توغو وجنوب بوركينا فاسو. وقد تغلبت قوات بريطانيا الغازية والفرنسية على محمد باباتو في عام ١٨٩٠م، وقســـموا دولته بين توغو وغانا وبوركينافاسو.

ومنهم الشـــيخ عبد الرحمـــن الإفريقي، ذلك الإفريقي المشـــهور في بلاد الحجـــاز المجهول في موطنه الأصلـــي – جمهورية مالـــي –، وقد ولد الشيخ عبد الرحمن في قرية ففا (FAFA) الواقعة في جزيرة في نهر النيجر بدولة مالي.

(ولقد كان من حكمة الله أن وهب لهذا الفتى حظاً غير قليل من الذكاء استرعى انتباه الفرنسي المســـؤول عن مقاطعته – مقاطعـــة غاو GAO – وكان ذلك يوم مر هـــذا بقريته (ففا)، وأقبل على كتّابها الأهليّ الوحيـــد يتفقد تلاميذه، ويراقب ما بأيديهم من الكراريس الخشـــبية، عسى أن يكون فيها ما ليس في مصلحة الاســـتعمار، وجعل يوجه إلى الصغار بعض الأسئلة بلغتهم السونغوية، فتأتيه الأجوبة معبرة عن مســـتوياتهم المختلفة، حتى جاء دور عبد الرحمن، فإذا أجوبته فوق مســـتوى غلام في الثانية عشـــر.. مما أثار إعجاب المسؤول) [2]، وكان هذا سبباً في نقل عبد الرحمن على المدارس العصرية في مدينة غاو، حيث واصل دراسته فيها بتفوق إلى أن نال الشهادة الثانوية باللغة الفرنسية، فعين مدرساً للغة الفرنسية في المدرسة التي تخرج منها، ثم عين بعد ثلاث سنوات في مصلحة الأنواء الجوية، وتـــدرج في الســـلم الوظيفي حتى وصل إلى رتبة مســـاعد المدير، ثم ســـمحت له سلطات الاحتلال بالسفر لأداء الحج، وبعد الحج عزم على البقاء في مكة المكرمة لطلب العلم الشـــرعي الذي كان يجهله تقريباً.

وبعد أربع سنوات من الدراسة في الحرم المكي أراد الرجوع إلى بلده، ولكن (شاء الله أن يجمعه في فندق بأحد المســـافرين الذي غير رأيه عن السفر، حين اكتشـــف عبد الرحمن قلـــة معلوماته الدينية، فحـــزم أمتعته إلى المدينة المنـــورة) [3]، حيث التحق بمدرســـة دار الحديث، مع مواصلة الدراســـة على علماء الحرم النبوي؛ من أمثال الشـــيخ ألفا هاشم

(١) عثمان بريما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠١م ص ٣٦.

(٢) محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الاعتصام - القاهرة، ١ / ١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥.

الفلاني وغيره من علماء الحرم.

ولما تخرج في مدرسة دار الحديث عين أستاذاً فيها، ومدرساً في المسجد النبوي الشريف، حيث وفد عليه طلاب العلم من كل أنحاء المعمورة لطلب العلم، وقد ظل في تدريسه إلى أن وافاه الأجل في المدينة المنورة.

وقد تخرج على يديه طلاب أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية والعربية في بلدانهم، ومن أشهر طلابه الشيخ عمر بن محمد فلاته – رحمه الله تعالى–، الذي تولى التدريس في مكانه بالحرم النبوي الشريف، وكان الأمين العام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعميد كلية الحديث فيها، والشيخ حامد بكر المدرس في الحرم النبوي – رحمه الله –، والشيخ محمد الثاني إمام الحرم النبوي وغيرهم. ومن مؤلفاته (الأنوار الرحمانية في الرد على التجانية).

ومن العلماء الأفارقة الذين لهم إسهامات فعالة في الثقافة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ووسطها؛ الشيخ محمود بن عمر باه مؤسس المدارس النظامية في غرب أفريقيا، وبخاصة مدارس الفلاح، وقد ولد الشيخ محمود باه في بلدة جوول (JOWOL) في جنوب موريتانيا عام ١٩٠٦م، وبعد حفظه لكتاب الله – تعالى – لازم الشيخ عبد الرحمن التركزي، وأخذ عنه علوم التجويد والقراءات وعلوم القرآن.

وفي عام ١٩٢٨م غادر منطقته بقصد الحج، ولما وصل إلى الحجاز التحق بمدرسة الفلاح حتى حصل على الشهادة الابتدائية، ثم التحق بمدرسة الصولتية، وكان إلى جانب دراسته في المدرسة المذكورة يلازم دروس الحرم النبوي، وبعد دراسة أربع سنوات تخرج في المدرسة الصولتية عام ١٩٤٠م، وما أن تخرج حتى عاد إلى بلاده فوتاتورو، وكان أول عمل قام به بعد رجوعه هو افتتاح مدرسة نظامية في قريته باسم مدرسة الفلاح عام ١٩٤١م، ثم افتتح المدرسة الثانية في مدينة كاي (KAYE) بجمهورية مالي عام ١٩٤٣م باسم مدرسة الفلاح، وقد قام الشيخ الحاج محمود باه بزيارات متعددة لمختلف مناطق الغرب الإفريقي يلقي المحاضرات، ويفتح المدارس، وقد افتتح حوالي ٧٧ مدرسة عربية في غرب أفريقيا [1]، حتى الكمرون في وسطها، وبنى ٨٩ مسجداً كذلك.

وفي عام ١٩٥١م تخرجت الدفعة الأولى من مدرسة الفلاح في كاي، وكان عددهم خمسين تلميذاً، وتم انتخاب تسعة عشر منهم للدراسة بالأزهر الشريف، تحت سرية تامة خوفاً من سلطات الاحتلال التي كانت تضايقه كثيراً بسبب نشاطاته الثقافية، ولما علمت سلطات الاحتلال بسفر الطلاب أشاعت مع المتحالفين معها من بعض الشيوخ التقليديين الذين يخافون على مناصبهم الاجتماعية، أشاعوا أنه نقل البعثة إلى القاهرة لا للتعليم، وإنما قام ببيعهم بالشرق عبيداً، ولم يجد الشيخ بداً من الدفاع عن نفسه، وتفنيد الإشاعات إلا أبياتاً جادت بها قريحته، فقال:

يا عام شعث فخذ ذا الشعر مغتبطاً
من الفلاح وأبناء لها غرر
قمنا مع المجد والإيثار نستبقُ
للنصر والنشر والمولى لنا وزر
لأمة المصطفى المختار من مضر
علم الشريعة في الآفاق ينتشر

إلى أن قال:

(١) عمر باه، الثقافة العربية والإسلامية في الغرب الإفريقي، ص ٥٠٥ . بتصرف.

محمـــود قد بـــاع مـــن أبنائنا نفر
مـــلء الدنانير ملء الكـــف ينهمر
وحاشـــى لله مـــا هـذا بشـــيمته
يا فاســـق القوم يا غدار يا غُدَرُ[1]

والشـــيخ محمود باه من كبار علماء أفريقيا الغربية في القـــرن الماضي، وقد توفي في عام ١٩٧٨م – رحمه الله تعالى – .

وقد ترك طلاباً قاموا بنشر الإسلام وثقافته العربية في المنطقة، ومن أشـــهرهم الأستاذ أبو بكـــر باه الكاتـــب المعروف فـــي موريتانيا، ومن مؤلفاته (صور من كفاح المســـلمين في أفريقيا الغربية)، (الحاج عمـــر الفوتي حياته وجهاده)، وله أيضاً (محمـــود رائد الثقافـــة العربية في أفريقيا الغربية).

ومن علماء حوض الســـنغال المساهمين في الثقافة العربية الإســـلامية الشيخ موسى كمرا (١٨٦٣-١٩٤٥م)، وقد ألف الشـــيخ موسى كمرا في معظـــم العلوم والفنون المتعـــارف عليها في الغـــرب الإفريقي، ومن أشـــهر مؤلفاته: (زهور البساتين في تاريخ السودانيين)، وكتاب (أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر)، وهو مطبوع في المغرب عـــام ٢٠٠١م بتحقيق خديم محمد إمباكي وأحمد شكرى.

ومنهم؛ الشـــيخ الحاج محمد مرحبا عالم بوركينافاســـو في زمانه وكاتبها المشهور، ولد الشـــيخ مرحبا ١٣١٤هـ، وتعلم القرآن الكريم والعلوم الإســـلامية على يـــدي والده، ثم تنقل لطلـــب العلم من بلد إلى بلد آخر، وارتحل إلى غانا حيث عاش عدة سنوات، واشتغل بالتأليف والتدريس، ثم ســـافر إلى النيجر حيث التقى رئيس مجلس النواب آنذاك الســـيد بوبو هما، وأهدى له عـــدة مخطوطات، وهـــي الآن في معهد البحوث في العلوم الإنســـانية في جامعة نيامي.

وقد ألف الشـــيخ فـــي عدة فنـــون؛ منها التاريـــخ والنحو والصرف والتفســـير والأدب، وقد بلغت مؤلفاته أربعة وعشـــرين كتاباً؛ منها (أســـاس التواريخ المنقولة من كتب أهل العلم)، (الفتوحات الإســـلامية في أفريقيا)، و (تاريخ ملوك موسى وأحوالهم)، ومجموعة من الأعمال الأدبيـــة والدينية، وكتاب (فتـــح الجنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان). وقد توفي الشيخ محمد مرحبا عـــام ١٩٧٤م بمدينة بوبو جولا سو – رحمه الله تعالى[2] –.

ومنهم؛ الشـــيخ آدم الإلوري الذي يعد بحق من أكثر الأفارقة إســـهاماً في الثقافة العربية الإسلامية، لكثرة مؤلفاته وشهرتها، ولد الشيخ آدم الإلوري عام ١٩١٧م ببلدة وسا، وتلقى العلم علـــى يدي أبيه، فختم القـــرآن، ودرس مبادئ الفقه المالكي، ثم رحل لطلب العلم فدرس على الشـــيخ صالح بن محمد الأول، والشـــيخ عمر بن أحمد الأبهجي، والشـــيخ آدم نماج الكنوي، وســـافر إلى مصر فالتحق بالأزهـــر، لكنه لم يتمكن مـــن البقاء، فرجع على بـــلاده، وتفرغ للتدريس والدعوة والتأليف منذ عام ١٩٤٦م.

وقد قام الشـــيخ بعدة أعمـــال في مجال نشر الثقافة الإســـلامية والعربية في نيجيريا ومـــا جاورها من البلدان، ومن ذلك بناؤه مركز التعليم العربي الإسلامي بأغيغي (AGEGE) في لاغوس (LAGOS) عام ١٩٥٤م، وقد تخرج فيه

(١) عمر باه. الثقافة العربية والإسلامية في الغرب الإفريقي. ص ٥١٠.

(٢) الهادي المبروك الدالي. قبائل الفلان دراسة وثائقية. ط١، ٢٠٠٣. ليبيا. ص ١٠٢.

ما يزيد على عشرة آلاف طالب، وأما مؤلفاته فهي كثيرة؛ منها مقالات ومنظومات وقصائد ومقررات دراسية، ومن أشهر مؤلفاته: كتابه (الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي)، وهو من أوائل ما ألف في تاريخ المنطقة في العصر الحديث، ومنها في مجال الأدب (مصباح الدراسات الأدبية في ديار النيجيرية)، وهو أول كتاب في المنطقة يحاول تحديد العصور الأدبية في نيجيريا، وقد توفي الشيخ في عام ١٩٩٢م[١].

ومنهم؛ الشيخ سعد عمر توري المؤسس لمدارس سبيل الفلاح الإسلامية سيغو (SEGOU) بجمهورية مالي، ولد الشيخ سعد عام ١٩٠٩م في قرية قريبة من مدينة سيغو، ودرس على أبيه القرآن الكريم، ثم طلب العلم عند علماء بلاده من أمثال الشيخ محمد الأمين تيام، وكذلك درس في المدارس الفرنسية لمدة أربع سنوات، ودرس النحو والصرف عند الشيخ أحمد المدني، وقد ألف الشيخ سعد توري مؤلفات عدة، ومن أشهرها على المستوى العالمي:

١- **المبادئ الصرفية - في جزأين.**

٢- **الدروس النحوية - في ثلاثة أجزاء.**

وهي من الكتب المقررة في أغلب المدارس بغرب أفريقيا، وقد نالت قبولاً عند الدارسين. وتوفي في يوم ١٩٩٧/٧/١م - رحمه الله تعالى -.

ومن مشاهير الأفارقة في مجال الثقافة العربية الإسلامية في القرن الماضي؛ الشيخ الدكتور الوزير جنيد محمد البخاري، ولد عام ١٩٠٦ بمدينة سكتوه، وبدأ تعليمه بقراءة القرآن الكريم عند الشيخ عبد القادر بن أبي بكر، وبعد ختم القرآن الكريم درس عليه مبادئ الفقه المالكي كالأخضر والعشماوي، ثم انتقل بعد ذلك إلى الشيخ يحيى بن خليل، وقرأ عليه قصائد العشرينيات، ومقامات الحريري، وملحة الإعراب، وغيرها من الكتب اللغوية.

وقد اشتهر الشيخ بكونه المرجع الرئيس في تاريخ الخلافة السكتية، وقد درس في مدرسة العلوم الشرعية بسكتو، ثم عين مستشاراً لأمور الشريعة في مجلس الأمير، وفي عام ١٩٤٨م عين وزيراً لأمير سكتوه[٢]، وهو المنصب الذي بقي فيه إلى وفاته عام ١٩٩٧م. وقد ترك مؤلفات عدة؛ من أشهرها (ضبط الملتقط من الأخبار المتفرقة)، وتبلغ أبيات هذه القصيدة ستمائة وسبعة وثمانين بيتاً، تناول فيها أغراضاً مختلفة من الشعر في المدح والرثاء والوصف وغيره.

وأخيراً؛ على الرغم مما رأيناه، خلال هذا الاستعراض السريع، من إسهامات لهؤلاء العلماء والدعاة، وجهودهم ومؤلفاتهم العلمية الجديرة بالدراسة والنشر؛ فإنهم لم يلقوا الاهتمام اللائق بهم في بلدانهم أو خارجها إلا القليل منهم.

ولم أقصد من هذا البحث الاستقصاء، وإنما كان الهدف الإشارة إلى بعضهم بصورة موجزة جداً، وقد تركت كثيرين، لعله يكون حافزاً للباحثين الأفارقة وغيرهم للاهتمام بعلماء أفريقيا المسلمين وإنتاجاتهم العلمية - وبخاصة غرب أفريقيا - والله المستعان.

■ المصادر والمراجع:

(١) عبد الباقي شعيب أغاكا، الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري، ط ٢٠٠٣، ص ١٤، بتصرف.

(٢) سليمان موسى، الحضارة الإسلامية في نيجيريا، ص٣١، بتصرف.

أولاً: المطبوعات:

١- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بلا تاريخ

٢- إيسيسكو، الحضارة الإسلامية في النيجر، طبع ١٩٩٤م.

٣- سليمان موسى (دكتور)، الحضارة الإسلامية في نيجيريا، ط ١، ٢٠٠٠م، بدون ذكر مكان الطباعة.

٤- عبد الباقي شعيب أغاكا (دكتور)، الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري، ط٢، ٢٠٠٣م، بدون ذكر مكان الطباعة.

٥- عبد الحي عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٦- عثمان بريما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط ١، ٢٠٠١م، دار الأمين، القاهرة.

٧- عمر باه (دكتور)، الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط ١،١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٨- مارتي بول، كنتة الشرقيون، طبعة دمشق، بلا تاريخ.

٩- محمد بن أبي بكر الولاتي، فتح الشكور في أعيان بلاد التكرور، ط ١، عام ١٩٩١م ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

١٠- محمد المجذوب، مفكرون وعلماء عرفتهم، دار الاعتصام، القاهرة.

ثانياً: الدوريات:

١- مجلة جامعة أم درمان، العدد الثاني، عام ١٩٦٩م.

مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وغاوو وجنّي في عهد الأساكي

د. محمد حمد كنان ميغا(*)

■ مقدمة:

كانت مملكة سنغاي أهم الممالك الإسلاميّة التي عرفت في غرب أفريقيا، وخاصة عند ما تولى الأساكي مقاليد السلطة، حيث تحولت بعض المدن إلى مراكز علمية، وقام العلماء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية العربية فيها، عبر المساجد والمدارس والمجالس العلمية السلطانية، وتميزت هذه المراكز بمناهجها التعليمية وموادها الدراسية والإجازات والدرجات التي تمنحها لطلاب العلم، وقد انتشرت لذلك الكتب والمكتبات، وكان لها كبير الأثر في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي.

(*) أستاذ الفقه وأصوله ومقاصد الشريعة بكلية البنات - الجامعة الإسلامية بالنيجر.

■ تمهيد: نبذة عن المراكز العلمية في مملكة سنغاي في عهد الأساكي:

أولاً: تنبكتو: وكانت من أهم مدن السودان الغربي، أُسست على يد الطوارق الملثمين في أواخر القرن الخامس الهجري على نهر النيجر، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنها أُسست عام ١١٠٠م[١]، وكانت مدينة إسلامية منذ نشأتها، قال السعدي: (ما دنستها عبادة الأوثان، وما سُجد على أديمها قط لغير الرحمن)[٢].

قامت مدينة تنبكتو بدور ثقافي بارز في السودان الغربي في عهد الأساكي، ونفقت فيها أسواق العلوم، فكانت محط رحال العلماء وطلبة العلم، وكانوا يأتونها من كل مكان، من داخل البلد

(١) الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلكنتين الإسلاميّتين مالي وسنغاي، ص ١٣٦، ٢١١.

(٢) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١.

وخارجه، قال الألـوري: (ولمّا ارتكز العلم بمدينة تنبكتو رجع النـاس إليها في طلب العلم؛ إذ إنها أقرب إليهم من غيرهـا، فارتادوا ديار العلم بها حتـى نبغ فيهم عدد كبير مـن أهل العلم، وعند ذلك اكتفوا بما فـي بلادهم، وصاروا لا يطلبون العلم إلى سواها، ولا يحتاجون إلى غير مؤلفات علمائها الراسخين في العلم)[1].

يظهر ممـا تقدم مكانة تنبكتـو حيث كانت مركـزاً علمياً فريداً في المنطقـة آنذاك، ويزيد ذلك جلاء ما ذكـره صاحب الفتاش؛ أن مدارس تعلّم القرآن للصبيان الذيـن يقرؤون في تنبكتو قد بلغت مائة وخمسـين، كما اشـتهرت تنبكتو بجامعتها العريقة، والمتمثّلة في جامع سـنكوري الذي كان يضاهي جامع القرويين بفاس، وزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، وقـد تخرج من جامعة تنبكتو علماء شهد لهم التاريخ بالصدارة في شتى فنون العلم، إلى جانب التدين، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.

ثانيـاً: جنّي: وكانت من أهـم المراكز العلمية في السـودان الغربي، تأسسـت في القرن الثالث الهجري، وقد أسـلم أهلها مع ملكهم المسمّى كنبر، في القرن السادس الهجري، وكان إسلام السلطان المذكـور أمام أربعة آلاف ومائتي عالم، ولما أسـلم خرّب دار السـلطنة وحولها إلى مسجد لله تعالى، وهو الجامع في جنّي، وأنشـأ داراً أخرى لسـكناه بجوار المسجد[2].

اشـتهر أمر مدينة جنّي بعد ذلك، ونفقت فيها أسواق العلوم والمعارف، ورحل الناس إليها من كل مكان، ويؤكّد ذلك قول السـعدي: (وقد ساق الله – تعالى – لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين؛ من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى)[3].

(١) آدم الألوري، بواسطة الأمين عوض الله، ص ٢١٢.
(٢) السعدي، ص ١١ - ١٢ ، بتصرف.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦.

وقد اعتنى الأسـاكي بمدينـة جنّي اعتناءً كبيراً، فبنوا فيها المسـاجد ومسـاكن لطلاب العلم، وأغدقوا عليهم وعلى أساتذتهم الأرزاق، فاحتلّت مدينـة جنّي بذلك الدرجـة الثانية في الميـدان الثقافي بعد مدينـة تنبكتو، وكان السـلطان أسـكيا محمد الكبير أوّل من عيّن القضـاة في جنّـي للفصل بـين الناس وفق الشريعة الإسلاميّة[4].

ثالثاً: غـاوو: وقد كانت عاصمة مملكة سنغاي، تذكـر بعض الروايات التاريخية أنها تأسسـت في أواسـط القرن الثاني من الهجرة، وانتشر الإسلام فيها عند تمام القرن السادس الهجري[5].

وكانت غاوو أقلّ مـن تنبكتو وجنّي من حيث انتشار العلم، ربما كان سبب ذلك كونها العاصمة السياسـية، ولا يعني ذلك أنهـا كانت أقلّ كثافة سـكانية منهمـا، حيـث تذكر بعـض الروايات التاريخيـة أنها كانت مدينة كبيرة، بلغ عدد الدور فيها ٧٦٢٦ داراً، بخـلاف البيوت المتواضعة من الأكواخ الكثيرة، في عهد أسـكيا محمد الكبير، وعـلاوة على ذلـك أنّ التجار كانـوا يقصدونها من المغرب وغيرها، ويـدل على ذلك قول أحمد بابا معبّراً عن شـوقه إلى تنبكتو في أثناء وجوده بالمغرب:

أيا قاصداً كاغو[6] فعرج نحو بلدتي
وزمز لهم باسـمي وبلـغ أحبّتي
سـلاماً عـطيراً من غريب وشـائق
إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي[7]

وقد شملت حركة تأسيس المدارس والمعاهد والمساجد في عهد أسـكيا محمد الكبير مدينة غاوو، وأوقف الحـكام والأثرياء الأوقاف الكثيرة

(٤) محمد ألفا جالو، الحياة العلميّة في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠٠ هـ ، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ١٠٩ - ١١٠.
(٥) الأمين عوض الله ، ص ١٣٨ - ١٤٠.
(٦) اسم من أسماء غاوو.
(٧) الأمين عوض الله، ص ١٣٩ - ١٤٠.

على المساجد والأئمة والمؤذنين والخطباء والمدرسين في مدينة غاوو [1].

وكانت المجالس العلمية تعقد ويحضرها الحكام، ومنهم أسكيا داود، وهناك مجلس الجمعة في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، علاوة على المكتبات العامة التي كانت تتوفر في مدينة غاوو للبحث والمطالعة، ومن أشهر هذه المكتبات: مكتبة أسكيا داود، ومكتبة أسكيا محمد الأوّل، ومكتبة أسكيا محمد بان بن أسكيا داود [2].

ويظهر مما تقدم دور مدينة غاوو الثقافي والعلمي، وهو ما جعلها مركزاً علمياً ثقافياً إلى جانب كونها العاصمة السياسية، وإن كان النشاط العلمي والثقافي في تنبكتو وجنّي أكثر منها.

■ المبحث الأول: دور العلماء [3] في نشر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وجنّي وغاوو:

لا يمكن الجزم بتحديد تاريخ دخول الإسلام في السودان الغربي، غير أنّه من المعلوم تاريخياً أنّ الإسلام قد وصل إلى المنطقة في وقت مبكّر؛ بسبب تردّد التجار إليها من المشرق والمغرب، وقد تغلغل الإسلام في أعماق بلاد السودان الغربي في عهد الأساكي انطلاقاً من المراكز المذكورة سابقاً، وذلك بواسطة جهود سلاطين سنغاي (الأساكي) الذين قاموا بدور بارز في تشجيع العلماء، بتأسيس المساجد والمدارس ومساكن الطلاب، والنهوض بأعبائها مادياً ومعنوياً، حيث أغدقوا على العلماء وطلبة العلم وأنفقوا عليهم بسخاء، وأعفوهم من كل وظائف السلطنة.

ولا شك أنّ هذا الاعتناء من الأساكي قد هيّأ للعلماء ومهّد لهم الطريق لنشر الثقافة الإسلامية العربية، فنصبوا أنفسهم لنشر العلم في المساجد والمدارس وفي بيوتهم، وتفرغوا لتدريس العلوم بشتى فنونها، وخاصة الدينية منها واللغوية، حيث ظلت العلوم الشرعية واللغوية تحتل مركز الصدارة في السودان الغربي، فظهرت مؤلفات وحواش وشروح في مختلف المجالات، وخاصة في الجانب الفقهي، فقد اعتنوا اعتناءً كبيراً بأمهات كتب المذهب المالكي، فأجادوا وأفادوا.

وقد استطاع العلماء في عهد الأساكي أن يضعوا للحكام قواعد يسيّرون على وفقها شؤون البلاد [4]، مراعين في ذلك مقاصد الشريعة وأعراف الناس في البلاد، وبفضل صبر العلماء ومثابرتهم على التدريس ليل نهار؛ استطاعوا أن ينهضوا بمستوى الوعي الديني في أوساط شعب سنغاي إلى أعلى مستواه، مما جعلهم يحظون - وبخاصة علماء الشريعة - باحترام منقطع النظير، ربما وصل إلى حد التقديس المحرم [5]، يؤكّد هذا قول الحسن الوزان: (إن تنبكتو وقت زيارته لها كانت مليئة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وأنّ هؤلاء يتمتّعون برواتب سخية، ويعاملون باحترام وتعظيم) [6].

مراتب العلماء:

- الأشراف: وهم الذين ينتسبون إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء أغلبهم، إن لم يكن كلهم، كانوا من الوافدين على البلاد وخاصة تنبكتو، وقد نالوا احتراماً منقطع النظير من قبل الأساكي والأهالي [7].

- أهل بيوت العلم من سكان البلاد: ويأتي بعد الأشراف أهل بيوت العلم من سكان البلاد الذين توارثوا العلم، ومن هؤلاء: أسرة آقيت، فقد تعدد فيهم العلماء والقضاة، وتوارثوا رئاسة العلماء مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، ومنهم كان الأساكي

(١) محمد ألفا جالو. ص ١١٨.
(٢) المرجع السابق. ص ١١٨.
(٣) للمزيد انظر: السعدي. تاريخ السودان. ص ٢٧ - ٤٨.
(٤) محمد ألفا جالو. الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠٠. ص ٤٩.
(٥) المرجع السابق. ص ٥٠.
(٦) الحسن الوزان. وصف أفريقيا. ٢ / ١٦٧.
(٧) محمد ألفا جالو. ص ٥١ . بتصرف.

يختارون القضـــاة في تنبكتو وجنّي وغاوو[1]، وهذه الأســـرة هي أسرة أحمد بابا التنبكتي الذي طبقت شهرته الآفاق.

- أســـرة انـــدغ محمد: وإلى جانب الأســـرة السابقة كانت هناك أسرة اندغ محمد، وهي أيضاً أســـرة علم وصلاح، توارثوا مراكز مهمة في البلاد، كالقضاء، والإمامة، والتدريس[2].

وهؤلاء العلماء المشـــار إلى أسرهم ومناصبهم؛ منهـــم من كان بارعـــاً في علوم الشـــريعة أصولها وفروعها، ومنهم من كان بارعـــاً في اللغة وفقهها، والنحو، وأســـرار البيان، ومنهـــم من جمع بين هذه العلوم كلها إلى جانب مشاركته في الطب، والهندسة، والحساب، والتنجيم وغيرها.

وفيمـــا يلي نعرض جملة من علماء هذه المراكز الثلاثـــة (تنبكتـــو، وجنّي، وغـــاوو) الوافدين منهم والمحليين:

أولاً: الوافدون، ومنهم:

١ - الإمـــام محمـــد بن عبد الكـــريم المغيلي التواتي التلمســـاني: ولد بتوات في حي كان يسكنه اليهـــود، طلب العلم في صباه، ثـــم انتقل إلى فاس للتعمق في الدراســـة، وهناك جمع كثيراً من العلم، وقد اشـــتهر أمره كداعية إسلامي متمسكاً بالسنّة، بعيداً عن البدعة.

وفي أثناء وجوده بفاس جرى بينه وبين علماء فاس خلاف، ثم رحل إلى تونس، ومنها إلى بلاد السودان الغربي، فوصل إلى كانو، وغاوو[3]، وكان ذهابه إلى غاوو باستدعاء من الحاج أسكيا محمد الكبير، وأقام في المدينـــة مدة يمارس التدريس والتأليف، وألف لأســـكيا محمد كتاباً أجاب فيه عن عدد من المســـائل، وكتاباً آخر أجاب فيه عما يجب على الحاكم نحو المحكومين[4].

٢ - صالـــح بـــن محمد أندى عمـــر المعروف بالشـــيخ العمـــري: كان من أهل العلـــم والفضل، وكان كلامه مسموعاً لدى السلاطين، له شرح على مختصر خليل[5].

٣ - أبو القاســـم التواتي: وصـــل إلى تنبكتو مع جماعة من علماء وشـــرفاء تافيلالت، وســـكن بالقرب من المســـجد الأعظم، وكان يستقبل الطلبة في داره، وكان أســـكيا محمـــد يصلي وراءه ويطلب دعـــاءه، وحينما توفي في تنبكتـــو عام ١٥١٦م كان يوجد بتنبكتو خمسون عالماً من توات[6].

٤ - الإمام سيدي يحيى المغربي: إمام مسجد سيدي يحيى الذي كان في قلب مدينة تنبكتو، توفي هذا العالم سنة ١٤٦٣م[7].

ثانياً: العلماء المحليون، ومنهم:

١ - محمـــود بن عمر بـــن محمد آقيت: ولد في تنبكتو عـــام ١٤٦٣م، وكان يدرس أمهات الكتب المالكيـــة، وألفية ابن مالك، ســـافر إلى الحج عام ١٥٠٩م، وفي طريقه مـــر بمصر فحصل بينه وبين علماء مصر مناقشـــات علمية، مـــن هؤلاء العلماء: إبراهيم المقدسي، والقلقشندي، ولما عاد إلى تنبكتو لازم التدريس وانتفع به بشر كثير[8].

٢ - عبـــد اللـــه بـــن عمر بن محمـــد آقيت: كان أســـتاذاً في ولاتة وتنبكتـــو، متضلعاً في العلوم الشرعية، قوي الحافظة، وكان مهيب الجانب لورعه وزهده[9].

٣ - الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت: كان أكبـــر الإخوة الذين عُرفوا بالعلم في تنبكتو، وصفه أحمـــد بابا بأنه كان فقيهاً نحويـــاً لغوياً عروضياً،

(١) المرجع السابق. ص٥٢.
(٢) نفسه. ص ٥٣.
(٣) حمد الغربي. بداية الحكم المغربي في السودان الغربي. ص ٥١٤.
(٤) محمد ألفا جالو. مرجع سابق. ص ١١٩ - ١٢٠.
(٥) محمد الغربي. ص ٥١٥.
(٦) المرجع السابق. ص ٥١٥ - ٥١٦.
(٧) محمد ألفا جالو. ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٨) محمد الغربي. ص ٥١٦.
(٩) المرجع السابق. ص ٥١٦.

محصـــلاً بارعاً حافظاً، معتنياً بتحصيل العلم، وأنه نســـخ كتبه. كتب عـــدة دواوين، وجمـــع كثيراً من الفوائد والتعاليق، عمل في القضاء بولاتة وتنبكتو، ثم ارتحل للمشرق برســـم الدراسة والحج، وجلس للتدريس بعد عودته، حتى مات سنة ١٥٣٦م[١].

٤ - محمـــد بن محمود بن عمر آقيت: وصفه أحمد بابا بأنه كان ثاقب الذهن صافي الفهم، ومن دهاة العلماء، تولى القضاء بعد أبيه، وكان أســـتاذاً للمنطـــق والبيان، وله تآليـــف على رجز المغيلي في المنطق، توفي سنة ١٥٦٥م[٢](٢٨).

٥ - أحمـــد بن أحمد بن عمـــر آقيت: أخذ العلـــم عن أبيه وجده، وقد برع في الحديث والفلك والهندســـة، وكان جمّاعاً للكتب، أتى بقدر منها من مصر عام ١٥٤٩م، وترك ســـبعة تآليف، بعضها في الأدب والحديث، كان يدرّس في المســـجد في غاوو، توفي سنة ١٥٨٣م في غاوو[٣].

٦ - العاقب بـــن محمود بن عمر آقيت: أخذ العلم عن أبيه وعمه، ورحـــل إلى مصر حيث تلقى العلم في مجلس الإمام أبي الحسن البكري، ثم رجع إلى تنبكتو فتصدر للقضـــاء والتدريس حتى توفي سنة ١٦٠٢م[٤].

٧ - محمـــد بن محمود بـــن أبي بكر الونكري التنبكتي، المعروف ببغيوغـــو: وقد عُدّ هذا العالم حجة الإسلام في السودان الغربي، قال عنه أحمد بابـــا: (كان طويل الروح في التعليـــم، لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد ... درس على أبيه العلوم العربية والفقه، ثم ارتحل إلى المشرق وحضر مجالس العلم بمصـــر حيث تتلمذ على أشـــهر العلماء، من أمثال الناصـــر اللقانـــي، والتاجوري، والبكـــري. وبعد الحـــج رجع إلى تنبكتو بعلم كثير، ثم تابع دراســـته وتخصصه في الفقه والحديث والبيان والمنطق)[٥]، وقال عنه أيضاً: (حتى صار في آخرة الحال شـــيخ وقته في الفنون، لا نظير له، لازمته أكثر من عشـــر سنين)[٦].

٨ - أحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة ١٠٣٦هـ: صاحب التصانيف الكثيرة، قد اشـــتهر شهرة تغني عن تعريفه، قال عن نفســـه: (ألفت عدة كتب تزيد على الأربعين تأليفاً)[٧].

٩ - أبو عبد الله اندغ محمد بن الفقيه المختار النحوي: كان إماماً في ســـنكوري، درّس فيه الشفا للقاضي عياض[٨].

١٠ - أبو العباس الفقيه أحمد بن اندغ محمد بن محمود: كان بارعاً في اللغة[٩].

فهؤلاء العلمـــاء كانوا من أبـــرز العلماء الذين ســـاهموا في نشر الثقافة الإســـلامية العربية في تنبكتـــو وغاوو وجنّـــي، وفي ذكرهـــم كفاية لبيان الغرض.

■ المبحث الثاني: دور المساجد والمدارس والمجالس العلمية السلطانية في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي:

أولاً: المساجد:

من المعلوم في تاريخ المســـاجد في الإســـلام، أنّ المســـجد كان يؤدي دوره الدينـــي والاجتماعي والتربوي، والسياســـي، فكانت القرارات الحاسمة تُتخذ في المســـجد، إلى جانب الكراســـي العلمية في جميع صنوف المعرفة، واســـتمر المسجد يؤدي هذه الأدوار حتّى ابتلي العالم الإسلامي بالاستعمار الغربي الذي حاول بكل قواه أن يحجّر دور المسجد، ويقصر نطاق مهامه على الصلوات المفروضة.

وقد كانت المســـاجد في عهد الأســـاكي تقوم

(١) نفسه، ص ٥١٧.
(٢) نفسه، ص ٥١٧.
(٣) نفسه، ص ٥١٨.
(٤) نفسه، ص ٥١٨.
(٥) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص ٦٠٢.
(٦) المرجع السابق، ص ٦٠٢.
(٧) محمد الغربي، ٥٣٩ - ٥٤٠.
(٨) محمد ألفا جالو، ص ٢٥٠.
(٩) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

بدورها الديني والتربـــوي والتعليمي، وذلك بفضل عناية هؤلاء الأســـاكي بها، حيـــث خصّصوا رواتب للعلماء الذين يدرّســـون فيهـــا، وللأئمة والخطباء والوعاظ.

ومن أهم المســـاجد التي اشتهرت بنشر الثقافة الإسلامية العربية، ما يأتي:

١ - مســـجد جنغراي بير: وهو أول مســـجد أُســـس في تنبكتو، وذلك في عهد ســـلطان مالي المسمى (مانسا موسى) ١٣٢٥م[١].

٢ - مســـجد سنكوري: ويقع هذا المسجد في حي ســـنكوري في تنبكتو، وكان من أشهر المساجد في المدينة، بل في السودان الغربي لكثرة طلبة العلم فيه[٢].

٣ - مســـجد ســـيدي يحيى: وهذا المســـجد أسســـه حاكـــم تنبكتو محمد نض، فـــي زمن حكم الطوارق، ولما استولى ســـوني علي بير على المدينة جعل سيدي يحيى المغربي المتوفى سنة ١٤٦٣م إماماً ومدرّساً فيه[٣].

٤ - مســـجد التواتيين فـــي تنبكتو: وكان من أشـــهر أئمته الفقيه محمود بن محمـــد الزاغاني النحوي، المتوفى سنة ١٦٠٢م[٤].

٥ - مســـجد جنّي: ويرجـــع تاريخ بنائه إلى نهاية القرن الســـادس الهجري، بناه ســـلطان جنّي كوي كنبير بعد إسلامه، وقد ظل هذا المسجد يؤدي دوره في نشر العلم والثقافة الإسلامية إلى سقوط دولة سنغاي[٥].

٦ - المسجد الكبير في غاوو: وهو من المساجد التي أقامها مانسا موسى بعد عودته من الحج سنة ١٣٢٥م[٦].

(١) نفسه، ص ١٥٢.
(٢) نفسه، ص ١٥٣.
(٣) نفسه، ص ١٥٣.
(٤) نفسه، ص ١٥٤.
(٥) نفسه، ص ١٥٥.
(٦) نفسه، ص ١٥٥.

ثانياً: المدارس[٧]:

لقد انتشـــرت المدارس في مملكة ســـنغاي في عهد الأســـاكي بشكل كبير، بســـبب اعتناء الملوك بنشر الثقافة الإسلامية العربية، حيث كان الأساكي أنفســـهم علماء يزاحمون طلاب العلم في المجالس العلمية.

ويمكن أن نشير هنا إلى أهم المدارس وأشهرها في عهد الأساكي:

١ - معهد سنكوري أو جامعة سنكوري إن صح التعبير: وكان هذا المعهد يقع في حي ســـنكوري إلى جانب المســـجد الكبير، حيث ألحقت حجرات المعهد الدراســـية بالمســـجد، ويرجع تاريخ هذا المعهد إلى القرن الثامن الهجري، في عهد مانسا موسى.

٢ - مدرسة محمود عمر قاضي تنبكتو المتوفى سنة ٩٥٥هـ: وقد تخرج فيها معظم مشاهير علماء تنبكتو.

٣ - مدرســـة كلســـخ؛ أي منبع العلم: وكانت تـــدرس فيها العلوم الدينية، وتقع في وســـط مدينة تنبكتو.

٤ - مدرسة الفقيه أبي بكر أحمد آقيت التنبكتي المتوفى ســـنة ٩٩١هـ: اشتهرت هذه المدرسة بالنحو واللغة، ومن أشـــهر من تخرج فيهـــا: العالم الكبير أحمد بابا التنبكتي.

٥ - مدرســـة القاضي مودبـــو محمد الكابري: تقع في حي ســـنكوري بتنبكتـــو، وكان طلاب العلم يأتونها من جميع أنحاء بلاد سنغاي وخارجها، تخرج فيها علماء مجتهـــدون عُـرفوا بالعلم والصلاح، مثل الفقيه عمر بن محمد آقيت، والسيد يحيى التادلي الشاعر المشهور في زمانه.

٦ - مدرســـة الفغ محمود بـــن الحاج المتوكل: وهي مدرســـة متخصصة فـــي الســـيرة والتاريخ الإســـلامي، وصاحبها كانت له دراية بتاريخ سنغاي ومل، تخرج فيها صفوة مـــن العلماء، ولعل صاحب

(٧) نفسه، ص ١٦٨ - ١٧٥.

الفتاش منهم.

٧ - مدرسة أبي زيد عبد الرحمن بن محمود: اشتهرت بكثرة طلابها، وكان صاحبها جامعاً بين التدريس والوعظ.

٨ - معهد جنّي: وهو معهد جامع لكل فنون العلم والمعرفة، تدرس فيه العلوم الدينية، والرياضية، والطبية، والاجتماعية، وكان يدرس فيه نحو ألف طالب.

وإلى جانب المدارس كانت هنالك كتاتيب منتشرة بشكل كبير، لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، كما وجدت في تنبكتو مدارس مهنية لتعليم الخياطة وصناعة النسيج.

ثالثاً: المجالس العلمية في قصور السلاطين [1]:

لقد كان أسكيا محمد الكبير هو أول من بدأ بعقد المجالس العلمية في قصره من بين سلاطين سنغاي، وكان يستدعي العلماء من خارج البلاد لإحياء هذه المجالس العلمية، إلى جانب استعانته بعلماء بلاد سنغاي المحليين، وقد أثبت التاريخ مراسلته مع الإمام المغيلي الذي استدعاه في النهاية إلى غاوو، فأكرم وفادته، وأحله محل شوراه، ونهج طريقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد واصل سنّته أبناؤه الذين حكموا البلاد من بعده، وأبرزهم أسكيا داود الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء، وإلى جانب هذه المجالس العلمية السلطانية كان بعض الأغنياء يتخذون في بيوتهم مجالس علمية خاصة، ويدعون إليها كبار العلماء والقضاة والمربين، كما أنّ العلماء أنفسهم كانت لهم مجالس خاصة في بيوتهم، مما يدل على أنّهم كانوا قد حبسوا أنفسهم على نشر العلم والثقافة الإسلامية العربية.

(١) نفسه، ص ١٨٨.

■ المبحث الثالث: مناهج التعليم والمواد الدراسية [2]:

لقد تأثرت مناهج التعليم في السودان الغربي عموماً بمنهج المغرب، حيث كان العرف الجاري في التعليم أن يبدأ التلميذ بالكتّاب فيتعلم القراءة فقط في أوّل أمره، فإذا وصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يميز بين الحروف ويستطيع أن يقرأ باجتهاده الشخصي؛ بدأ المؤدّب يعلّمه الكتابة، وهذه هي مرحلة التعليم الأولي، وفيها يحفظ التلميذ القرآن كله أو نصفه، حسب قدرته وذكائه، وقد يتعلم فيها بعض المبادئ الفقهية.

ثم تأتي المرحلة العالية، وتكون الدراسة في هذه المرحلة في الجوامع والمدارس، ففي الجوامع يجلس الطلبة على شكل نصف دائرة حول الشيخ، ويكون من بينهم من يقرأ ويتولى الأستاذ الشرح، وكان هذا الطالب القارئ يُسمى (المسرد)، ويمكن لغير طلبة المجلس أن يحضروا لسماع الدرس بلا مانع، بينما تكون المدارس خاصة للمتعلمين.

وفي هذه المرحلة يتعلم الطالب النحو، واللغة، والفقه، وسائر علوم الشريعة، ثم يتدرّج في تعلم العلوم الأخرى حسب ميله، ومعالم نهاية هذه المرحلة غير محددة ولا واضحة، وإنما ذلك راجع إلى الأستاذ، فهو الذي يجيز من يجيز من طلبته، إما إجازة عامة أو خاصة.

وهذا الشيخ أحمد بابا يشير لنا هنا إلى طريقة الأخذ في هذه المرحلة في حديثه عن ملازمته لشيخه محمد بغيوغو، فيقول: (لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمراراً عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري، وحضرت عليه التوضيح كذلك، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم،

(٢) محمد الغربي، ص ٥٤٩ - ٥٥٤.

وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها، وحضرتهما عليه مرة أخرى.

وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد، وصغرى السنوسي ومع شرح زروق عليه، ونظم ابن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني، وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليه.

وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري، ودولاً من مدخل ابن الحاج بقراءة غيري، ودروساً من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً... وباحثته كثيراً في المشكلات، وراجعته طويلاً في المهمات... وهو شيخي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه... وأجازني جميع ما يجوز له ومنه، وكتب لي بخطه في ذلك)[1].

فهذا الكلام المنقول يوضح لنا منهج الأخذ والتعلم في المرحلة العالية، كما استفدنا منه نوع الكتب التي كانت تدرّس في مدارس مملكة سنغاي ومساجدها آنذاك، ونوع العلوم والفنون التي كانت سائدة وقتئذ، فقد كفانا عرض الكتب والفنون التي كانت مقررة والحمد لله.

وأما الإجازة التي تحدّث عنها أحمد بابا هنا، فهي مثل شهادة التخرج اليوم، وهي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب وتحصيله التام لفن من الفنون، قال محمد الغربي: (ولقد وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، وهي:

١ - شهادة السماع: وتعني أنّ الطالب تتبع أقوال العالم وحفظها.

٢ - وشهادة العرض: أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره للنصوص ومعرفته بشروحها.

٣ - ثم الإجازة الكاملة: وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون، ولكن هذه الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، فلكي تعطى لا بدّ أن يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المُجاز أن يُلقي درساً بمحضر أستاذه؛ لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها)[2].

■ المبحث الرابع: الكتب والمكتبات وأثرها في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي:

لقد كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشاط الحركة العلمية في مملكة سنغاي توفر الكتب والمكتبات العامة والخاصة، حيث اعتنى أهل سنغاي باقتناء الكتب واستنساخها، واستوى في ذلك العلماء والملوك والتجار[3]، فقد كان التجار يجلبونها من جميع الأماكن، قال الحسن ابن الوزان: (إن تجارة الكتب في هذه البلاد كانت تدر أرباحاً طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى)[4].

وقد كانت معظم هذه الكتب ترد بلاد السودان الغربي من بلاد البربر، وكان حكام سنغاي يشجعون على تحصيل العلوم الإسلامية العربية، كما كانوا يشجعون على اتخاذ المكتبات واقتناء الكتب، ولا سيما أسكيا داود الذي يبدو أنّه كان أول من اهتم بإنشاء المكتبات العامة من بين الأساكي، فكانت له مكتبة ضخمة رفيعة الشأن، وكان من عادته شراء نسخ من المخطوطات والكتب التي تصل إلى بلاد السودان الغربي، واتخذ مجموعة كبيرة من الكتّاب

(١) أحمد بابا التنبكتي. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. ص ٦٠٢. والسعدي. تاريخ السودان. ص ٤٦.

(٢) محمد الغربي. ص ٥٥٤.

(٣) المرجع السابق. ص ٥٥٦.

(٤) الحسن بن الوزان. وصف أفريقيا. ٢ / ١٦٧.

والنساخ، مهمتهم نسخ هذه المخطوطات والكتب، ثم توزيعها على المعلمين وكبار العلماء والطلاب والمكتبات العامة، وكان يقوم هو نفسه بتوزيعها [١].

وفي اهتمام أسكيا داود بالكتب والمكتبات قال محمود كعت: (كان أسكيا داود سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرئاسة، كريماً جواداً... وهو أول من اتخذ خزائن المال، حتّى خزائن الكتب، وله نسّاخ ينسخون له كتباً، وربما يهادي به العلماء) [٢].

ومن الأساكي الذين اهتموا بالكتب والمكتبات أسكيا محمد بان، كانت له مكتبة خاصة، وكان له نسّاخ يرأسهم العالم أحمد بن دنبسل الفلاتي المتوفى سنة ٩٩٥هـ [٣].

وقد كان من أهم المكتبات في السودان الغربي تلك التي امتلكتها آل آقيت، وعلى رأسهم أحمد بن عمر بن محمد آقيت، ثم ابنه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت، قال أحمد بابا : (أنا أقل عشيرتي كتباً، وقد نصب لي ست عشرة مائة مجلد) [٤].

ومن أهم المكتبات أيضاً خزانة العالم الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري، وكانت خزانته عظيمة، تحتوي على كل غريب ونفيس، قال أحمد بابا: (إنه بذل نفائس الكتب الغريبة الغزيرة لأهل العلم) [٥].

ومن مميزات هذه الخزانة أنّ صاحبها كان يعير الكتب لطلبة العلم من غير قيد ولا شرط، وإن لم يكن يعرف الطالب، إيثاراً لوجه الله تعالى، قال أحمد بابا: (جئت يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره، فأعطاني كلّ ما ظفر به منها) [٦].

هكذا كان حال العلماء في عهد الأساكي، من حيث الجمع بين العلم والورع والتقوى والإيثار، فانتعش بذلك العلم، وازدادت الحركة العلمية، كما تصدى علماء تنبكتو لشرح أمهات الكتب والتعليق عليها، كما قاموا بالتأليف في جميع المجالات العلمية: في التاريخ، والرحلات، والتراجم، والنحو، واللغة، والفقه، وغيرها، وكانت لأسرة آقيت من ذلك نصيب الأسد.

هذا، ونذيل حديثنا عن اهتمام أهل سنغاي بالكتب والمكتبات بعرض بعض المؤلفات لعلماء السودان الغربي:

١ - تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، للمؤرخ الكبير محمود كعت، ولد في عام ١٥٤٨م في منطقة غورما غرب غاوو وراء النهر، وقد عاصر هذا المؤرخ أسكيا الحاج محمد الكبير في بدء شبابه، ثم انتقل إلى تنبكتو لطلب العلم، توفي سنة ١٥٩٣م [٧].

٢ - تاريخ السودان، للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، ولد عام ١٥٩٦م، تلقى العلم في تنبكتو، واهتم بالتاريخ منذ شبابه، قال في كتابه هذا: (ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب دينارة وفلوسه، وإنه كبير الفوائد، كثير الفرائد؛ لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله - سبحانه - في كتب ما رويت عن ذكر ملوك أهل سغي) [٨].

٣ - تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، لمؤلف مجهول، كان يعيش في تنبكتو، وبها تعلم العلم، كلّفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي، وقد فرغ من تأليفه في ١٩ يوليو عام ١٧٥١م [٩].

٤ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، وهو هامش على كتاب الديباج المذهب في

(١) محمد ألفا جالو. ص ٧٢ - ٧٥.
(٢) محمود كعت. تاريخ الفتاش. ص ٩٤.
(٣) محمد ألفا جالو. ص ٧٥.
(٤) المرجع السابق. ص ٧٦.
(٥) أحمد بابا. نيل الابتهاج. ص ٦٠٠.
(٦) المصدر السابق. ص ٦٠٠.
(٧) محمد الغربي. ص ٥٣١.
(٨) السعدي. تاريخ السودان. ص ٢.
(٩) محمد الغربي. ص ٥٣٦.

معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم بـــن فرحون، وقد جاء هذا الهامش أكبر من الكتاب نفســـه، بدأ أحمد بابا تأليفه في تنبكتو، وأتمه في مراكش، ثم وضع له تكملة ســـماها (تكملة الديباج) في ثمانية عشر جزءاً، اشـــتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي، ثم جعل لتلك التكملة ذيلاً سـّماه (كفاية المحتاج لمعرفة من ليـــس بالديباج) أو (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج)[1].

وقد فاقـــت مؤلفات أحمد بابا الأربعين، أضف إليها مؤلفات ســـائر أفراد أسرته، ومؤلفات شيخه محمد بـــن محمود بن أبي بكـــر الونكري المعروف ببغيوغو.

■ خاتمة:

توصلنا من خلال هذا العرض المتواضع لمظاهر الثقافة الإســـلامية العربية في تنبكتو وغاوو وجنّي في عهد الأساكي إلى النتائج الآتية:

أولاً: أهميـــة تنبكتـــو وغـــاوو وجنّـــي، حيث كانت مراكز دينية وثقافيـــة، انطلقت منها الثقافة الإســـلامية العربية في الســـودان الغربي، وهو ما تشهد له دلائل تاريخية عديدة.

ثانياً: الكشـــف عن جهابذة من علماء سنغاي وغيرهم ممن وردوا على السودان الغربي، وساهموا مســـاهمة فعالة في رفع مســـتوى الوعـــي الديني والثقافي تحت عناية الأســـاكي، كما ســـاهموا في إثراء المكتبات الإسلامية بأفكارهم النيرة، وأقلامهم السيالة، فكانت بيوتهم محط رحال العلماء وطلاب العلم الذين أتوا إليهم من كل مكان.

ثالثاً: بيان الدور الرئيس الذي كانت المســـاجد والمدارس تؤديه في التربية والتعليم، فاشتهرت من المساجد مسجد سنكوري، ومسجد جتغراي بير في تنبكتو، ومسجد جنّي، والمســـجد الكبير في غاوو، اشتهرت هذه المســـاجد كجامعات إسلامية عالمية، ولا سيما جامع سنكوري الذي قل من لم يدرس فيه من مشـــاهير علماء تنبكتو من أسرة آقيت، وأسرة اندغ محمد.

رابعاً: الكشـــف عن المناهج التعليمية، والمواد الدراســـية، والكتب الســـائدة آنـــذاك، ابتداء من مرحلة تعليم القراءة والكتابـــة، إلى مرحلة البحث والنظر والمناقشـــة، كما تطرق البحـــث إلى كيفية الإجـــازة ودرجاتها، فوجد أنهـــا كانت تنحصر في ثلاث درجات:

١ - شهادة السماع.

٢ - شهادة العرض.

٣ - الإجازة الكاملة.

خامســـاً: بيان أثر الكتب والمكتبات في نشـــر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي، حيث كثرت المكتبات العامـــة والخاصة في كل من تنبكتو وغاوو ذجنّي، بفضل تشـــجيع الأســـاكي على ذلك، ولا سيما أسكيا داود الذي كلن مولعاً بشراء الكتب ونســـخها وتوزيعها على العلماء والمكتبات، وكذلك أســـكيا محمد بان الذي سار على نهج أسكيا داود في اقتناء الكتب واستنســـاخها، فانتعشـــت تجارة الكتب في هـــذه المراكـــز الثقافيـــة، ونفقت فيها أسواقها، حيث كانت الكتب تدر الأرباح على التجار أكثر من كل بضاعة أخرى.

كما تطرق العرض إلى بعض مؤلفات السودان، كتاريـــخ الفتاش للمؤرخ الكبير محمود كعت، وتاريخ الســـودان لعبد الرحمن السعدي، (وتذكرة النسيان في أخبار ملوك الســـودان) لمؤلف مجهول من أهل تنبكتـــو، وبعض مؤلفات العالـــم الكبير أحمد بابا التنبكتي كالنيل والتكملة.

ســـادســـاً: بيان دور الأساكي في نشر الثقافة العربية الإســـلامية في الســـودان الغربي؛ وذلك أنهـــم كانوا علماء، فأحبوا العلـــم وأهله، وأعفوا العلماء من كل وظائف الســـلطنة، كما استعانوا بالعلماء من كل مكان لتأسيس دولتهم على العلم

(١) نفسه، ص ٥٤٠ - ٥٤١.

والإيمان، حيث كانوا يحكمون بالكتاب والسنّة، ففتح الله على أيديهم قلوب العباد قبل أبواب البلاد.

وأخيراً، فقد توصلنا إلى نتيجة جديرة بالذكر، وهي أنّ شعب سنغاي رغم تمكن الإسلام في قلوبهم، واستماتتهم في الدفاع عن القرآن ولغته، لم تستطع اللغة العربية أن تسيطر على لغتهم، فقد ظلوا متمسكين بلغتهم الأم، فتجد الواحد منهم يستطيع أن يقرأ القرآن أو غيره ويفسره بلغته المحلية حسبما تلقاه عن شيخه، ولكنّه لا يجيد التحدّث باللغة العربية، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

■ المصادر والمراجع:

١ - بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، لمحمد الغربي.

٢ - تاريخ السودان، للشيخ عبد الرحمن السعدي.

٣ - تاريخ الفتاش، للمؤرخ الكبير محمود كعت.

٤ - الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠هـ / ١٤٦٤ - ١٥٩١م - رسالة ماجستير، نوقشت في جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م، إعداد محمد ألفا جالو.

٥ - العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين؛ مالي وسنغاي، للشيخ الأمين محمد عوض الله.

٦ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي.

رؤية نقدية لكتاب: (تاريخ الماي إدريس وغزواته) للإمام أحمد البرنوي

آدم أديبايو سراج الدين (*)

■ تمهيد:

نقد الوثائق التاريخية من السمات المميزة للتاريخ المنهجي في العصر الحديث، ودليل على تطور الوعي التاريخي، وأحد الجوانب الفارقة في التأريخ بين العصر الحديث والعصور القديمة.

يقوم علماء التاريخ المعاصرون بجهود مضنية لدراسة التراث الضخم الذي آل إلينا من القرون السابقة؛ فمن جهة يقومون بتدقيق أوراق تلك المؤلفات؛ من حيث تركيبها الكيمائي، وتوزيع ألیافها، وتمغتها الشفافة، أو الحبر الذي كتبت به، أو تحليل خطّ هذه الوثائق والمكتوبات، وذلك بهدف الوصول إلى مدى أصالتها، وصحة نسبتها إلى مؤلفيها.

ومن جهة أخرى؛ يتجه النقد إلى تحليل الوقائع التاريخية بناءً على طرح عدد من التساؤلات والمناقشات؛ تدور مثلاً حول المؤرخ نفسه، ومنزلته في المجتمع الذي كان يعيش فيه ويؤرخ له، وطبيعة المصادر التي استند إليه في تأريخه، والسبب وراء تأليفه للكتاب، والمنهج والأسلوب الذي اتبعه في كتابه، وأيضاً حول ما يذكره المؤرخ من روايات وأوصاف للوقائع والأحوال التي يريد نقلها لمن بعده، وهل تتفق هذه الروايات مع الواقع التاريخي لعصره؟ وهل عارضه غيره من المؤرخين أو لا؟ وغير ذلك من محاور النقد التاريخي.

والتاريخ الإفريقي الإسلامي جزء من تاريخنا الإسلامي، وهو جدير، كغيره من تاريخ المناطق الإسلامية الأخرى، بالدراسة والبحث والنقد والعرض، ولهذا نرى ضرورة الاهتمام بدراسة الوثائق الأصلية عن (مملكة كانم برنو) وبعض الممالك الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى.

وقد اخترت لتحقيق هذا الغرض نموذجاً من كتب التاريخ الإفريقي الإسلامي، وهو كتاب (تاريخ الماي إدريس وغزواته) للإمام أحمد البرنوي، وسأعرض في هذه الدراسة أهمية هذا الكتاب، ومكانة مؤلفه، وسبب تأليفه للكتاب، وكذا موضوعاته، ثم الأسلوب والمنهج المتبع، مع رؤية نقدية تأكيداً لما قررناها من المبادئ السابقة، ووفقاً لقواعد علم التاريخ المنهجي.

(*) قسم اللغة العربية والإسلامية - جامعة ولاية كوغي.

▪ تحليل كتاب (تاريخ الماي إدريس وغزواته):

أهمية الكتاب وموضوعه:

يعد كتاب: (من شأن سلطان إدريس ألومه وما وقع بينه وبين أمراء بلاد كانم) لمؤلفه الإمام أحمد البرنوي أشهر المؤلفات العربية التاريخية البرنوية، وقد قامت بطباعته مطبعة الأميرية في كنو، ويعد هذا الكتاب وغيره للمؤلف من أهمّ المصادر في تاريخ كانم برنو الإسلامي.

وهو كتاب يجمع مناقب (الماي إدريس ألومه) وفضائله، وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على التقوى والتوكل على الله، كما أمدّنا هذا المؤلف بتفاصيل كثيرة عن غزواته وحروبه ضدّ الكافرين المشركين في المملكة.

وفي الكتاب مادة وفيرة لمن أراد أن يؤرخ للعصر الذهبي لمملكة (كانم برنو الإسلامية) تاريخاً صحيحاً وثيقاً، فهو يتضمن العديد من المعلومات التاريخية عن الأوضاع السياسية والحربية وغيرها لتلك الحقبة.

وقد أفادنا أحمد البرنوي أن الشيخ مسفرمة عمر بن عثمان قد سبقه إلى مثل هذا العمل الجليل عن المملكة الكانمية البرنوية، وذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي أو ما قبله بقليل، وقد عثر الرحالة الألماني بارث على إحدى نسخ الديوان عام ١٨٥٣م تقريباً.

مكانة المؤلف وأثرها في قيمة الكتاب:

يعدّ الإمام أحمد البرنوي أحد العلماء الأفذاذ الذين ظهروا في مملكة كانم برنو في العصور الوسطى، وقد ترك كثيراً من المؤلفات حتى تشبه في مجموعها دائرة المعارف الكبرى تضمّ العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية.

وقد عمل كاتباً للسلطان في البلاط الملكي، ويشير حديثه الكثير عن القضايا والشرائع التي كان يفصل فيها للسلطان في العديد من شؤون الإدارة؛ إلى أنه كان مستشاراً للملك في الأمور الدينية وغيرها [1]، وأنه أدى دوراً خطيراً ملموساً في الشؤون السياسية في الإمبراطورية، وقد أتاحت هذه المكانة للمؤلف أن يرى بنفسه ومن قريب كلّ ما كان في هذه الدولة من عوامل قوة أو انحلال وضعف، وهو ما أعانه على كتابة مؤلفه العظيم في تاريخ مملكة كانم برنو.

مخطوطات الكتاب:

التاريخ يُصنع من الوثائق ولا بديل عنها، وحيث لا وثائق فلا تاريخ، (إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها)، فهذه قاعدة عامة لا موضع للجدال فيها، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفها الأسلاف للأخلاف.

ومخطوطات هذا الكتاب الأصلية موجودة الآن في همبورج على حد قول المؤرخ Palmer (بالمر)[2]، وتوجد صور فوتوغرافية صوّرتها الحكومة الألمانية من النسخ الأصلية المكتوبة باللغة العربية، والتي أحضرها الرحالة Barth (بارث) من برنو إلى أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٥م)، وقد عثرنا على نسخة لهذا الكتاب في المتحف الوطني بجوس، وتبلغ صفحاته سبعاً وثلاثين ومائة صفحة من القطع الواسع والحرف الدقيق.

سبب تأليف الكتاب:

ذكر الإمام أحمد بن فرتوا البرنوي في مقدمة الكتاب الذي ألفه في شؤون (الملك إدريس) المشهور بـ (ألومه)؛ أنه إنما كتبه ليقف الناس على ما كان من مجهودات الملك إدريس الجبارة، وذلك كما فعله الشيخ مسفرمة عمر بن عثمان في شأن سلطانه، وفي ذلك

(١) فضل كلود الدكو. الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم. كلية الدعوة الإسلامية. ١٩٩٨. ص ١٨١.

(٢) Palmer. Preface. الإمام أحمد البرنوي. «تاريخ الماي إدريس...». مطبعة الأميرية. كنو. ١٩٣٢م.

يقول: (اعلمـــوا إنما بعثنا على هـــذا التدوين في هذا الوقت؛ ما رأيناه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمة عمر بن عثمان في عصر ســـلطانه.... قصدنا أن نفعل مثل ذلك في عصر سلطاننا ... الحاج إدريس بن علي)[1].

ولهـــذا جمع في كتابه شـــؤون الملـــك إدريس السياسية، وصوّر حروبه وغزواته وانتصاراته، كما صوّر سياســـته الداخلية، ووصفـــه بأنه ملك عادل تقي زاهد ورع وفيّ شـــجاع...[2]، وأشار إلى رفقه برعيتـــه، وتخفيفه الضرائب عنهم، حتى تقوى على عمارة الأرض، واستخراج ثمارها.

كذلك أشـــار المؤلف إلى أنه خليـــق بالاقتداء بأئمة السلف فوضع كتابه تشبهاً بالمتقدّمين، وعلى كل حال؛ أراد الإمام أحمد البرنوي أن يسلك مسلك القدمـــاء من العلمـــاء الذين قامـــوا بتدوين تاريخ بلادهم.

كما كان الإمـــام أحمد معجبـــاً بالملك إدريس إعجاباً شـــديداً، فكان طبيعياً أن يؤلف كتاباً يجمع فيه بعض آثاره.

■ رؤية نقدية لكتاب (تاريخ الماي إدريس ألومه وغزواته):

قد نتساءل هل يتمتّع هذا المؤرخ بجميع شروط المشاهدة العلمية؟ وهل هو في مكان يتمكن فيه من مشاهدة الحوادث مشاهدة صحيحة، وأن يدوّن ما شاهده في أثناء وقوع الحوادث المرويّة، وأن يوضح بجلاء طريقته في المشاهدة والتدوين؟

لقد ضمّن الإمام أحمد البرنوي في كتابه (تاريخ المـــاي إدريس) نبـــذاً ونوادر متفرقة عن الســـلطان إدريس ألومه، من بيئته ووســـطه وظروفه الخارجية، وقام بتســـجيل ما شـــاهده من غزوات الملك إدريس ألومه كما أشـــار إليه فيما نصّه: (... ثم بعد فراغنا مما نحن بصدده؛ نكتب - إن شـــاء الله تعالى- ما يتعلّق بأمر بلدة كانم؛ مبوّباً له على حدته، على نحو ما رأينا)[3]، كما أتاحت مكانة المؤلف أن يرى بنفسه ومن قريب كلّ ما كان في هذه الدولة من عوامل قوة أو انحلال وضعف.

لكن المؤرخ أو الراوي قد يشاهد ما يروي، لكنه يكـــون في مكان أو ظرف لا يتمكّن فيه من التدقيق في النظر والسمع، أو يشاهد ما يروي لكن ينقصه الاســـتعداد لفهمه، أو يتأخر في التدوين فتخونه الذاكرة، وتؤثر فيه ظروف مستجدّة، فلا ينقل إلينا الخبر اليقين، وإذاً (الذكريات) التي لا تُدَوَّن إلا بعد مرور الزمن قد تكون من أضعف الروايات[4].

ومن طريف ما يتضمنه التأليف اعتراف مؤلفه، الإمـــام أحمد البرنوي، بتأخره فـــي تدوينه؛ أعنى بذلك أنه مع تمكنه من مشاهدة الحوادث مشاهدة صحيحة؛ لم يكن يدوّن ما يشـــاهده في أثناء وقوع الحوادث التـــي رواها؛ كما فعله علامة الســـودان الشـــيخ عبد الله بن محمد فودي في كتابه الشهير (تزيين الورقات) الذي يروى فيه حوادث في حركته الإصلاحية مع أخيه الأكبر الشيخ عثمان بن محمد فودي، وعلى خلاف هذا فقد شـــاهد الإمام أحمد البرنوي الغزوات لكن يبدو أنه تأخر في التدوين.

وهذا التأخر قـــد يؤدي إلى بعض التســـاهل الملاحظ في الرواية، كأن تتعلّق روايته بحقيقة عامة تشمل عدداً كبيراً من النفوس أو عدداً من البلدان؛ مما لا يتيســـر لفرد واحد مثله الإحاطة الشاملة به والتدقيق فيه على وجهه الأشـــمل، فكان في روايته كلام إجمالـــي عن بعض حقائـــق تاريخية، وكذلك تعميم في المعنى مما يستوجب الانتباه والتأني.

قال الإمام أحمد في سرده لبعض غزوات الملك إدريس: (وأين أنتم مما فعله مع قبيلة سوى ممتثلاً لما أمر اللـــه - تعالى - من قتال الكفار الذين كانوا أعادي المسلمين والغلظة عليهم، ومما فعله أيضاً مع أهل البلد أمسكا، وقد قيل إن هذه الشوكية حصرت

(١) المرجع السابق. ص ٢.
(٢) المرجع السابق. ص ٢.
(٣) المرجع السابق. ص ٧.
(٤) رستم أسد. مصطلح التاريخ. ص ٧٨.

قبل شوكيتنا التي حضرها السلطان علي بن أحمد، ومما فعله مع أهل كنه حين بنوا في أرضهم الشوكية الكثيرة قاصدين خيانة أرض برنوح، كانوا يغيرون عليها وينهبون ما أصابوا، ويفرون إلى شوكياتهم وحصونهم)[1].

وقد أهمل الإمام أحمد هنا ربط الأسباب بالمسببات، أو بعبارة أخرى ربط الأحداث والوقائع بنتائجها؛ إذ لم يذكر سبب قتال بلدة أمسكا، كما لا يذكر آثار تلك الغزوة التي وقعت بين الملك وأهل البلد المذكور.

ومن المستحسن أن تتحلى رواية المؤرخ بالوضوح، خاصة عند ذكر بعض الوقائع المهمة، وهذا ما اهتم به منهج تدوين التاريخ الحديث، الذي يهدف إلى إعادة تشكيل الحوادث التاريخية ودراستها؛ بغية وضع روايات تعتمد على الدقّة في مضمونها وسردها، فالمؤرخ ينبغي له أن يجتهد في التحقق من الوقائع، ويسأل كيف حدثت[2] ولِمَ، ويفتش عما فيها من حقائق.

ومن الصعب أن يسجل المؤرخ كلّ ما حدث، وليس من الواجب أو من الممكن أن تكون الحوادث كلها جديرة بالتدوين، وبالرغم من ذلك يمكن لمؤرخ أن ينهج هذا المنهج في تدوين التاريخ، ويختار من المعلومات الكثيرة المتوفرة لديه، خصوصاً التي تتطلبها حقائق تاريخية معينة، وذلك مع مراعاة الدقّة والوضوح وصحّة الأخبار[3].

وهذا ما نراه لدى الإمام أحمد بن فرتوا حين يستغرق في وصف المعارك التي اندلعت بين الملك إدريس وجيوش المسلمين وبين الكفار المشركين في المملكة وخارجها، أو وصف بعض حروبه في المملكة ضدّ بعض القبائل أمثال قبيلة سو So وقبيلة بلالا Bulala ، ومن هذا على سبيل المثال وصفه لحرب قبيلة سوغفتا: (لما أن قصد حرب الأعداء من قبيلة سوغفتا وأراد إهلاكهم وتدميرهم؛ بنى المدينة الكبيرة بحذاء بلد دمسكه، وأمر فيها شطيمه... وجعل للمدينة أربعة أبواب، وأقام على كل باب حاجباً، وأسكن بها جنوداً من عساكره، وأمر كلّ من له قوة ومنعة من عماله أن يبنوا ديارا ويسكنوا فيها... لطلب الأعداء، مصرّين على هذا الحال، إلى أن قدّر الله – تعالى – خراب مصرهم)[4]، هكذا لم يهمل المؤلف شيئاً يتّصل بما يصفه؛ بالمقدار الذي يقتضيه المقام، وتتسع له الصفحات.

ومن الجدير بالذكر أن تدوين تاريخ، كالذي نحن بصدده، ينبغي له أن يسجل الحوادث بهدف إفادة الناس، لا بهدف المتعة والترويح عن النفس برواية قصة أو حكاية أسطورية وغير ذلك، كبعض المؤرخين مثل هيرودوت.

وعلى جانب آخر؛ نلاحظ إكثار الإمام أحمد البرنوي من السجع والعبارات الأدبية والاقتباسات، والحق أن المؤلف لا بأس بقلمه؛ إلا أن تدوين التاريخ الذي يقوم به لا يحتاج إلى الإكثار من المحسنات اللفظية والاقتباسات والتكلف فيهما.

لكنه على الرغم من ذلك أجاد في تعبيره وأفاد، وهو ما يشهد لسعة علمه وتمكنه من القواعد اللغوية العربية، ونحن نقدّر نضج نتاجه الأدبي والعلمي وتمكنه من قواعد اللغة، ومن أمثلة عباراته واقتباساته: (أعمل فكره في سياسته)، (قطع دابر القوم الذين ظلموا)[5]، (ضدّ الكافرين والمشركين الذين لا يتناهون عن سبي مسلمي المملكة، والإفساد فيها، ولا يفترون عن فعل القبائح...).

ويقوم الاتجاه الأدبي النيجيري في هذه المنطقة وما جاورها من بلاد أفريقيا الغربية، على الأسلوب الديني، مع التأثر بالصبغة الصوفية، والاعتماد على

(١) الإمام أحمد البرنوي، «تاريخ الماي إدريس...»، ص ٤.
(٢) Schlozer, "On Historiography".
(٣) Osokoya, O.O. "Writing & Teaching History: A Guide to Advanced Study", Ibadan, Laurel Education Publishers, 1996, p. 23 .
(٤) الإمام أحمد البرنوي، «تاريخ الماي إدريس...»، ص ٨ وما بعدها.
(٥) المرجع السابق، ص ٩.

الصناعات اللفظية التحريرية[1]، والتعرف إلى أدب العصر الذي عاش فيه المؤرخ، والاطلاع على بدائعه وروائعه؛ تفيد في معرفة المثل العليا التي أثرت في أسلوبه، وتيسر فهم روايات المؤرخ وتقديرها حق قدرها.

وإذا كان أسلوب المؤلف هنا أدبياً، يعتمد على الألفاظ والتراكيب البلاغية للتأثير في النفس؛ فإن ذوقه الفنيّ هذا لا يمنعه أن يتّفق مع الحقيقة، ويستطيع المؤرخ إذا جمع إلى دقة رواياته التاريخية للأحداث بلاغة الأسلوب ودقّة الألفاظ، أن يبلغ القمّة في أداء مهمّته التاريخية[2].

ونأتي إلى جانب آخر من جوانب نقد هذا الكتاب، وهو المعاصرة بين المؤلف والمترجم له، فالمعاصرة تحقق شيئين اثنين، كما يرى بعض المفكرين، وهما الوقوف على إنصاف المؤرخ وعدالته في جانب، والكشف عن جور المؤرخ وظلمه في جانب آخر[3].

يمكننا أن نفهم في طيات هذه الفكرة السديدة؛ أن المؤرخ الذي عاصر الشخصية أو الحادثة؛ يستطيع أن يسوق روايته دون تحيّز أو تعصب، كما يمكنه أن يصور لنا أخباراً غير صادقة؛ حتى لا نستطيع أن نميّز بين الأخبار الصحيحة والأخبار الكاذبة، ويشبه هذا البيانات السياسية الرسمية، والتي تنشرها بعض الحكومات عن شخصية ما أو حادثة، فقد تصدق فيما تنشر، أو تكذب، أو لا تنشر كل الحقيقة.

ولا نجانب الصواب إذا عددنا كتاب الإمام أحمد نوعاً من الترجمة الشخصية الأدبية، والدافع لهذا الحكم هو وجود (المعاصرة)، فالإمام أحمد البرنوي كان يعاصر الملك إدريس، وقد صاحب تلك المعاصرة قيام صلة وعلاقة جيدة بينهما، أدت إلى توافقهما وتعمير صدورهما بالصداقة والمودّة، كما هو ظاهر في موقفه في إخباره عن الملك إدريس ألومه، وستأتي أمثلة لذلك.

وإن سأل سائل إذا كان الأمر هكذا؛ فهل أخبار الإمام أحمد البرنوي صحيحة أو رديئة؟ ثابتة أو مزورة؟ والجواب أن أسلوب المؤرخ يخالجنا فيه الشك والظنّ إلى حدّ ما.

وبالرغم من ذلك، فلا شك أن المعلومات الواردة في الكتاب تاريخ الماي إدريس للمؤرخ الإمام أحمد قد سلّطت الأضواء على تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، خصوصاً شمال نيجيريا حالياً، فإذا هي تبدّد كل ظلام فيه، ويكفي أن المؤلف من الذين شاركوا في بعض أحداث المملكة، فقد سار مع الملك في كل جهة، وفي غزواته التي يروي عنها، ورأى سفينة هذه المملكة وما كان يتجاذبها من عواصف من كل جانب، من الداخل والخارج.

ومن الملاحظات النقدية المهمة أيضاً؛ كثرة ترديد الإمام أحمد البرنوي لعبارات التودد للسلطان إدريس، فقد تضمّن الكتاب الشيء الكثير منها ومن عبارات تقديم الإخلاص والمحبة للملك، لكن من المهم أن نشير إلى احتمال قبول هذا التودد لذوي السلطان في عرف الناس حينذاك؛ إذ كان ذلك من عادات الناس في العصور الوسطى وأعرافهم، وهذا لا يعني أن المؤلف والمؤرخ لا يكون مخلصاً فيما يرويه، لكن مثل هذا التقرب قد يؤدي إلى الانزلاق العاطفي.

وفي جانب آخر؛ نلاحظ الثناء المبالغ فيه للملك إدريس ألومه، والتنويه به في كل رواية، فقد تحدث المؤلف عن عجزه عن استقصاء أوصاف المترجم له الكثيرة ومناقبه الغزيرة، وأنه إذا اجتمع عدد غفير من العالمين على ذكر تلك الأوصاف لا يقدرون على ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً! وتحدّث عن ذلك قائلاً: (لا نطيق نحن بذكر أوصافه الكثيرة ومناقبه الغزيرة،

(١) الألوري، آدم عبد الله، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، بدون تاريخ، ص ٥.

(٢) الفلاني، آدم يحيى عبد الرحمن، «مع المؤرخين في بلاد يوربا...»، ص ١٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤.

ولو اجتهدنا فيه اجتهاداً شديداً لما أتينا بعُشْرِها... ولو أن جماعة العالمين الوافرين اجتمعوا على ذكرها لم يقدروا عليه)[1]، وقال أيضاً: (إننا أظهرنا إليكم عجزنا وبينا لكم قصورنا عن استقصاء أفعال سلطاننا التي أبداها في إمارته برسم الأقلام وتحريك البنان، وكيف يمكن ويسهل لنا ذلك مع استعماله بأكثر ما في الكتاب والسنّة من خصائل الجهاد في سبيل الله قاصداً وجهه الكريم وثوابه الجسيم، ولذلك قصرنا ذكر غزواته كلها على ما وصفنا في هذا التصنيف فقط) [2].

ويأخذ المؤلف في سرد طائفة من أوصاف المترجم له الملك إدريس ألومه، حتى يبلغ هذا الوصف مبلغ التقديس والتبجيل، ويستهلّ الإمام أحمد البرنوي بثناء الملك فيقول: (هو الملك الفقيه العادل التقي الزاهد الورع الوفي الشجاع الحاج إدريس بن علي... بارك الله في خلفه بركةً عظيمةً)[3].

ولا شك أن في الإكثار من وصف المترجم له نوعاً من التأثر العاطفي، أو أقول بعبارة أخرى الانزلاق العاطفي، الذي يمكن أن يؤدي إلى التعصّب الذي لا يستطيع معه المؤرخ أن يروي أخلاق المترجم له الذميمة إن وُجدت، كما سيأتي بيانه.

وقد يرجع سبب مبالغة الإمام أحمد في الثناء على الملك إدريس إلى تأثره بأسلوب التراجم الصوفية؛ والإمام أحمد البرنوي، الذي كان لا يزال في خدمة الدولة، وفي قائمة الموظفين في المملكة، وخاصة في البلاط الملكي، كان ينظر إلى الملك كشيخ له ومربٍّ.

وأهمّ ما يميّز التراجم الصوفية تصوير سلوك شيوخهم، والتركيز على كثير من تجاربهم التي قد تُعدّ في جوانب منها غريبة، وخاصة حين يتحدّثون عن سيرتهم، ويعرضون كراماتهم ومكاشفاتهم وما عرض لهم من الأحوال، ولا يرون بأساً في الثناء عليهم، وقد اصطبغ كثير من النتاج الأدبي في هذه الديار بهذا اللون من الأسلوب.

وقد يكون السبب أنه كان يؤرخ لملك، وأمير للمؤمنين، وهو ما يستحق من أجله التقديس والتبجيل في المملكة، والتنويه به في كل رواية، لكن هذه المبالغة في التنويه غير مقبولة في تدوين التاريخ؛ لأن التاريخ أمانة في عنق المؤرخ، ويجب أن يؤديه بصدق وأمانة وإخلاص، كما يجب أن يستوفي المؤرخ شروط التاريخ ومنهج تدوينه.

وإذا كان الإمام بالغ في وصفه للملك إدريس، ورأى أنه بذلك قد يسرّ الملك ويحظى عنده بالقبول والتقدير؛ فإنه بذلك يكون قد أخفق في مراعاة شروط كتابة التاريخ؛ إذ يمكن أن يشوب روايته شيء من الزيف والبهتان، يؤدي إلى التباس الأمور، وصعوبة الكشف عن الحقائق التاريخية.

كذلك نلاحظ وجود تحيّز أو تعصّب لدى الإمام أحمد البرنوي للسلطان الذي يؤرخ له، فهو يُخبر عن محاسنه دون أخلاقه الذميمة؛ كما يرى المؤرخ هنويك[4]، ويبدو أن الإمام أحمد كان متحيزاً للسلطان في تاريخه، فاضطر، عن قصد أو غير قصد، أن ينظر إلى الملك إدريس بعين الرضا لانتمائه إليه، وهذا المنزلق قديم العهد في مهنة التأريخ، وقد أشار إليه المؤرخون قديماً[5]، ومنهم العلامة ابن خلدون؛ إذ رأى أنه من الأخطاء التي تعرض للمؤرخين، وتتسرّب إلى الرواية التاريخية، وذكر أن التشيّعات تغطّي على عين بصيرة المؤرخ، فتحجبه عن الانتقاد والتمحيص، فيقع في رواية كاذبة[6].

(١) الإمام أحمد البرنوي. «تاريخ الماي إدريس وغزواته...» مطبعة الأميرية. كنو. ١٩٣٢. ص ٣.

(٢) المرجع السابق. ص ٦.

(٣) المرجع السابق. ص ٢.

(٤) Hunwick, John "Source Materials for the History of Songhay, Borno, & Hausaland in the 16th C." Research Notes, in JHSN, Vol.iii, No. 3, 1974, p. 585 .

(٥) رستم أسد. مصطلح التاريخ. المكتبة العصرية. ٢٠٠٢. ص ٧٤.

(٦) ابن خلدون. عبد الرحمن. مقدمة تاريخ العبر. طبعة دار النشر. ص ٤.

لكن قد يتمكن المؤرخ، مع تعاطفه وميله لفئة أو حاكم ما، من أن يكون متوازناً في رواياته، مثل المؤرخ الأخلاقي مسكويه، وهو من رجال القرن الخامس الهجري، فقد كان متصلاً ببني بويه، وهم ملوك الدنيا في زمانهم، ولكنّ ذلك لم يمنعه من أن ينتقد بعض أعمالهم في رواياته عنهم، ويعلّق على بعض تصرفاتهم[1].

ومما يؤخذ على هذا كتاب الإمام أحمد البرنوي أيضاً؛ رفعه لنسب الملك إدريس ألومه إلى قبيلة قريش، فهو ينسبه إلى نسل أمي بن عبد الجليل من سلالة سيف بن ذي يزن إلى قبيلة قريش، فقد قال الإمام أحمد البرنوي في ذلك: (وهو الملك الفقيه العادل التقي الزاهد الورع الوفي... الحاج إدريس بن علي... من نسل أمي بن عبد الجليل من سلالة سيف بن ذي يزن، ومن مصاص قريش، ومن منح حمير، بارك الله في خلفه بركةً عظيمةً)[2].

وإذا كان من الممكن أن يوفق المؤرخ أحمد البرنوي إلى الصواب برفع نسب الملك إلى نسل أمي بن عبد الجليل إلى سلالة سيف بن ذي يزن؛ فإنه قد أخطأ حينما ذكر في كتابه أن سيف بن ذي يزن من مصاص قريش، والحق إن سيف بن ذي يزن من أبطال العرب وهو من سلالة حمير في اليمن[3] جنوب الجزيرة العربية، فإن ما يمتدّ من الحجاز إلى الجنوب يُسمى اليمن، وكان سكانها شعب قحطان، وكانت لهم فيها عمارة عظيمة وحضارة زاهرة، بينما كان سكان الحجاز هم الشعب العدناني، وقد أقامت بطون قريش في مكة وضواحيها، ونظراً لبعد المسافة الجغرافية بين هذين الشعبين المذكورين؛ فمن المستبعد وجود علاقة واتصال نسبيّ بينهما.

وقد انتقد القلقشندي هذا الربط بين ابن ذي يزن وقريش في كتابه صبح الأعشى، حيث شكك في صحّة هذا الانتساب القرشي الذي ذهب إليه المؤرخ أحمد بن فرتوا، وذكر أن قصة النسبة القرشية خرافة، قال القلقشندي معلّقاً على هذا الادعاء السيفي القرشي: (إلا أنه لم يحقق النسب، فذكر أنه من قريش، وهو غلط، فإن سيف بن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير)[4].

■ الخاتمة:

هذا الكتاب في شؤون الماي إدريس ألومه وثيقة مهمّة في تاريخ هذه الحقبة بكانم برنو، فهو من ناحية يعطينا صورة للأحداث التي مرت بها المنطقة، وما آلت إليه أحوال المملكة، كما أنه بوجه عام غني بمعارف كثيرة، نطلع من خلالها على جوانب من تاريخ أمتنا الإفريقية الإسلامية في القرون الماضية، والإمام أحمد البرنوي بكتابه هذا يُعد من أبرز المؤرخين الذين نهضوا بعبء تدوين تلك المرحلة التاريخية لذلك العهد الإسلامي في أفريقيا، حيث سجّل كل ما استطاع تسجيله ليجمع لنا هذه المعلومات الوفيرة عنه.

والقارئ لا يمضي في قراءة الكتاب حتى يُعجب بشخصية المترجم له؛ فالكتاب يُرينا بعض شؤون الملك إدريس ومملكته كانم برنو الاجتماعية إلى حدّ ما، ويصفه وصفاً مسهباً، ويعرض لنا ما واجهه إدريس ألومه من مشكلات في إمارته، وما دُبّر ضدّه من ثورات، وما دخل فيه مع أعداء إمارته من الحروب والغزوات، ويشير في أثناء ذلك إلى صور من الانحلال السياسي والاجتماعي، والتي أدت إلى إعلاء كلمة الملك إدريس ألومه.

ومع أنه لا يصحّ أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في الكتاب من معلومات دون تدقيق وتحليل؛ فلا يمكن أن نُغفل محاولة الإمام أحمد التماس الدقة والتحري فيه، أو محاولته إثبات صحّة رواياته

(١) عبد الغني، حسن محمد، علم التاريخ عند العرب، مطبعة التقدم - مصر، ص ١١٦.

(٢) الإمام أحمد البرنوي، «تاريخ الماي إدريس ...»، ص ٢.

(٣) Paret, R. Siirat Ibn Dhi Yazan, Borno Sahara & Sudan Series, 2006, p. 113 .

(٤) القلقشندي، أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٥، ص ٢٧٩.

في طيات كلامه، ولذلك نجده في الكتاب يقرّر ذكر (بحسب ما رأينا وما سمعنا، والله العالم الكامل، والحكم الشامل، ثم بعد فراغنا مما نحن بصدده نكتب إن شاء الله – تعالى – ما يتعلّق بأمر بلدة كانم؛ مبوّباً له على حدّته، على نحو ما رأينا)[1]، وكثرت مثل هذه العبارة (حسب ما رأينا) في فصول من الكتاب.

كما حاول المؤرخ أن يتخلّص من كل هوى وعصبية وتحيّز؛ مبتغياً في كتابه الحق ما أمكنه، ليسجل لنا ما استطاع من تاريخ بلاده وإمارة أهله تسجيلاً مستبصراً، يعرض الحوادث بجميع تفاصيلها؛ لتحكم بأنه كان حازماً في كتاباته، وأن ما سجله كان هو الوجه الذي ينبغي أن يختاره العاقل الحصيف.

وقد أظهر المؤلف تواضعه في إيمانه بأن الإنسان في تصرّفاته لا يكون كاملاً، وأن الكمال كله لله – تعالى – وحده، وهو ما يُظهر لنا تأثير البيئة الإسلامية التي ينتمي إليها هذا المؤرخ الجليل في عاداته وسلوكه؛ باقتدائه في تواضعه هذا بعلماء المسلمين.

(١) الإمام أحمد البرنوي. «تاريخ الماي إدريس ...». ص ٧.

الصين الصاعدة وفرنسا الآفلة في قلب أفريقيا

«إن فهم الصين لاحتياجاتنا أفضل من الفهم البطيء والمتغطرس في بعض الأحيان للمستثمرين الأوروبيين، والمنظمات المانحة، والمنظمات غير الحكومية»، «ليست إفريقيا وحدها هي التي يجب أن تتعلم من الصين ولكن الغرب أيضاً»[1].

ما قد باح به الرئيس السنغالي يعتمل بالتأكيد في عقول غيره من الزعماء الأفارقة، ويكتسي أهمية لافتة عندما يصدر عن زعيم منتخب لدولة عانت نير الاحتلال الفرنسي لمدة تزيد على ثلاثة قرون، وارتبطت بحبل سري لم يزل موصولاً إلى اليوم بالعديد من ملفات متشابكة مع باريس.

وما يرمقه واد يدركه الخبراء في عواصم المال التي يتطلع ساستها إلى علاقة أكثر تميزاً مع القارة التي لم تستنزف جميع خيراتها بعد، والراصدون للمعطيات المتوافرة عن تقارير تلك العواصم، والتي تفيد بأن ٨٪ من احتياطات النفط العالمية موجودة في باطن تلك القارة، والتي يتوقع أن تتجاوز سقف الـ ١٥٪ من إجمالي الإنتاج العالمي خلال الأعوام القليلة القادمة، أي سُبُع الإنتاج العالمي من النفط؛ يفهمون جيداً أن هذه الأرقام المتوافرة لا تعبّر عن الحقيقة ذاتها التي تدفع الاستثمارات، وأحياناً القوات، إلى قلب القارة السمراء.

وإذ أعلنت نتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية في واشنطن؛ اتجهت أنظار الخبراء الاقتصاديين تلقاء هذه القارة التي انحدر منها الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما، وتحدثت التقارير عن الرئيس الأسود الذي يرتبط بعلاقات جذرية مع بلد آبائه الكينيين، وأجداده السودانيين؛ حيث السودان قد غدا مرتكز الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في إفريقيا، وبلد النزاع الدولي المكتوم حول دارفور وامتداداتها حتى الغرب الإفريقي.

إفاقة أمريكية - ربما - بعد سكرة أدارت فيها ظهرها لهذه القارة العريقة، بعدما أدركت أن اللاعبين الدوليين قد جدّوا السير إليها غير عابئين بالتريّث الأمريكي، مستفيدين من التردد الأنجلوساكسوني في الامتداد الاستراتيجي في أدغال إفريقيا.

الصين لم تنتظر كثيراً لتقرأ نتائج حروب الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان والعراق، وكانت الأكثر ارتياحاً للتراجع النسبي لاهتمام الفرنسيين بمستعمراتها السابقة التي سرقت الولايات المتحدة الأمريكية منها بعضها، إثر سياسة رعناء اختطتها فرنسا خلال العقدين الماضيين.

الدول التقليدية لم تفق بعد من هول صدمتها، فالهنود والكوريون والماليزيون أيضاً على الطريق.

الفقراء تضرروا بالفعل من الأزمة المالية التي

(١) الرئيس السنغالي عبد الله واد. مقال بفايننشيال تايمز ٢٠٠٨/١/٢٤م.

عصفت بالعالم، لكن كثيراً من القبائل الإفريقية في عمق الأدغال لا يتعاملون بالبورصة ولا تعنيهم انتكاساتها، وحيث تبوأت الدول «الاستعمارية» التقليدية والولايات المتحدة مكان التاجر الموشك على الإفلاس العائد إلى دفاتره القديمة رغبة في ضخ ما يمكن في خزائنه اتقاءً للإفلاس المحتوم؛ فإن إفريقيا مكتوبة أحرفها بشكل بارز في هذه الدفاتر لم تبرحها.. لا سيما أن كثيراً من البلدان العربية والإسلامية الأخرى قد استنزفت بما لا يحتمل أحياناً لمزيد، وبما يخلف صراعات أخرى قد تنشب في منطقة «الشرق الأوسط» المتخمة أصلاً بأكثر معدّلات الحروب في العالم خلال القرن الماضي.

وعندما لملمت بعض الدول الغربية أوراقها من إفريقيا كانت الصين ترسل خبراءها لتستطلع أوجه التعاون الاستثماري مع الأفارقة، ونجحت إلى حد كبير فيما أخفق فيه الآخرون.

وحالما كانت الاستراتيجية الفرنسية بحاجة للترقيع، والأمريكية معطلة نوعاً ما في إفريقيا، كانت بكين تضع لمساتها الأخيرة على استراتيجيتها الطموحة في إفريقيا.

■ الاستراتيجية الصينية في أفريقيا:

تعتمد الاستراتيجية الصينية في أفريقيا على عدة محاور:

أولاً: الإفادة من العولمة الاقتصادية:

لم تكن العولمة هي الأداة التي تمسك الولايات المتحدة الأمريكية بها وحدها للسيطرة على العالم اقتصادياً؛ فلقد أجادت الصين ذاتها في الإفادة بها حين حاكمت الغرب إلى آليات السوق وديناميكية الاستثمار؛ فمن حيث لم يرد الغرب فقد مكّن «الاختراع الغربي» الصين من الثبات في وجه محاولات إبعادها عن الاستثمار الهائل في إفريقيا، لا سيما في المجال النفطي.

الأمر ذاته وجده الغرب حياله فيما يتعلق بالهند وكوريا الجنوبية وماليزيا، وغيرها من الدول التي استقوت بوجودها الصين على الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي.

ثانياً: الابتعاد عن التدخل في الشؤون الداخلية للدول الإفريقية التي تقوم بالتعامل معها:

تنأى الصين عن التورط في الصراعات الداخلية، أو إزعاج القادة الأفارقة بطموحات سياسية لها في القارة، وتسعى إلى تقديم صورة مغايرة عن تلك التي يعرفها الزعماء الأفارقة جيداً عن الاقتصاد الأوروبي، والذي يهدف إلى ترجيح كفة بعض الموالين له على أقرانهم في الدول الإفريقية، ودمج الاقتصاد مع سياسة توسعية تمتص الموارد الإفريقية تحت ذرائع دولية مختلفة؛ تتعلق أحياناً بالإرهاب، أو بالإغاثة، أو تأمين المصالح الغربية، ما يتيح للدول الغربية التدخل في شؤون الدول الإفريقية إلى حد اعتبارها ضيعات خاصة.

ولذلك فالساسة الصينيون دائماً ما يرددون قولهم بأن الصين لا تخلط السياسة بالاقتصاد فـ «السياسة هي السياسة، والأعمال هي الأعمال» (Business is business)، وهي تعطي مثلاً على ذلك من خلال وجودها في السودان، كما صرّح نائب وزير الخارجية الصيني زهو ونزهونغ صيف العام ٢٠٠٤م حول قضية دعمها الحكومة السودانية ضد قوات المتمردين: «الأعمال هي ما يهمنا، ونحن نحاول فصل الأعمال عن السياسة، وأعتقد أن الوضع الداخلي السوداني هو شأن داخلي، ونحن لسنا في موقف يتيح لنا أن نفرض مواقفنا على الحكومة»[1]، والظاهر لدى الحكومات الإفريقية أن الصين هي دولة اقتصادية بحتة، وهي بذلك لا تتناول القضايا السياسية الحساسة في العالم،

(١) الدكتور أحمد علو (عميد متقاعد): التنين يحرّك ذيله فماذا يفعل النسر؟ . مجلة الجيش (اللبناني) - العدد ٢٦١ - ٢٠٠٧/٣/١م.

ومنهـــا إفريقيا التـــي تخلو أجندتهـــا من الحديث عن صراعاتها ومشـــكلاتها السياسية، سواء أكانت الخارجية أو الداخلية.

ثالثاً: تقديم المساعدات غير المشروطة:

تقدم الصين ذاتها للحكومـــات الإفريقية على أنهـــا البلد النظيـــف من الأطماع «الاســـتعمارية» التي تشـــوه تاريخ نظرائها من البلـــدان الأوروبية صاحبة السوابق الصراعية والاضطهادية للشعوب الإفريقية، لا ســـيما في عصور استباحة الرق في الغرب والجنوب الإفريقي، والعديد من المذابح التي مهدت الطريق للسيطرة الأوروبية على معظم بلدان القارة السمراء.

وما يشـــي بحجم الترحيب الإفريقي بالصين، والمرارة من الحقبة «الاســـتعمارية» الأوروبية؛ الرد الحاد الذي كاله السفير الزامبي في بكين ليوباندو مواب على الانتقادات الغربية للصين بالقول: «هذا محض نفاق ورياء! لا أحد يقول شيئاً عن الحضور الهائل للصـــين في الولايات المتحـــدة، لكن عندما يأتون لإفريقيا يقف كل الغرب مدججاً بالأســـلحة. خـــلال أيام العبودية الغربية لم يقف أحد لتعويضنا عن نهب قارة كاملة!»[1].

وفـــي منتدى التعاون الصينـــي الإفريقي الذي يضـــم ٤٦ دولة إفريقية مـــن أصل ٥٣ دولة هي كل دول القارة، والذي أعلن عنه من بكين عام ٢٠٠٠م، تم إســـقاط ديـــون تبلغ نحو ١,٢ مليـــار دولار من ديون دول القارة دون شـــروط مسبقة على الصعيد السياسي خصوصاً.

ولم يحدث أن رهنـــت الصين علاقاتها بالدول الإفريقيـــة بتحقيق قدر ما مـــن الديمقراطية، أو اشـــترطت معايير خاصـــة لحقوق الإنســـان تتم بموجبها الإفادة من المنـــح الصينية، ومع أن الدول الإفريقية والعالم – ربما – برمته؛ يدرك أن الغرب لا يضع مثل هذه الشـــروط بغيـــة تحقيقها، وإنما لفرض شـــروط أخرى تحت الطاولة، إلا أن زعماء القارة بدؤوا يميلون نحو بكين؛ لإدراكهم أن مثل هذه الشـــروط ليست على الأجندة الصينية المهتمة أكثر بعالم الأعمال والاســـتثمار، «وتكشف الإحصاءات الصينية عن أن بكين قدمت مساعدات بقيمة ١٠٧ ملايين دولار فقـــط لإفريقيا عام ١٩٩٨م، ووصلت هذه المساعدات بحلول عام ٢٠٠٤م إلى ٢,٧ مليار دولار، ما يعادل ٢٦٪ من إجمالي المساعدات الدولية الصينية، رغم أن دولـــة كاليابان لم تقدم لإفريقيا ســـوى مســـاعدات قيمتها ١١ مليون دولار؛ الأمر الذي يضع الصين في مصاف الدول المانحة الكبرى للقارة»[2].

رابعاً: ملء الفراغ الاقتصادي الناشئ عن ابتعاد الدول الغربية مؤقتاً عن بعض الدول الإفريقية:

لعل هذه سياســـة صينية لا تقتصر على القارة الإفريقية وحدها؛ إذ تعمل بكين على ملء الفراغات الناشـــئة عن مقاطعـــة الدول الغربية – لا ســـيما الولايات المتحدة الأمريكية – لبعض الدول الرافضة للسياســـات الأمريكية، والتـــي اصطلحت الولايات المتحـــدة في ولايتـــي بوش الابن على تســـميتها بـ «الـــدول المارقة»، علاوة علـــى دول أخرى لم تحمل هذا الاســـم لكنها تعاني عقوبات أو شبه حصار من الولايات المتحدة الأمريكية، مثل الســـودان وإيران وكوريا الشـــمالية وميانمار وفنزويلا وأوزبكســـتان وكمبوديا وغيرها.

وفي القارة تحديداً تبرز السودان كإحدى الدول التي أفادت الصين كثيـــراً من الفراغ الذي أحدثته الولايات المتحدة الأمريكية؛ عندما قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الســـودان في العام ١٩٩٧م، حيث

(١) بيترنل خروبن: التقدم الصيني في إفريقيا يثير ريبة الغرب. إذاعة هولندا - ٢٠٠٨/١/٢٥م.

(٢) جوسوا كورلانتزك: الوجود الصيني في إفريقيا.. منافع وأضرار. موجز لدراسة نشرت على موقع معهد كارنيجي للسلام الدولي، تحت عنوان: مغامرة بكين الإفريقية، ضمن سلسلة Policy Outlook، نوفمبر ٢٠٠٦م، ترجمة مروى صبري، موقع إسلام أون لاين - ٢٠٠٧/٠١/٢٧م.

أسرعت الصين في ملء هذا الفراغ الذي خلفته واشنطن بسرعة (لا سيما والزعيم السوداني د. حسن الترابي الذي كان يمارس دوراً رسمياً في الدولة حينئذ قد اندفع هو الآخر إلى الصين) بما سيجري تفصيله لاحقاً.

إلى ذلك؛ فإن الصين لم تجد في العلاقات التشادية التايوانية (العدو الأقرب للصين) حجر عثرة في سبيل تشجيع تشاد على قطع علاقتها تدريجياً مع تايوان؛ فشرعت قبل تسكين هذه العلاقة في مد الجسور الاقتصادية مع أنجامينا؛ بما أسهم في إيجاد موطئ قدم لها في بلاد جنوب الصحراء.

خامساً: انتهاج أسلوب الشراكة التنموية:

تبدي الصين حرصاً لافتاً على الشراكة التنموية مع الدول الإفريقية؛ بخلاف الدول الأوروبية التي حرصت عبر قرون على جعل إفريقيا مستودعاً للمواد الخام، ولم تقدم ما يمكنه أن ينهض بالقارة، والمثير لحفيظة الأوروبيين في هذا الصدد أن العلاقة بين الصين وإفريقيا الآن هي الأفضل بشكل كبير في مجال التنمية للقارة، وتفعيل الشراكة النفعية من كلا الجانبين، يقول السفير الزامبي في بكين ليوباندو مواب: «تعرض الصين قروضاً بشروط ميسرة جداً على الأقل تعرف الصين ما نحن بحاجة إليه، ولا يضعون الكثير من الشروط مقابل قروضهم، ويبنون البنية التحتية التي نحن حقاً بحاجة إليها؛ فعشرات الآلاف من العمال الصينيين يعملون الآن في زامبيا، حيث يبنون الطرق وملعباً رياضياً ومدرستين»[1].

وما يشاهد في زامبيا يتكرر في غيرها، ففي الكونغو وحدها سيعمل في السنوات المقبلة ٤٠ ألف عامل صيني في مجال الطرق والسكك الحديدية[2]، وما الكونغو إلا عينة لما هو موجود بالفعل في السودان وأنجولا ونيجيريا، حيث الأرقام أكبر كثيراً، والبنى التحتية تشهد تطوراً لافتاً بالتعاون مع الشريك الصيني، يقول رئيس قسم الأبحاث في معهد بروكسل للدراسات الصينية المعاصرة جونثان هولسلاغ: «مقدار ما تنفقه الصين على المساعدة التنموية لا يزال طي الكتمان، أحد التقديرات يرفع المبلغ في حدود ٥,٥ مليارات يورو، بالإضافة إلى عشرة مليارات يورو أنفقت كقروض للدول الإفريقية»[3].

وببراجماتية واضحة تعرض بكين قيامها بتمويل مشروعات البنية التحتية التي توقف البنك الدولي ومعظم الجهات المانحة الثنائية عن تمويلها منذ عقود مضت، «وتشير الدراسات إلى أن الشركات الصينية تنفذ مشروعات البنية التحتية بتكلفة تعادل ٢٥٪ من تكلفة الشركات الغربية؛ وهو ما دفع البنك الدولي ومؤسسات أخرى لتمويل مشروعات بناء الطرق من جديد؛ رغم مخاوف مسؤولي البنك من تعرض هذه الأموال للاختلاس»[4].

سادساً: مساندة الدول التي تمنح الصين أولية في التعامل في المحافل الدولية:

تعتبر بكين اليوم هي الدولة الأولى في إفريقيا من حيث الأعداد الموفدة لقوات حفظ سلام عاملة تحت راية الأمم المتحدة؛ متفوقة في ذلك على أي عضو آخر دائم بمجلس الأمن، وهذا لا يعني بالطبع وجود قواعد عسكرية دائمة للصين في إفريقيا؛ مثلما هو الحال بالنسبة لفرنسا مثلاً التي تضع لها قواعد رئيسية في ست دول إفريقية، ولا يجسد ذلك بالضرورة أطماعاً عسكرية صينية في إفريقيا بما ينسف الصورة التي تريد الصين أن تبدو بها في

(١) بيترنل خروبن: التقدم الصيني في إفريقيا يثير ريبة الغرب. إذاعة هولندا - ٢٠٠٨/١/٢٥م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) جوسوا كورلانتزك. مصدر سابق. ويلاحظ أن كورلانتزك المدرس الزائر بمعهد كارنيجي / البرنامج الصيني. لم يتمكن من إخفاء ميله إلى الجانب الغربي في دراسته؛ حيث عزا إحجام البنك الدولي آنفاً عن تمويل تلك المشروعات التنموية في مجالات الطرق وغيرها. ما تحتاج إليه إفريقيا. إلى الخشية من الاختلاسات. مع أن البنك يمول مشروعات أخرى - غير تنموية - لا تخلو من الفساد في تلك البلدان الإفريقية.

الصين؛ بيد أن ذلك في المقابل يشـــي بما يمكن أن يمثل حماية صينية لمصالحها المتزايدة في إفريقيا، ورغبة فـــي تأمـــين حلفائها الأفارقة فـــي ميدان السياســـة الدولية، لا ســـيما إن كانوا من «الدول المارقة» وفقاً للتعريف الأمريكي.

والفيتـــو الصيني على القـــرارات الدولية فيما يخـــص حلفاء الصـــين، كما في الملفـــين النوويين في كوريا الشـــمالية وإيران دولياً، ومشكلة دارفور الســـودانية إفريقياً، كان حاضـــراً في أروقة الأمم المتحدة وإن لم يتم اســـتخدامه بشكل علني، وحيث يبدو الخناق محكوماً على دول مثل الســـودان؛ فإن الصين تبادر إلى صدارة المندفعين نحو إرسال قوات لحفظ السلام فيه، وإذ شاركت الصين بقوات تصل إلى ثلاثة آلاف جندي في قوات أممية؛ كانت الدول الأولى بالرعاية الصينية هي الأكثر اســـتقبالاً لتلك القوات، لا ســـيما الســـودان الحليف الأكثر أهـمية للصين في الشرق الإفريقي، وقد شاركت بكين أيضاً بقوات أخـــرى في ليبيريا والكونغـــو الديمقراطية ضمن أكثر من عشـــر عمليات لحفظ الســـلام في إفريقيا.

سابعاً: تسكين الخلاف مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية ذات النفوذ التقليدي في أفريقيا:

نجحـــت الصـــين لحد الآن فـــي تقليـــل آثار اقتناصهـــا لبعـــض مفردات النفـــوذ الأمريكي في القارة الإفريقية، لا ســـيما في بلدان رئيســـية مثل الســـودان ونيجيريا وجنوب إفريقيا، وبرغم التعدي الظاهر للصين في هذا المجال؛ فإن كلا البلدين قد تمكنا من احتواء خلافاتهما وتغليب المصالح والمنافع الاقتصادية المتبادلة.

وقد ســـبق أن بلورت الصين والولايات المتحدة الأمريكية، ضمن منتدى آسيا والباسيفيك (إيبيك) الذي يضم إلى جوارهما اليابـــان وكوريا الجنوبية والهند واســـتراليا، شـــراكة اســـتراتيجية لتأمين احتياجات بلـــدان المنتدى من مصادر الطاقة، فيما عُرف بمبادرة «الشـــراكة من أجل تنمية نظيفة»، ما شجع بكين على اســـتمرار سياستها تجاه الولايات المتحدة علـــى الوتيرة ذاتها المتبعـــة منذ ربع قرن، والقائمة على التعـــاون والتنافس معاً، فما «حققته الصين من نجاحات على مستوى تعاملاتها الدولية – علـــى الأقل من وجهة نظـــر قياداتها – هو الذي جعلها أشد تمسكاً بمبادئ سياستها الخارجية التي اتبعتهـــا منذ المؤتمر الثاني عشـــر للحزب في عام ١٩٨٢م، وتماشـــياً مع هذه المبادئ؛ أعاد هوجينتاو تأكيد فكرة ســـلفه جيانج زيمين، والتي أعلن فيها أن الصـــين لا تنوي أن تمارس سياســـات الهيمنة علـــى غيرها من الدول حتى لو أتيحت لها الظروف لذلك»[1].

وإذ تنأى الصين عن مصادمة الولايات المتحدة بشـــكل ســـافر في إفريقيا، والحال أيضاً بالنسبة للأخيرة؛ فإنهما يحافظـــان على حدود للخلافات الاقتصادية بينهما، على الرغم من أن الصين في كثير من الأحيان تهز هيبـــة الولايات المتحدة بإصرارها على مساندة دول كالسودان ضد الحصار الأمريكي عليها، لكنها على كل حال تُبقي تلك المساندة مغلفة بدبلوماســـية متوازنة تعترف فيها للولايات المتحدة بقدر من النفوذ في تلك البلدان.

ثامناً: نشر الثقافة الصينية ونمط الاستثمار الصيني في أفريقيا:

تبســـط الصين أرضيـــة تاريخيـــة للتعاون مع إفريقيـــا، ترتكن إلى أنها وإفريقيـــا تحملان تراثاً مفعماً بالقهر «الاستعماري» الذي مورس ضدهما، وكلاهما لا يريد تكرار تلك الفترة؛ فالصين قد عانت الاحتـــلال البريطاني (مثل بعض بلدان إفريقيا) ثم

(١) د.حنان قنديل (خبيرة في الشؤون الصينية، أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة): التغير والاستمرار في السياسات الصينية.. قراءة في مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني، السياسة الدولية - الأهرام - يناير ٢٠٠٨م.

اليابانـــي، وإفريقيا قد عانـــت منذ قرون الاحتلال البريطاني والفرنسي والألماني والإيطالي والبرتغالي والإسباني.

وتحـــاول الصـــين اســـتثمار علاقاتهـــا غير «الاســـتعمارية» - بحسب سياســـتها المعلنة على الأقل - في التسويق لنمط إدارة صينية في إفريقيا، أسلوب اســـتثمار صيني يجعل إفريقيا دوماً بحاجة إلى خبراتهـــا في هذا الخصـــوص، ويُعد صندوق تنمية الموارد البشرية الإفريقية الذي أنشأته، ويخرّج ســـنوياً نحو ٤٠٠٠ مهني إفريقي؛ إحدى ركائز هذه السياسة؛ إضافة إلى الاتفاقات المبرمة مع عشرات الجامعات الإفريقية لتبادل الخبرات.

كمـــا أن بكين تحاول من خلال حركة الســـفر النشـــطة ما بين الصين وإفريقيا أن تستثمرها في الترويج للغتها الصينية الصعبة إلى حد كبير، والتي هي مع ذلك قد أضحت حلماً لكثير من الأفارقة لا ســـيما في القرن الإفريقي لتحقيق قدر من الثراء، وقـــد أقبل كثيـــرون بالفعل في الســـودان وأنجولا وزامبيا وكينيا على تعلم تلـــك اللغة، وبموازاة ذلك أطلق راديو الصين الدولي في العام ٢٠٠٦م محطة بكينيا تبث باللغـــات المحلية، وقد توجه العديد من الأفارقة للسفر إلى الصين لا سيما خلال المعارض التجارية، فيما بلغت أعداد الصينيين ببلدان الجنوب الإفريقي مئات الآلاف؛ ما أسهم في نشر الثقافات الصينية بين الأفارقة، لا ســـيما في جنوب إفريقيا وزامبيا.

■ نتائج السياسة الصينية في أفريقيا:

برغـــم أنه يصعـــب تحديد هـــذه النتائج بصفة نهائية لاعتبار أن الحراك الصيني لم يزل في بدايته، وأن الخبراء يتوقعون نمـــواً هائلاً للعلاقة الصينية/الإفريقيـــة؛ فإنـــه مـــن الممكن تحديـــد ملامح تلك السياســـة في كونها قد تمكنت من تحقيق جملة من المكتسبات الاقتصادية، والحضور الدولي كقوة دولية قادرة علـــى التأثير على بعد عشـــرات كيلو مترات، والتعامـــل الندّي مع قارة كاملـــة على أرضية التفوق العددي الصيني عليها بما يزيد عن الثلث (يبلغ عدد ســـكان قارة إفريقيا نحو ٨٥٠ مليون نســـمة، فيما يجاوز عدد سكان الصين ١٣٠٠ مليون نسمة).

١. رفع سقف اســـتثماراتها الإفريقية لمستويات قياســـية في فترات زمنية محـــدودة: فعلى الصعيـــد النفطي تدرك بكـــين أنها تعتمد - كغيرها - على نفط الشـــرق الأوســـط الذي تحفه الصراعات، وتقع معظـــم أوراق اللعبة فيه في يـــد الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أوصلت حجم تعاملاتهـــا النفطية مع إفريقيا إلى استيراد ثلث احتياجاتها منها، لا سيما من نيجيريا وأنجولا والسودان.

وقد أضحـــت أنجـــولا أكبر مصـــدر للنفط للصين، حيث تشـــحن إليهـــا ٥٢٢ ألف برميل يوميـــاً، وقد أقرضت الصـــين أنجولا بقرض قيمته ٤ مليارات دولار، يســـتحق السداد من النفط المصدر إلى الصين، وقد تخطت أنجولا الســـعودية في تصدير النفط إلى الصين، كما أن الصين حصلت على حصـــة تبلغ ٤٥٪ في حقل نفطي رئيســـي في نيجيريا (المنتج الأول للنفط في إفريقيا).

وقد تمكنت مؤسسة النفط الصينية من شراء ٤٠ ٪ من أســـهم شركة النيل الأعظم النفطية في الســـودان، والتي تضخ أكثر من ٣٠٠ ألف برميل يومياً، وقامت شـــركة أخرى بمد خط أنابيـــب إلى البحر الأحمر لتســـهيل نقله إلى الصين، وقد حصلت بكـــين على حق التنقيب في أربعة مواقع أخرى من بينها كينيا، وتشارك شـــركات النفط الصينية بـ ٢٠ دولة إفريقية، وعلى امتداد السنوات الخمس الماضية أنفقت هذه الشركات ١٥ مليار دولار على شراء حقول النفط والشركات المحلية.

٢. اقتناص فرص الاستثمار في بعض البلدان ذات النفوذ الأنجلوساكسوني: كالسودان الذي نقبت شركات أمريكية عن النفط فيها، ثم استخرجته الصين مستغلة العقوبات التي وقعتها الولايات المتحدة على السودان إبان حكم الرئيس الأمريكي بيل كلينتون.

وإذ تضع الولايات المتحدة السودان مرتكزاً لاستراتيجيتها القادمة في إفريقيا؛ فإن الصين قد أوجدت لها نفوذاً هائلاً هناك يغل من يد الولايات المتحدة حتى فرنسا هناك، لا سيما مع رغبة الولايات المتحدة في التدخل المباشر في دارفور، والاستثمار في بلدان خارج السيطرتين الفرنسية والأمريكية نوعاً ما كأنجولا، والامتداد في البلدان الاستراتيجية للولايات المتحدة لجنوب إفريقيا ونيجيريا، أو الفرنسية كإثيوبيا وبعض بلدان خليج غينيا كالجابون وغيرها.

٣. توفير أسواق جديدة للسلاح الصيني: (بعقد صفقات لتصدير الأسلحة للعديد من دول القارة، وفي مقدمتها إريتريا وإثيوبيا ومالي وأنجولا وموزمبيق، بلغت قيمتها نحو عشرة بلايين دولار خلال السنوات الخمس الماضية)، والمنتجات الصينية عموماً، والتي نجحت في إغراق السوق الإفريقي بها.

وقد أثار ذلك شكوى دول ناشئة في المجال الصناعي كإثيوبيا، فقد بينت دراسة شملت ٩٦ شركة إثيوبية صغيرة أن «٢٨٪ منها تضطر لإشهار إفلاسها بسبب المنافسة الصينية»[١]؛ نظراً لمناسبتها السعرية للبلدان الفقيرة، وتوفير بديل للدول «الاستعمارية» التي أفشلت بعض مخططاتها في الاستفراد بتلك الدول، والإفادة من أخطاء المنافسين الجسيمة في تعزيز الوجود الصيني في إفريقيا، كأخطاء الولايات المتحدة في نيجيريا (تعد نيجيريا أكبر دولة نفطية في إفريقيا فقيرة؛ لا يجاوز دخل الفرد فيها دولاراً واحداً رغم تدفق عشرة مليارات دولار على الأقل في خزينتها كل عام خلال ربع قرن؛ بسبب الفساد والتدخل الأمريكي)، والبنك الدولي في أنجولا (وفي مطلع عام ٢٠٠٥م اعتقد الصندوق أنه على مشارف إبرام اتفاق تاريخي مع أنجولا، لكن في اللحظات الأخيرة أوقفت الحكومة الأنجولية المحادثات، وأعلنت أنها ستتلقى بدلاً من ذلك قروضاً من الصين لإعادة بناء البنية التحتية؛ بعد أن عرضت الصين عليها قروضاً وائتمانات بقيمة ٥ مليارات دولار دون أي من الشروط التي يفرضها صندوق النقد الدولي)[٢]، وفرنسا في وسط إفريقيا.

■ الاستراتيجية الفرنسية في أفريقيا

لم تزل دول الاتحاد الأوروبي ذات التاريخ «الاستعماري» القديم في إفريقيا هي اللاعب الأول في إفريقيا، ولم تزل فرنسا هي أهم لاعب أوروبي هناك، وهي بذلك تعتمد على إفريقيا كإحدى مرتكزات نفوذها في العالم بما تملكه فيها من علاقات ونفوذ اقتصادي وعسكري وسياسي؛ مكّنها من إطاحة حكام وتنصيب آخرين، لا سيما في بلدان جنوب الصحراء الغربية، وفي الغرب الإفريقي، وأيضاً في منطقة القرن الإفريقي.

تعتمد فرنسا دولياً على كونها قوة دولية نووية تملك نفوذاً هائلاً في إفريقيا؛ ما مكنها من الاحتفاظ بمقعد دائم في مجلس الأمن ليصبح أحد أركان قوتها الثلاثة. ونفوذها الإفريقي هذا مكنها من تشكيل الفرنكفونية، وهو تجمّع الدول الناطقة بالفرنسية، والذي يشمل دولاً إفريقية عدة، لكن هذا النفوذ قد تعرض بقوة إلى الاهتزاز في أعقاب انتهاء الحرب الباردة؛ إذ اتجه الاهتمام الفرنسي،

(١) جوسوا كورلانتزك. مصدر سابق.

(٢) جوسوا كورلانتزك. مصدر سابق.

والأمريكي أيضاً، إلى أوروبا الشرقية التي شكّلت منطقة رخوة لا بد من مد النفوذ الفرنسي إليها؛ ما استتبع انصرافاً فرنسياً عن إفريقيا، سارعت الصين في وقت لاحق إلى ملئه، وإذ فرغت فرنسا من مشكلة أوروبا الشرقية حتى استوعبتها الأوروميتوسطية والتعاون مع بلدان الشمال الإفريقي؛ مما أدى إلى انخفاض حجم التجارة مع إفريقيا إلى نحو ٥٪ في التسعينيات قبل أن تحاول فرنسا استدراك الغزو الأمريكي والصيني لمناطقها.

على الصعيد الصيني؛ تجنبت الصين مناطق النفوذ الفرنسي نسبياً؛ قياساً لانسيابها في بلدان تُحسب على الولايات المتحدة وبريطانيا، لكن الولايات المتحدة نجحت في تغيير الكفة لصالحها في إثيوبيا، وإريتريا، ورواندا، وأوغندا.

ويلاحظ أن فرنسا بخسارتها لهيمنة الهوتو في منطقة البحيرات العظمى، قد تراجعت لحساب قبائل التوتسي التي تحظى بدعم الولايات المتحدة، وينتمي إليها رئيس أوغندا ورواندا وغيرهما.

وقد أسفر سقوط نظام الرئيس الراحل موبوتو سيسي سيكو، المدعوم من فرنسا لحساب الرئيس الراحل لوران كابيلا في الكونغو الديمقراطية، عن تحول سلبي في اتجاه هيمنة فرنسا القديمة.

■ **وتتلخص الاستراتيجية الفرنسية في عدة محاور رئيسية هي:**

أولاً: العمل على استرجاع ممتلكاتها الرئيسية في أفريقيا:

ويلاحظ أن إرسال فرنسا لقواتها تعزيزاً لنظام إدريس ديبي ضد حركة التمرد في العام ٢٠٠٨م؛ قد أسفر عن الإبقاء على النفوذ الفرنسي أو استرجاعه، لكن هذا النفوذ لا يتصادم فقط مع الأمريكيين والصينيين المتمركزين على مقربة من منابع النفط واليورانيوم في دارفور؛ «إذ طبقاً لاتفاقيات عسكريّة مع اندجامينا وبانغي (جمهورية إفريقيا الوسطى)؛ تحافظ فرنسا على وجود عسكري يشتد انتقاده من المعارضات المحليّة. فالتشاد وإفريقيا الوسطى ضحيّة صراعات داخلية، وهي أيضاً تتأثّر بنتائج أزمة الدارفور. وستكون فرنسا هي الرافد الأساسي لقوّات السلام الدولية التي ستنتشر في المنطقة»[١]، فالانتقادات من داخل الاتحاد الأوروبي أضحت أكثر ظهوراً مع رغبة لدى الاتحاد الأوروبي في لعب دور أكبر في هذه المنطقة الغنية بالنفط واليورانيوم والماس.

وقد لاقت حملة الإبادة التي نفذتها القوات الفرنسية ضد السكان المحليين في إفريقيا الوسطى في العام ٢٠٠٧م انتقادات من حلفائها الأوروبيين؛ برغم أنه في النهاية قد سلّموا للفرنسيين بـ «إرسال قوات فرنسية ترتدي ملابس قوة التدخل السريع الأوروبية (يوروفور)[٢]، لتنتشر في مناطق شرق التشاد وشمال شرق جمهورية إفريقيا الوسطى، أي قُبالة إقليم دارفور السوداني»[٣]، وذلك بعدما نفذت السلطات الفرنسية جرائم حرب عندما وقفت فرنسا إلى جانب ديكتاتور إفريقيا الوسطى، وساهمت في ارتكاب مذابح إلى جانب السلطات الحكومية ضد المدنيين[٤]، وهي التي ألمح إليها تقرير هيومان رايتس ووتش للعام ٢٠٠٧م.

من هنا يبدو أن فرنسا قد أخطأت حيث أرادت أن تسترجع بعض ممتلكاتها السابقة؛ إذ أوقفتها هذه الأحداث عند حد الوضع السابق لها كقوة «استعمارية»، ولم تتمكن هي ذاتها من تبييض وجهها بالرغم من مساعي بعض ساستها، في ظل مرحلة تنافسية لن تكون فيها فرنسا وحدها، حتى

(١) فنسان مونيه: إفريقيا الوسطى.. استراتيجية فرنسية ورهانات إقليمية. ليموند دبلوماتيك - فبراير ٢٠٠٨م.

(٢) تشكلت قوّة «يوروفور» في تسعينيات القرن الماضي من قوات فرنسية وإيطالية وإسبانية وبرتغالية؛ للتدخل في المنطقة المتوسطية.

(٣) رشيد خشانة: الشرطي الأوروبي يُوسّع منطقة العمليات من المتوسط إلى إفريقيا. سويس إنفو - ٢٠٠٨/٢/٢٠م.

(٤) يوهان هاري: فرنسا داخل الحرب السرية. الإندبندنت ٢٠٠٧/١٠/٥م. وهو تقرير يجسد بجلاء المشاركة الفرنسية في حرب إفريقيا الوسطى.

في مستعمراتها السابقة، وقد اضطرت فرنسا إلى مناقضة نفسها بعدما أعلنت عن مشروع إفريقيا في العام ١٩٩٧م، والقاضي بتأييد إقامة أنظمة سياسية جديدة في الدول الإفريقية وفق مبادئ الديمقراطية التي حاربتها هي في وسط إفريقيا.

ثانياً: الشراكة الاقتصادية:

على الرغم من أن وزراء مالية الدول الأعضاء في منطقة الفرنك الإفريقي التابعة لفرنسا، وتضم ١٦ دولة إفريقية جنوب الصحراء وغرب إفريقيا، قد أكدوا في اجتماعهم في الأسبوع الثاني من أكتوبر ٢٠٠٨م أن منطقتهم «لم تطلها حتى الآن انعكاسات الأزمة المالية الأمريكية الحالية»[١]، إلا أن ذلك لم يعن أن فرنسا نفسها في وارد ضخ المزيد من المساعدات من أجل جذب الاستثمار إليها، وهذا الاستثمار نفسه قد تراجع مع ظهور دول نفطية كبيرة في إفريقيا؛ جعلت من «إفريقيا الفرنسية» جزءاً هامشياً على الصعيد الاقتصادي في القارة، يقول صاحب كتاب (إفريقيا بدون فرنسا) عن «إفريقيا الفرنسية»: «إنها لا تمثل إلا ١٣٪ من سكان القارة، وثقلها الاقتصادي لا يكاد يُذكر، فدول منطقة الفرنك الإفريقي لا تزن أكثر من نيجيريا من حيث الناتج المحلي الخام»[٢].

هذه الشراكة تأثرت سلباً مع تراجع معدلات النمو في فرنسا ذاتها، والتي أدت إلى انكفاء داخلي لم يجعل من باريس قادرة على منافسة التدفقات المالية القادمة من الصين والولايات المتحدة الأمريكية في القارة الإفريقية، والتي تقع معظم حقول النفط الرئيسية في بلدان غير فرنكفونية.

أما الفرنكفونية ذاتها، (معبر فرنسا إلى ثروات إفريقيا)، فقد تأثرت كثيراً بالتراجع الاقتصادي في الداخل الفرنسي؛ إذ يتحدث كامبردج بوك ريفيوز عما يسميه «طلاق النخب»؛ ملاحظاً أن فرنسا التي تكوّنت فيها كل نخب إفريقيا الفرنكفونية لم تعد اليوم وجهة النخب الإفريقية، كما كان لتأسيس الجامعات الإفريقية دور رئيسي في تكوين النخب محلياً، لكن الطلاق بين النخب يرجع في رأيه إلى سياسة التأشيرات المتشددة التي تمارسها فرنسا حيال الطلبة الأفارقة، مما جعل النخب الإفريقية تتوجه اليوم إلى كندا والولايات المتحدة، وهنا يتساءل عن مصير الفرنكفونية خاصة مع الشعور المتنامي في أوساط النخب الفرنكفونية بأن المعنيين الأوائل (أي الفرنسيين) بتطوير اللغة الفرنسية لا يعيرونها أهمية[٣].

ثالثاً: تقليص القوات العسكرية لحساب الشراكة الاقتصادية:

عقدت فرنسا عدة اتفاقات للتدخل السريع في إفريقيا بغية التقليل من حجم قواتها في إفريقيا؛ إذ قامت «باطراد بتخفيض عدد الأفراد العسكريين من ٦٠٠٠٠ في الماضي، إلى نحو ١٠٠٠٠ في أوائل عام ٢٠٠٧م»[٤]، لكن فرنسا ظلت مع ذلك متورطة في العديد من الصراعات الداخلية التي جعلتها تفقد المزيد من نفوذها في إفريقيا، كما في «اثنين من الحوادث الهامة في رواندا؛ حين قدّمت فرنسا الدعم السياسي والعسكري لجوفينال هابياريمانا حتى النهاية في أبريل ١٩٩٤م، وعدم قيامها بما يلزم لوقف المجازر التي راح ضحيتها ٨٠٠ ألف ضحية، وفي نوفمبر ٢٠٠٤م حين شاهد الناس على شاشات التلفزة الجنود الفرنسيين وهم يطلقون النار على المتظاهرين في أبيدجان بساحل العاج، وتورطها في الصراع؛ قد أدى إلى الإضرار بوضع فرنسا في إفريقيا»[٥].

وعند عقد مقارنة مع الصين التي تجني صفقات مهمة في إفريقيا دون إراقة دماء، وفرنسا المتورطة دوماً في الصراعات العسكرية الإفريقية؛

(١) المنظور الإفريقي ٢٠٠٨/١٠/١٤م.
(٢) كامبردج بوك ريفيوز: إفريقيا بدون فرنسا. استعراض الجزيرة.
(٣) المصدر السابق.
(٤) اندرياس ميلر: ابحث في فرنسا عن إفريقيا السياسة الجديدة - فصلية إنترشيونال بوليتيك جلوبال إيشين (عن ديرشبيجل الألمانية - النسخة الإنجليزية ٢٠٠٨/١١/٤م).
(٥) المصدر السابق.

يتبين كم تخسر فرنسا وكم تربح الصين، ففرنسا «قد تدخّلت عسكرياً في إفريقيا ١٩ مرة في الفترة ما بين ١٩٦٢م و ١٩٩٥م، وتواجدت في تشاد بـ ١٢٠٠ جندي (..) لدعم حكومة ديبي، وتحتفظ بـ ٣٠٠ جندي في إفريقيا الوسطى (..)، وتنشر ٣٠٠٠ جندي في ساحل العاج»[١].

وأخيراً؛ تبدو الصين عازمة على العبور إلى إفريقيا من بوابة الاقتصاد والشراكة، وفرنسا لم تزل متورطة في صراعاتها العسكرية، وإن بدت في عهد ساركوزي في وارد التعويل على إفريقيا هي الأخرى، لا سيما بعد أن أخفقت الأوروموتوسطية إلى حد كبير في بلوغ أهدافها، وخروجها من العراق دون تعويض يُذكر في الصعيد النفطي، وشعور ساستها بالمرارة إزاء التمدد الأمريكي على حسابها، وهذا الأخير يشعر أيضاً أنه قد تلقى صفعات قوية من الصين في السودان الذي نقبت الولايات المتحدة عن النفط فيه؛ فعملت الصين على استخراجه! وضغطت عبر الصندوق الدولي على أنجولا؛ ففكت الصين وغيرها من الأقطاب الصاعدة رهانها، وشاطرت الأمريكيين الكعكة النيجيرية، وزاحمتها تجارياً في جنوب إفريقيا.

وفي كل ذلك؛ تتقاطع الاستراتيجيات أحياناً أو تتنافس، وربما تتصارع، لكنها كثيراً ما تدور في معطيات الدراسات حول الأسباب المتعلقة بالاقتصاد والعسكرية والسياسة، وتغيب كثيراً جوانب أخرى لا تقل - بل تزيد - في أهميتها عن كل هذه الأركان؛ إذ يبدو الدين حاضراً في كثير من الصراعات؛ وإن حرص «الاستعمار» القديم والجديد على تغييبه لكتم المشاعر دون حد النهب والاستعباد، لكن التقرير الاستراتيجي الإفريقي للعام ٢٠٠٦م/٢٠٠٧م رصد جانباً خفياً من المشهد، حيث خلص فيه الباحثون إلى رصد «الزيادة السريعة والمطردة للمسلمين بها»، ويؤكدون أن «الإسلام يمثل قوة زاحفة من شمال القارة إلى جنوبها بصورة لا يعرفها أي دين آخر في العصر الحالي، كما لا يعرفها الإسلام نفسه حالياً في أي قارة أخرى».

ومن أكثر الأشياء خطورة في دلالتها استشهاد الباحثين في التقرير بدراسات غربية؛ تثبت «أنه من بين كل عشرة أفراد يعتنقون ديناً سماوياً عالمياً؛ يعتنق تسعة منهم الإسلام، ويعتنق واحد فقط المسيحية، وهذا أوضح في إفريقيا»[٢]، وهذا معطى لا يمكن لأي باحث مسلم أن يهمله عند الحديث عن تنافس الاستراتيجيات في إفريقيا.

إن الأمر لا يتعلق فقط بثروات، بل بديموجرافية خطيرة في حسّ الغرب، ربما دعت مراكز النفوذ القوية في الولايات المتحدة إلى جلب رئيس أسود إفريقي ليكون عنوان العقد القادم، والذي ستكون فيه إفريقيا القارة المرشحة للاستثمار والتدجين

(١) اندرو هانسن: العسكرية الفرنسية في إفريقيا، موقع مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي - ٢٠٠٨/٢/٨م، والخريطة المرفقة من المصدر نفسه.

(٢) التقرير الاستراتيجي الإفريقي ٢٠٠٦/٢٠٠٧م - الجزء الرابع.

وإحـــراز الأوراق، الســـهلة أحياناً، وهذا يفســـر اتجاهات الرأي العام في دوائر صنع القرار الغربي تحديـــداً، وهي إن لم تصارع الصين عســـكرياً في إفريقيـــا بالرغم من مطامعها الضخمة؛ فإنها تقف حيال كل نهضة إسلامية أو عربية في إفريقيا، ولا أدل من استماتتها المزمنة في إيقاف مساعي إعادة الصومـــال ليكون دولة إســـلامية كبرى في المنطقة الاســـتراتيجية المهمـــة (القرن الإفريقـــي)، إذا ما استرد عافيته، واستعاد مناطقه السليبة في كل من إثيوبيا وكينيا، ليصبح الدولة الأكثر أهمية في القرن الإفريقي، وعلى مشارف بحر العرب، وأهم الطرق البحرية، واســـتغل ثرواته الحيوانية والبحرية؛ على الوجه الذي يؤهله ليكون صاحب دور وكلمة في هذه المنطقة المهملة إسلامياً والمعتبرة عالمياً.

وإذ توضع الاستراتيجية الأمريكية على طاولة البحث فيما يخص القرن الإفريقي، يهول الباحثين مشـــرط الجراح الدقيق الذي اســـتبعد الســـودان والصومال من الدول الرئيسية لهذه المنطقة الممتدة حتى البحيرات العظمى.

ولا حاجة للتذكير بأهمية السودان الاستراتيجية الكبرى فـــي عمـــوم إفريقيا، لكنـــه كدولة عربية وإفريقية وإســـلامية مرشـــحة لكي تكون الأساس في الامتداد التوعوي الإســـلامي، وها هي مصابة بالشلل جراء تنوع الضغوط الغربية عليها.

وحيث يتحـــدث الخبـــراء عن نفـــط دارفور واليورانيوم الخـام بها (وتشـــاد أيضاً)، وهو الوقود المرشـــح للصمود بعـــد نضوب النفـــط بعد عقود، يضربـــون الذكـــر صـفحاً - أو هكـــذا تبعد عنهم مصادر المعرفة - عن الثروة الحقيقية المخبوءة في دارفور.. إنه إقليم دارفـــور أو (أهل القرآن) الذي يحوي عدداً هائلاً من حفظة كتاب الله الذين يحتاج إليهـــم ٩ من كل ١٠، كما تقدم، يدخلون الإســـلام مـــن المتحولين من «دين» إلى «آخر» في العالم، وفي إفريقيا على وجه الخصوص.

وحـــين تميل الولايـــات المتحدة إلى التوتســـي وتسمح بجرائم تنال من المسلمين في قبائل الهوتو؛ فهي تشـــرعن لســـيطرة توتســـيوية علـــى مناطق البحيرات العظمى.

والأهـــم من كل هـــذا، أنه حـــين عملت الدول الغربية بكل جَلد على فصل الشمال الإفريقي عن الدول المتاخمة له، ومنع العرب المسلمين من القيام بدورهم المنوط بهم في ترشـــيد مسلمي إفريقيا، أو التواصل مع الوســـط والغرب الإفريقي ذي الغالبية العالية إســـلامياً، لم تتبلور أية محاولة جادة للعودة إلـــى الريادة في إفريقيا، تلك التـــي كان يتمتع بها العرب فـــي عهود ما قبل «الاســـتعمار»، وحيث لم تكن هناك رغبة في معاودة استراتيجية بنّاءة كهذه، فإن على الباحثين تطويع الإرادة الشـــعبية العربية والإسلامية باتجاه النظر إلى إفريقيا كقـارة لم تزل تحمل الأمل على الصعيـــد الدعوي، وكذلك على مستوى الشراكة الاقتصادية التنموية.

إن الأمـــوال العربية التي تبخـــرت في أزمات البورصـــات المتعاقبة، إذا ما أتيح لمثلها أن تتجه إلى اقتصاد راشد في إفريقيا التي تتمتع بثروات مخبوءة لا حصر لها، لأمكـــن أن يخرج العرب من تبعيتهم، ولو كان على الاقتصاديـــين أن يقولوا قولتهم، فإن الاســـتراتيجية العربية في غياب الجهد والفعالية الرسمية في كثير من البلدان العربيـــة، هو حـــق قد منحته الشـــعوب العربية وأثرياؤها، ولا خيار إذن بين الاســـتنزاف المتوالي للأموال العربيـــة، أو الاتجاه شـــعبياً إلى الاســـتثمارات الجادة الواعدة في قلب إفريقيا المســـلمة، حيث المعوقات كثيرة لكنها ليست حائـــلاً دون العمل على تجاوزها، فليســـت هي في النهاية قدراً مكتوباً على المســـتثمرين الراغبين في الثراء الســـريع والجاد، بل ثمة ما يمكن القفز منه، والإفادة من التنافس الدولي الحار في إفريقيا في إفادة المسلمين، ورفع مستوياتهم المعيشية في داخل إفريقيا وخارجها.

رئيس الجمعية الإسلامية للإصلاح في مالي

(الشيخ : أبوبكر كمارا) ..

في حوار مع مجلة قراءات أفريقية

إعداد مجلة قراءات أفريقية

مجلة قـراءات: نرحـب بفضيلتكم في هذا اللقاء، ونـود أن نقدم في البدء نبذة موجزة عنكم لقرائنا الكرام.

الاسم أبو بكر كمارا، من مواليد عام ١٩٥٢م في باماكو بجمهورية مالي.

دخلت الكتَّاب وعمري ســت سنوات، وختمت القرآن الكريم، ودرست كتب الفقه المالكي في بلدة يوري في إقليم (كاي)، وفيما بين ١٩٦٧م - ١٩٧٠م التحقت بمدرســة الاتحاد في مدينة براولي إقليم (سيكو)، حيث درست المرحلة الابتدائية وجزءاً من المرحلة الإعدادية، وفي عــام ١٩٧٢م حتى ١٩٧٦م عملت مدرســاً ونائباً للمدير في مدرســة الثقافة الإسلامية في باماكو.

وفي عام ١٩٧٦م التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودرست المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية والدراسات العليا حتى ١٩٨٦م، وكنت في هذه المدة نفســها عضواً فــي مكتب رابطة طلبة مالي في الســعودية، وشاركت في تنظيم أعمــال الحج مع البعثة الرســمية للحجاج في السعودية.

وفــي المدة من عام ١٩٨٧م حتــى ١٩٩٠م عملت مرشــداً دينياً في مســاجد أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، كما عملــت فيها أيضاً إماماً وخطيباً بالتعــاون مــع آخرين لمدة ســنة، وعملــت في مجال التدريس في المعاهد والمدارس الإسلامية في باماكو.

وفيمــا بــين ١٩٩١م وحتى ٢٠٠٢م شــاركت وترأست دورات وملتقيات وندوات في دول مختلفة (توجو، موريتانيا، غانا، السعودية، السنغال، ساحل العاج، مالي، نيجيريا).

أما الآن فأمارس العديد من الأعمال، ولي كثير من المشاركات في جوانب متعددة، ومن ذلك:

- مؤسس ومدير عام معهد العلوم الإسلامية في باماكو.
- رئيس الجمعية الإسلامية للإصلاح.
- الأمين العام لرابطــة الأئمة والعلماء للتضامن في مالي.
- عضو المجلــس الأعلى الإســلامي في مالي،

والمقرر في مكتب العلماء بالمجلس المذكور.

- نائب مدير مكتب المنتدى الإسلامي في مالي (سابقاً).
- الأمين العام لرابطة الدعاة سابقاً، وعضو لجنة الدعوة والبحوث حالياً.
- أمين لجنة الصحافة والإعلام للاتحاد الوطني للمدارس الإسلامية في مالي.
- المشرف على الإذاعة الخاصة (إذاعة دامبي) – الفضيلة – في باماكو، وأحد مؤسسيها، ورئيس مجلس الإدارة.
- مشرف على دروس المساجد.
- مشارك في دروس التلفاز والإذاعة الوطنية في باماكو.
- رئيس لجنة الفتوى في إذاعة دامبي – باماكو.
- مشارك في دروس الإذاعة الإسلامية (صوت القرآن والحديث) في باماكو.
- إمام وخطيب المسجد الجامع في جيليبوكو.
- أما في جانب البحث والتأليف فهناك بحث التخرج في كلية الشريعة، وهو بعنوان (العموم والتخصيص عند الأصوليين)، ورسالة الماجستير في الفقه المقارن بعنوان (اللقيط وأحكامه في الشريعة الإسلامية).

وهناك أيضاً عدد من المؤلفات التي قدمتها في مجالات متنوعة؛ مثل: حكم المسبوق في الصلاة، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، الطرق المثلى للتعامل مع الصوفية، أثر التقوى في العبادات والمعاملات، الدعوة والدعاة في مالي، خواطر حول الملتقيات الماضية، سمات المجتمع في غرب أفريقيا، الإسلام في مالي، فتاوى أسبوعية في الإذاعات وعلى الهواء مباشرة.

مجلة قراءات: كيف دخل الإسلام مالي؟ وما المراحل التي مر بها حتى عصرنا الحاضر؟

يذهب كثير من الكتاب والمؤرخين إلى أن الإسلام دخل مالي مع وصول الفاتح العظيم عقبة بن نافع والياً للمرة الثانية على المغرب سنة ٦٢هـ، أي في القرن الأول الهجري، وذهب آخرون إلى القول بأنه دخل في القرن الخامس الهجري، ويمكن الجمع بين القولين بأن دخول الإسلام في القرن الأول الهجري كان في صفوف العامة، وأما الانتشار الفعلي للإسلام فكان في القرن الخامس الهجري حين أصبح الإسلام دين الدولة والسلطان، وذلك بعد أن أسقط المرابطون إمبراطورية غانا.

وهناك روايات تذكر أن الملك (تيبو تان) كان شديد الاجتهاد في نشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين، وقد اعتنق الإسلام عام ٨٣٧ م تقريباً، ولكن الملك الذي كان لإسلامه شهرة هو (واري جابي) الذي توفي عام ٤٣٢هـ الموافق ١٠٤٠م.

ومما يدل على أن الإسلام كان موجوداً في إمبراطورية غانا قبل إسلام ملوكها، أقصد على القول الأول، ما ذكره البكري الذي توفي عام ١٠٩٤م، وهو من المؤرخين الذين زاروا الإمبراطورية، قال: (ومدينة غانا مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً، أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة، منها يشربون، وعليها يسقون الخضروات.

ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة، والمساكن بينها مفصلة، ومبانيها من الحجارة وخشب السنط، وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات تسكن فيها السحرة، ويقيمون دينهم فيها).

وبقي الأمر كذلك حتى مجيء الاستعمار الغربي ولم يعد الإسلام دين دولة، ومن ثم استولت الصوفية على العوام وصار للإسلام بينهم شكل آخر.

أما التوجه السـلفي فقد بدأ في الظهور بعد عودة مجموعة الإخوة الأربعة من الأزهر، وتوالى وصول مشايخ آخرين من بلاد الحرمين الشريفين، ومع وفود الحجاج.

وفي ١٩٤٧م وقعت مصادمات دموية بين أهل السنة وغيرهم، ثم هدأت الأمور بتكوين جمعية مالي للاتحاد، وهي تضم جميع الطوائف الدينية من أهل السنة وغيرهم، ثم توالى وصول الخريجين من الجامعات الإسلامية بعد عام ١٩٨٠م، ودخلت الحركة في أبعاد أخرى.

ومنذ عام ١٩٩١م حدثت تغيرات سياسية واجتماعية في البلاد، وتأسست جمعيات إسلامية عديدة، وبلغ عدد الجمعيات التي تعترف بها الحكومة ١١٤ جمعية إسلامية، ومع اكتساب القائمين على هذه الجمعيات خبرة بالواقع والعمل الميداني والمؤسسي؛ رأوا أهمية وجود مؤسسة تجمع بينهم، فقاموا بإنشاء رابطة الأئمة والعلماء في مالي، بهدف التنسيق بين أعمال جميع الأئمة، وتسهيل الاتصال بينهم، وتهيئة الأجواء لتحقيق مبدأ التشاور في أعمالهم، والترفع عن الخلافات المذهبية لتحقيق وحدة المسلمين، كما تم إنشاء المجلس الأعلى الإسلامي في مالي، وهي جمعية ذات صبغة حكومية، تهدف إلى إيجاد حلقة وصل بين الحكومة والمسلمين.

وعلى الرغم من الأحوال الجيدة للمسلمين في مالي الآن؛ فإن التغيرات السريعة والغامضة تفوق مستوى تفكير كثير منهم ومستوى إدراكهم؛ وهو ما يوقعهم في دائرة استغلال أعدائهم، والساحة هناك كالأرض الموات من أحياها فهي له، ولا تحقيق لمصلحة إلا لمن اغتنم الفرصة.

■ **مجلة قراءات: كان لمحضن العلم (تمبكتو) دور بارز في نشر العلم وتخريج العلماء؛ فما واقعه الآن؟ وكيف يقرأ فضيلتكم مستقبل الحراك العلمي في مالي في وقتنا الراهن؟**

في الماضي كانت مدينة تمبكتو محضناً للعلم ومركزاً ثقافياً ومثالاً حضارياً، واشتهرت بنشر العلم وتخريج العلماء، وآلاف المخطوطات في مركز أحمد بابا والمكتبات الخاصة دليل على ذلك، ولكن الاستعمار الغربي خاف من هذا الواقع، فوضع خططاً محكمة لتغريب المدينة ثقافياً وعلمياً، فأسسوا المدارس الفرنسية الثابتة والمتنقلة، وخصّصوا لذلك مبالغ ضخمة، وبذلوا جهوداً جبارة، وفي النهاية نجحوا في تحقيق أهدافهم، حتى لا تكاد تجد مواطناً الآن في تمبكتو إلا ويجيد اللغة الفرنسية، ومما زاد الطين بلة تحويل تمبكتو إلى مدينة سياحية، وهو ما له تأثير كبير في الأخلاق والعادات والأعراف.

ولكنّ الله غالب على أمره، ففي عام ١٩٨٢م بدأ إنشاء معهد الهجرة التربوي في تمبكتو، وهو كسائر المعاهد التكوينية يهدف إلى تخريج معلمين، وتم افتتاحه في ١٩٩٦/٢/٢م، وتُقدر مساحة هذا المعهد بنحو ١٠ هكتار، وهذا المعهد فريد من نوعه في عصرنا هذا، بل هو أول معهد تربوي وتكويني عربي أُسس في أفريقيا.

وأرى أن هذا المعهد من المقومات التي يجب علينا المحافظة عليها والاهتمام بها، ولكن لا بد من العناية بالمنهج حتي يحقق الغرض المنشود منه.

وفي رأيي أن الحراك العلمي في مالي في وقتنا الحاضر يدعو إلى التفاؤل، ويؤذن بمستقبل جيد، وهناك العديد من الشواهد والمظاهر التي تدل على ذلك، فهناك صحوة علمية تشهدها المساجد، حيث تُعقد حلقات علمية ودروس متواصلة، وتزايد عدد المدارس الإسلامية، والاهتمام بتعليم الكبار، وخاصة في صفوف النساء، ووجود حلقات تحفيظ القرآن، وإذاعات إسلامية خاصة، وبرامج إسلامية في الإذاعات الحرة الخاصة، وإجراء المسابقات العلمية والطلابية، وتتابع تدفق الخريجين من الجامعات، وظهور جيل من الباحثين، ووجود نادي الثقافة والأدب، وكثرة عقد الندوات الهادفة، وحلقات تفسير القرآن في كل أنحاء مالي وخاصة في رمضان، واستعمال العديد من الدعاة لشبكة المعلومات (الإنترنت) علمياً ودعوياً.

ولكن أرى أن هذه المشـــروعات والنشـــاطات تحتاج إلى دراسة واقعية وتقويمية مستمرة، لتقديم النصائـــح والإرشـــادات المنهجية، حتـــى لا تخطئ الطريق ويضيع المسار.

■ مجلة قراءات: يلاحظ وجود انحسار ظاهر في انتشار اللغة العربيـة في أفريقيا؛ فما مظاهر ذلك الانحسار؟ وما أسبابه؟ وكيف يتم تجاوزه؟

اللغة العربية لغة القرآن الكريم الذي أنزله الله – تعالى – لهداية البشـــرية وسعادتهم في الدارين، ولا يخفى على مطلـــع في التاريخ ما ذاقه الأفارقة مـــن ويلات عبر تاريخهم، وبمجيء الإســـلام الذي يخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس، وجد الأفارقة مبتغاهم وسعادتهم في الإسلام، ومن ثم اهتمـــوا باللغة العربية حتى أصبحت لغة الإدارة لمعظم هذه البلاد.

ويمكن أن نلخص التغيرات التي مرت بها اللغة العربية في أفريقيا في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولـــى: مرحلة الازدهار والتطور: وتبدأ من دخول الإســـلام المنطقة إلى ما بعد دخول المحتل الغربي، وكانت اللغة العربية في معظم هذه البلاد لغة الإدارة والتعليم، وعلى الرغم من كره المحتلين الغربيين الشديد لها، فإنهم لم يتمكنوا من زحزحتها عن الأعمال الإدارية إلا بعد فترة طويلة من عهد الاحتلال.

المرحلـــة الثانية: مرحلة الركـــود والانحطاط: وتبدأ من سبعينيات القرن الماضي.

المرحلة الثالثة: مرحلة الإحياء والبعث: وتقـوم هذه المرحلة الآن على جهود الأفراد في شكل مدارس خاصة، وعلى جهـــود حكومية تتمثل في جعل اللغة العربية لغة ثانية في المراحل الثانوية، وإنشاء قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة باماكو.

وهناك محاولات جـــادة من قبل دولة الإمارات العربية المتحدة لفتح كليات عربية في جامعة باماكو تحت إشراف حكومي.

وتتمثل مظاهر انحسار اللغة العربية في أفريقيا عموماً في تهميش خريجي اللغة العربية في بعض الدول، والتظاهر بعدم حاجة بلاد بعضهم إلى هذه الشـــهادات، وغياب العربية في وسائل الإعلام إلا قليلاً، وعدم التخاطب بها إلا في نطاق ضيق.

ومن أهم أسباب هذا الانحسار أن المسلمين لا يتقنون لغة الإدارة في بلدانهم، وليس لهم مشـــاركة عملية في حل المشكلات، وقصور المناهج عن تغطية المهارات المختلفة للمســـلم، مما يؤدي إلى شـــعوره بالدونية، ومشـــكلة المســـتقبل التوظيفي لخريجي المدارس الإسلامية، ومشكلة تمويل المدارس (مبان، مقررات، أجور المدرسين ... إلخ)، ومعظم المعلمين ليس لديهم إلمام بطرق التدريس.

وفي رأيي أنه يمكن تجـــاوز ذلك بتعديل المناهج الدراســـية، وطرق التفكير، ودراســـة اللغة الرسمية بتمكن، وشمولية المنهج، وفتح باب التخصص، وتربية روح الاجتهاد والتفكير الإبداعي في نفوس الطلاب.

■ مجلـة قـراءات: لفضيلتكـم اهتمـام خاص بالتعليـم العـربي الإسـلامي في مـالي، فما توصيفكـم لمشـكلة المناهـج في المـدارس العربيـة الإسـلامية؟ وهـل مـن مقترحـات لتلافيها؟

أحمـــد الله – ســـبحانه وتعالـــى – أن وفقني أنـــا وغيري في القيـــام بمحاولات لنشـــر التعليم الإسلامي، وهذا واجب على كل مسلم ومسلمة بقدر طاقته؛ ولأني أرى أن خير وسيلة للدعوة الصحيحة والتربية الحســـنة هي وجود مؤسسة تعليمية؛ فقد تم إنشاء مؤسسة تعليمية بلغ عدد المدرسين بها ٥٠ مدرساً، وعدد الطلاب ١٣٠٠ طالب وطالبة، وتضم الآن المراحل الدراسية الآتية:

روضة الأطفال، الابتدائية، الإعدادية، الثانوية، قســـم تحفيظ القرآن الكريم، تعليم الكبار وخاصة تعليـــم النســـاء، الخياطة والتطريز للبنات، قســـم الحاســـوب قريباً بإذن الله، وأرجو من الله التوفيق

والقبول، وأشكر في هذه المناسبة كل الذين أسهموا في دعم هذه المؤسسة.

أمـا المناهـج، فالمقصـود بالمنهـج التربوي والتعليمـي ذلـك الطريق الواضح الذي يسـلكه المربـي أو المدرس مع من يربيهم أو يدربهم لتنمية معارفهم ومهاراتهم واتجاهاتهم، ولا يصح أن يهتم المنهج بنقـل التراث الثقافي فقـط إلى الأجيال الصاعدة، وإنما ينبغي له أن يهدف إلى إكسـابهم المهارات اللازمة للتعامل مع المشكلات التي تعترض حياتهم، وأن يراعي تربية جوانب الإنسـان كلها؛ حتى يكون المنهـج مناسباً وفعالاً، فالله - سبحانه وتعالى - جعل في الإنسان العقل والروح وغرائز الجسد، وحدد معالم تربوية لإشباع هذه الجوانب والغرائز كلها، ولا تسـتقر حياة الإنسان إلا بهذا التوازن، وإلا أصبح الإنسـان معوجـاً أو معوقاً، وبناء على ذلك فالمناهج في المدارس الإسـلامية ينبغي لها أن تأخذ في تقديرها الجوانب المختلفة للإنسان؛ من حيث الهدف والوسائل وحاجة البلاد واعتبار الواقع.

وقد كانت المدارس الإسـلامية في مالي على كثرة عددها وانتشـارها مختلفة المناهج، ولهذا تم وضع منهج موحد للمدارس الإسـلامية العربية من قبل وزارة التربيـة والتعليم في عام ١٩٨٥م، وذلك بالتعاون مع مديري المدارس العربية الإسلامية في مختلف الأقاليم للمرحلة الابتدائية والإعدادية.

وفي عام ١٩٩١م تم وضع منهج مقترح للمرحلة الثانوية في مالي، وفي عام ١٩٩٩م أقامت الحكومة ندوة وطنية حول المدارس العربية الإسـلامية في مالي، وكان الهدف الرئيس لهذه الندوة هو الوصول إلى أفضل صورة لدخول المدارس الإسـلامية في نطاق التعليم الرسمي للبلد.

وفي عـام ٢٠٠٢م بدأ تنفيذ المنهج الجديد في معظم هذه المدارس، حيث تقـوم الحكومة بإجراء امتحان الشـهادة الابتدائية والشـهادة الإعدادية للمدارس، علماً بأنه قد تم وضع مقررات دارسـية وطبعتها الحكومة للمدارس العربية الإسلامية.

وسـيتم إن شـاء الله إجراء امتحان الشهادة الثانوية للمدارس العربية الإسلامية في العام القادم لكي يتسـنى لهؤلاء الطلاب الالتحاق ببعض كليات جامعة مالي الحكومية، كما يتسـنى لهم الالتحاق بالجامعات العربية الإسلامية بإذن الله.

ولكـن يبقى على القائمين علـى هذه المدارس مسـؤولية المحافظة على الهدف الـذي من أجله أُنشئت هذه المدارس.

■ مجلة قراءات: ما أبرز مجالات العمل الدعوي المعاصر في مالي؟

هناك نشـاطات دعوية كثيرة بارزة في العديد من مجالات الدعوة المعاصرة في مالي، تسـتهدف جميع الفئات، وخصوصاً الشباب والمرأة والمثقفين، ومنها على سبيل المثال: إنشاء المؤسسات التعليمية، وبناء المسـاجد، وتنظيم الدروس والحلقات العلمية والمحاضرات والندوات والخطب، وحلقات تحفيظ القـرآن، والقوافـل الدعوية والإغاثيـة والطبية، وتوزيع الكتب العلمية (العربية والمترجمة)، والدعوة في الحج، والدعوة عبر الوسائل الحديثة مثل شبكة المعلومات الدولية (الإنترنـت)، والتلفاز، والإذاعة، والشريط الإسلامي.

■ مجلة قراءات: كيف ترون مستقبل الدعوة في مالي في ظل انحسار نشاطات المؤسسات الخيرية الإسلامية القادمة من خارج الحدود؟

أسـهمت المؤسسات الخيرية الإسـلامية القادمة من الخارج بـدور كبير في تطور الدعـوة وتطويرها في مالي، وهو ما يجب شـكر الله عليه والإشـادة به، فقد قامت بإنشاء المساجد والمراكز والمدارس، وبتكوين الدعاة علمياً وإدارياً، وذلك بإقامة الدورات والملتقيات وغيرها، حتى أصبح الدعاة العاملون في تلك المؤسسات يحظون بقبول العامة والخاصة واحترامهم.

وقد بدأ انحسار نشاط هذه المؤسسات وفاعليتها له في ظل الظروف السائدة منذ ٩/١١، حيث ظهرت صعوبات أدت إلى إعاقة عمل هذه المؤسسات ونشاطاتها، ومن ذلك صعوبة تحويل الأموال، وصعوبة استخراج التأشيرات، وتحركات الأشخاص، ومطالبة بعض الجهات بتقارير محرجة تجعل بعض النشاطات أو الأشخاص محل إدانة.

ولهذا أرى أنه إذا لم توضع خطط مرنة وعاجلة عبر مراحل انتقالية؛ فسوف تحدث مشكلات بل نكسات تعترض سبيل الدعوة، نسأل الله - تعالى- العافية، مثل: توقف النشاطات كلياً، وتدني المستوى المعيشي والاجتماعي للداعية، وانشغال الداعية بكسب العيش من طرق لا خبرة له فيها، وفقد ثقة المجتمع.

ولا شك أن الدعوة قد تأثرت بانحسار نشاط المؤسسات الخيرية الإسلامية، ولكن بما أن الدعوة مهمة الرسل عليهم السلام، والعلماء ورثة الأنبياء، وينبغي لكل داعية أن يرى نفسه مسؤولاً عن هذا الدين ويبذل قصارى جهده لنشره ونصرته، ويعلم أن الله سبحانه لم يوكل دينه بشخص بعينه، ومع وجود العناصر المتدربة من الدعاة إدارياً وعلمياً؛ فأرى أنه يمكن استثمار هذا الموقف في عدد من النواحي الايجابية؛ مثل: توطين الدعوة، وتحفيز الدعاة هنا نحو القيام بواجبهم، وتدريبهم على التخطيط والاختيار، ورفع قدراتهم في مجال التأصيل الشرعي الذي يحقق لهم الرؤية الواضحة للأمور، والرؤية المستقبلية، وتنشيط دوافعهم لتحقيق العمل الجماعي دون عوامل خارجية.

وأرجو مع وجود المؤسسات التعليمية والمساجد والمظاهر المحلية الأخرى التي ذكرت، ومع وجود أفراد مخلصين متعاونين في الخارج أيضاً، وربما يكون أحدهم كأمّة، أن تستمر الدعوة إن شاء الله في طريقها ولكن بشكل وطني وليس بشكل خارجي.

■ مجلة قراءات: تعمل قوى دولية وإقليمية على إحياء التصوف، وبخاصة في أفريقيا، فلماذا يحدث ذلك؟ وما مظاهر تلك الجهود؟ وكيف يقرأ فضيلتكم مستقبل التصوف في ظل تلك المؤازرة الخارجية؟

الممارسات الصوفية يعود أصلها إلى عقائد فلسفية قديمة نشأت قبل الإسلام، كفلسفة أفلاطون وغيره، غايتها كما يزعمون فتح القلب على العلوم الغيبية، والتي لا تتلقى عن الرسل، بطريقة الكشف من الله.

وقد انتشرت في العالم الإسلامي عقب الفتوحات، حين ازداد الرخاء والاقتصاد، كردة فعل مضاد للانغماس في الترف المادي؛ مما حمل بعضهم على الزهد بتهذيب النفس بالعزلة، وترديد أذكار معينة.

ومرت الصوفية بمراحل مختلفة حتى صارت مذاهب شتى لها أهداف مختلفة، ومن أبرز أهدافهم المشتركة: العزلة عن الساحة، وتفريقهم بين الشريعة والحقيقة، ورفع التكاليف عن بعض الأولياء.

لكن لماذا تعمل القوى الدولية والإقليمية المعادية للإسلام على إحياء التصوف؟ السبب يرجع إلى أن وجود الصوفية في الساحة لا يتعارض مع مطامع الغرب، ولهذا يتظاهر أعداء الإسلام في الغرب أمام العالم أنه لا يعارض الإسلام كلية وإنما يخشى صنفاً منهم، وهم المتدينون من غير الصوفية.

ولهذا يقدّمون الدعم للتيارات الصوفية بصور عديدة؛ مثل: إنشاء مساجدهم وترميمها، وتيسير عقد الاجتماعات والندوات والملتقيات الخاصة بهم، وإجراء البحوث التي تخدم أهدافهم، وإقامة المشاريع الاقتصادية لهم، وتوفير المساعدات لإعانتهم، والإشادة بهم في وسائل الإعلام والحفلات والمناسبات، والتأثير في مناهج التعليم وقيم المجتمع وثقافته بإدخال المفهومات الصوفية فيها، ولتأكيد هذا الدعم يتم الترحيب بأئمتهم في

زيارات للولايات المتحدة الأمريكية سنوياً؛ لإطلاعهم على أوضاعها عامة وأوضاع المسلمين في تلك الديار على وجه الخصوص.

وبمقارنة بسيطة ترى أن محاصرة نشاط المؤسسات الخيرية يواكبه في الوقت نفسه بذل هذه القوى الدولية والإقليمية المعادية للإسلام جهوداً كبيرة لإحياء التصوف، والنتائج معروفة وفق حساب البشر، وعلى الرغم من انكشاف عقائد الصوفية وأهدافهم أمام أهل البصائر؛ فإن المصالح الدنيوية وأطماع أهل السياسة هي التي تسيطر على الأمور، ولكن الأمور كلها لله، والله غالب على أمره، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

ولهذا أنصح الدعاة بألا يقفوا مكتوفي الأيدي ويتركوا الساحة للتيارات المنحرفة، وليكن المؤمن كيّساً فطناً، ولكن أين الواعون! تلك هي المشكلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

■ **مجلة قراءات: الضعف التربوي، وتشرذم الدعاة، وتفرقهم في البلدان الإفريقية، من أبرز أسباب ضعف الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر، فهل من سبيل إلى معالجة ذلك؟**

أريد أن أضيف إلى ما قلتم من أسباب ضعف الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر سوء التربية، وفقدان الوعي الكافي، وقتل روح الاجتهاد عند المسلمين، حتى أصبح المسلمون مقلدين في كل شيء، لا أقول في المسائل الدينية فقط، بل في الأمور الدنيوية أيضاً، تقليد في اللباس، والسكن، والمركب، وطريقة التفكير، وأعداؤنا في الغرب سعوا بكل جدٍّ إلى نزع الخلافة الإسلامية، ولا يقبلون بوجود قيادة فعالة، حتى فقد كثير من المسلمين الثقة بأنفسهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والسبيل إلى معالجة ذلك من وجهة نظري، يبدأ من إدراك أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فلا بد من الرجوع إلى التربية الجادة والشاملة، وإحياء روح الاجتهاد الشامل لا مجرد التفكير الإبداعي، والسعي إلى إيجاد قيادات شاملة سياسية واجتماعية وعلمية وتجارية وصناعية، والجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، والوعي بالسنن الربانية الكونية.

■ **مجلة قراءات: يزعم بعض المراقبين وجود ما يشبه الردة عن منهج أهل السنّة والجماعة تقف وراءها جهات غربية وأتباعها من بني جلدتنا، فنرجو من فضيلتكم إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر.**

إذا كان المراد تصحيح الأخطاء فلا أرى ذلك ردة عن منهج أهل السنّة والجماعة، بل أراه تصحيحاً للمسار، وإذا كان غير ذلك بأن غيروا مناهجهم، وتنكروا لمبادئهم، فأهل هذه الفئة مذمومون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)، والابتلاءات سنّة الله في خلقه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١)، ولا شك أن هناك من هم محسوبون على أهل السنّة ويسيئون استخدام منهجهم.

وينبغي لأهل الفكر والقرار القيام بمراجعات موضوعية لواقعهم وواقع المسلمين بناء على منهج أهل السنة، فأهل السنّة والجماعة ينبغي أن يكونوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ثبات الإيمان، وسلامة العقيدة، والإخلاص لله في كل شيء، وتقديم رضا الله على رضا المخلوقين، مع الالتزام السلوكي بشعائر الدين، وسعة الصدر، ومعرفة الواقع.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وكل من كان على سنته حقاً يحسنون التعامل مع الخلق كافة، مسلمهم وكافرهم برّهم وفاجرهم كل بحسبه، ولا يكفّرون إلا من كفّره الله، ويعون ويفقهون قواعد الاختلاف وآدابه، وخاصة الاختلاف الفقهي

واختـــلاف الرأي، ويأخذون في الحســـبان العرف والعادة، ولا يرون لأنفسهم فضلاً على غيرهم.

■ مجلـة قـراءات: مـا أبـرز مهـددات الدعوة السلفية المعاصرة في دولة مالي؟

أبرز مهددات الدعوة الســلفية المعاصرة في مالي قلــة العلم الشــرعي، وجهل بعض الدعــاة ببيئاتهم، وبأعــراف المجتمع وعاداتــه، وأدب الخلاف، وهو ما أدى إلى انتشــار التكفير والتفســيق من غير تثبت ولا دليل، حتى أصبح أهل الســنّة عندنا فرقاً شتى، وبلغ الأمر ببعضهم إلى أنهم لا يصلّون في مساجد الآخرين، وبدلاً من دعوة أهل الشــرك والفســاد إلى التوحيد وجّهوا سهامهم إلى نحور إخوانهم، هذا غير التهديدات الخارجية كالتنصير وسائر الأطماع الغربية وغيرها.

■ مجلة قـراءات: يلاحظ وجود قلة في مجال التأليـف في أوسـاط علماء الإسـلام ودعاته في أفريقيـا، فكيـف ترون الخطـوات المثلى لمعالجة ذلك؟

بالرجــوع إلى تاريخ أفريقيــا تجد أن العصور الذهبية شهدت نشــاطاً واسعاً في مجال التأليف، وكُتبــت مؤلفــات عديــدة فــي فنــون مختلفة، والمخطوطــات الكثيرة في مدينــة تمبكتو وجيني، وغاو، ونيور، خير دليل على ذلك.

ولكن مع سقوط الإمبراطورية وارتحال العلماء بســبب الاحتلال حدث فراغ كبير في هذا المجال، وأصبح الناس ينهجون المنهج الشــفوي، أضف إلى ذلك الشعور بالدونية، وهبوط الهمة، والتبعية للغير، وانتشــار التصوف الذي أدى إلى الخمول الذهبي، واستيلاء الشعوذة والخرافة.

وأرى أن نبدأ معالجة هذه المشــكلة باكتشاف ذوي المواهب والكفاية العلمية، وتوجيههم إلى اختيار الموضوعات المهمة والمناســبة، وتشــجيع النابغين بإقامة المسابقات وطرح الدورات وطبع إنتاجا تهم، وتجنيــد مجموعة لهذه المهمــة، وكفالتهم، وإيجاد مشروعات مناسبة لهم.

■ مجلة قراءات: قام فضيلتكم بزيارة الولايات الأمريكية بدعوة من سـفارتها في مالي بعد أحـداث ٩/١١؛ فمـا أهـداف تلـك الدعـوة؟ وكيف رأيتم أمريكا من خلالها؟

تمــت الزيــارة فــي المــدة مــن ٩/٢٤ إلى ٢٠٠٥/١٠/١٦م، بدعوة من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في مالي، وكانت تهدف إلى الاطلاع على واقع الإسلام والمســلمين في أمريكا، ولذا فقد تم إعــداد برامج مركزة لهذه الزيارة، شــملت الزيارة خمس مدن في خمس ولايات، وهي:

١. واشــنطن العاصمــة، مــن ٢٤ إلــى ٢٠٠٥/٩/٢٩م.
٢. ســراكس - ولاية نيويورك، مــن ٩/٢٩ إلى ٢٠٠٥/١٠/٤م SYRACUSE. NEWYORK.
٣. سيســاناري، مــن ٤ إلــى ٢٠٠٥/١٠/٦ م CINCINNATI-OHIO.
٤. دالاس - ولايــة تكســاس، مــن ٦ إلــى ٢٠٠٥/١٠/١٢ DALLAS – TOYAS.
٥. ولايــة يوتــا SALTLAKECITY UTAH ، من ١٠/١٢ إلى ٢٠٠٥/١٠/١٦م.

وكانــت هناك لقاءات في ٧ جامعات، ومدارس إسلامية، ومدارس غير إسلامية، ومدارس تحفيظ القــرآن الكــريم، وجمعيات، ومســاجد، وجولات حرة، ولقاءات أســرية، وفي بعض مراكز البحوث، وبعض نقابات المحامين والقضاة، ولقاءات بعدد من الشخصيات البارزة.

ورأيت فــي أمريكا عــدداً مــن الجوانب الإيجابية؛ منها اهتمامهم الكبير بالعلم وانتشار مراكز البحث أيضاً، والتزامهم بقوانينهم، وسعة صدورهــم، والجــد والمثابرة، واحتــرام الغير واحترام رأيه مهمــا كان مخالفاً، وتنظيم العمل الجماعي حتــى أصبح ذلك ســمة أو عرفاً أو قانوناً عندهم، وإحيــاء روح العمل الطوعي في الإفراد والمؤسسات.

أما الجوانب السلبية؛ فمنها جهلهم بالعالم الآخر وخاصة بالإسلام، وحسب بعض الإحصائيات فهناك ٧٥ ٪ يجهلون الإســـلام، واســـتغلال الحكومة جهل الشعب بالعالم الآخر لتنفيذ سياساتها الخارجية.

وقد تحققت أهداف هذه الزيارة على نحو جيد؛ حيث عرفت كثيراً من أحوال الإسلام والمسلمين في أمريكا، ووقفت على طبيعة الحياة الإسلامية هناك، وقد قدّمت لي هذه الزيارة بفضل الله، على المستوى الشخصي، إجابات لتساؤلات كثيرة، كنت في حاجة إلى معرفتها.

ولا يفوتني في هذه المناســـبة أن أشكر كل من شـــارك في إنجاح هذه الزيارة، كما أشكرهم على حسن الاستقبال وكرم الضيافة.

■ **مجلـة قـراءات: تُعد القـارة الإفريقية في الوقـت الراهن مـن مناطق الصـراع المحتدم بين المسلمين والنصارى، فإلى أين يتجه ذلك الصـراع؟ وما مظاهر النجـاح أو الإخفاق في الجانب الإسلامي؟**

التنصيـــر حركة دينية سياســـية اســـتعمارية، ظهرت إثر انهزامات الصليبين، وتهدف إلى نشـــر الديانة النصرانية بين الأمم والشـــعوب، وبخاصة المسلمون، لإحكام السيطرة عليهم.

وكانت الحملات التنصيريـــة مركزة في بدئها على مناطق النفوذ الإسلامي في الشرق، ثم امتدت إلى مختلف أقطار العالم، أما منطقة غرب أفريقيا بوجه عام، ومالي بوجه خاص، فقد دخلتها الحملات التنصيرية في القرن الخامس عشر الميلادي، ومن خلال اســـتعراض تاريخ هذه الحركة يظهر ارتباط التنصير بالاستعمار الأوروبي، وكان الهدف الرئيس لهذه الحركات في جميع مراحلها هو تلويث عقيدة المسلمين وليس تنصيرهم بالدرجة الأولى.

واعتمدت حركـــة التنصير فـــي أعمالها على عدة وســـائل وأســـاليب من أجل تحقيق أهدافها، من أهمهـــا بناء الكنائس، وإنشـــاء مراكز تكوينية، وإقامة مؤسسات تعليمية لإنشاء أجيال وشخصيات ممسوخة لا يربطها بالإســـلام إلا أسماؤها، فترى من اسمه محمد يحمل فكر (مارك).

وتســـتخدم تلك الحركات التنصيرية وســـائل عديـــدة لتحقيـــق أهدافهـــا، كتقـــديم الخدمات الاجتماعية، حيث يســـتغلون الجهل والفقر والمرض والكوارث الإنسانية للقيام بالتنصير، وأيضاً يوظفون وسائل الإعلام، والقنوات الدبلوماسية وغير ذلك.

وتمكنت تلك الحركات بمثل هذه الأساليب من تحقيق بعـــض النتائج، حمل بعض المســـلمين على اعتناق النصرانية، وهم قلة والحمد لله، وإفســـاد المســـلمين عقدياً وخلقياً، وزعزعة القيم الإسلامية فـــي أنفســـهم، وتحقيـــق الربح المادي والمكســـب السياسي.

أما على الجانب الإســـلامي، فعلى الرغم مما جندته حركة التنصير من طاقات مادية وبشرية، وما تملكه من وسائل متنوعة لمحاربة الإسلام، في القارة على وجه العموم وغرب أفريقيا على وجه الخصوص، فإنها لم تجد الطريق أمامها ســـهلاً، بل ووجهت من قبـــل أبناء القارة الذين أدركوا منذ الوهلة الأولى أن حركة التنصير متحالفة مع حركة الاستعمار الغربي التي جاءت من أجل احتلال أرضهم وتدمير عقيدتهم وحضارتهم، ومن ثم شـــهدت مناطق كثير من أرض القارة ملاحم بطولية، حقق المسلمون فيها انتصارات باهرة على التنصير وجيوشه.

ويمكن رؤية ذلك في ثلاث مراحل:

١. مرحلـــة المواجهة العســـكرية: وتمثل (حركة محمد الأمين درامي) أنموذجاً لهذه المرحلة.
٢. مرحلة الكلمة: وتشمل الحركات الدعوية في القارة، منذ القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، واشتغل العمل الإسلامي غير المســـلح حينها بإقامة حلقات تحفيظ القرآن، وبناء المســـاجد، ودعوة كثير مـــن الناس إلى اعتناق الإسلام.

٣. مرحلة الصحوة وقيام المؤسسات: وتبدأ من بدء النصف الثاني من القرن العشرين إلى الوقت الراهن، وتميزت هذه المرحلة بعودة طلاب العلم من الجامعات العربية بعد تأثرهم بالحركات الإسلامية المعاصرة، ورغبتهم في التفاعل مع المجتمع، وتأسيس جمعيات إسلامية، وانتشار المدارس الإسلامية والعربية، وفتح مكاتب لهيئات إسلامية عالمية، وتتصل الدولة عن دمج المثقفين بالعربية في الوظائف الحكومية.

وبناء على هذه المعطيات زخرت دولة مالي، كغيرها من دول المنطقة، بعد فترة وجيزة من حصولها على الاستقلال، بعدد من الجمعيات والمراكز الإسلامية التي عززت وجود الإسلام فيها، غير أن تعدد هذه الجمعيات تحول بعد فترة من الزمن إلى التشرذم والتفرق بدلاً من التعاضد والتنسيق لمواجهة العدو المشترك.

وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن مظاهر الإخفاق الخطيرة، والتي تجعل الجانب الإسلامي ضعيفاً أمام أخطار التنصير، فأول مظاهر الإخفاق هذا الضعف في التنسيق بين هذه الجمعيات في ظل تضافر الجهود بين المؤسسات التنصيرية، وكذلك عدم تركيزها على الأولويات، وافتقار كثير من القائمين على العمل الإسلامي إلى ثقافة إسلامية مؤصلة وكفاية إدارية، وضعف الإمكانات المادية لكثير من المؤسسات القائمة بالعمل الإسلامي مقارنة بالإمكانات الكبيرة للمؤسسات التنصيرية، وتمتع المؤسسات التنصيرية بامتيازات كبيرة لاحتمائها وراء الهيئات الدولية والقنوات الدبلوماسية والرسمية بخلاف الجمعيات الإسلامية.

وبالإضافة إلى هذا؛ فإن النظام السياسي المتبع في دولة مالي يخدم الكنيسة في جميع المجالات، فالتعليم لا صلة له بالإسلام، والشؤون الاجتماعية تُستغل لدعم المراكز التنصيرية، والصليب الأحمر يقدم على إسعاف الهلال.

ومن المؤسف أن معظم سفارات الدول الغربية، في العاصمة المالية باماكو، لها ملحقات ومراكز تعرف باسم (المراكز ثقافية) أو (الملحقات الثقافية)، لكنها في حقيقتها تقوم بنشاطات تنصيرية خطيرة، مثل المركز الثقافي الفرنسي، والمركز الثقافي الأمريكي، علماً بأنه لا يوجد في سفارات الدول العربية والإسلامية ملحقات ثقافية أو دينية تهتم بشؤون الإسلام والمسلمين، ولا يوجد غير جهود فردية لا تقارن بمستوى جهود الدول الغربية ومؤسساتها.

وهنا تجدر الإشادة بدور (المنتدى الإسلامي) الذي قام بجهود فريدة لترشيد الجمعيات الإسلامية، وتأهيل العاملين بها، وتنسيق جهودها، وكانت جهوده تلك على رأس العوامل الخارجية التي شجعت القائمين على العمل الإسلامي في مالي لجمع الكلمة وتوحيد الجهود والعمل على خدمة المصير المشترك، فلهم الشكر الجزيل على ما قدموا.

وسبق أن أشرت إلى جهود الجمعيات الإسلامية في إنشاء رابطة الأئمة والعلماء في مالي، لتنسيق أعمال جميع الأئمة، وسهولة الاتصال والتشاور، والترفع على الخلافات المذهبية لتحقيق وحدة المسلمين، كما تم إنشاء المجلس الأعلى الإسلامي في مالي، وهي جمعية لها صبغة حكومية تهدف إلى تحقيق التواصل بين الحكومة والمسلمين.

■ مجلة قراءات: تعاني الأمة ضعفاً داخلياً، وتكالباً خارجياً، فما الخطوات العملية للنهوض بها؟

الحديث عن هذا الجانب وأبعاده الخطيرة يحتاج إلى مجلدات وبحوث لسنوات طويلة، ولكن تكفي الإشارة هنا إلى خطوطه العامة، فالضعف الداخلي للأمة الإسلامية سببه داء الأمم من قبلنا؛ حب الدنيا وكراهية الآخرة، وعدم الوعي بالواقع، وعدم الفصل بين الثقافة الإسلامية العامة والثقافة العربية الإسلامية؛ بمعنى عدم اعتبار أعراف

الشعوب الأخرى وعاداتهم وتقاليدهم، وفقدان روح العمل الجماعي التشـاوري، وفقدان روح التسامح، وفقدان الاجتهاد الفقهي، وعدم تملك روح المبادرة، وعدم فهم مسألة القضاء والقدر عند بعض الناس، فلجـؤوا إلى التواكل بـدلاً من التـوكل على الله، واقتصار بعض طـلاب العلم على التفقه في أبواب معينـة في الدين دون أبواب أخرى، ولذا فإنني أقر التخصص في باب ولا أقر تخصيص الإسلام بباب دون باب آخر، وقتل روح الاجتهاد عند المسلمين.

وقد تنـاول هـذه الجوانب وغيرها الشـيخ أبو الحسـن الندوي في كتابه (ماذا خسـر العالم بانحطاط المسـلمين)، ومجموعة مـن العلماء في مجلة الأمـة القطرية تحت عنـوان (أين الخلل)، والدكتـور عماد الدين خليل فـي كتاباته عن إعادة تشكيل العقل المسلم، وغيرهم كثير.

ولم يأت التكالب الخارجي من فراغ، بل عن طول بحـث ونفس طويل، وجهود الأعداء في هذا الجانب معروفة، ومنها على سبيل المثال وضع المعجم المفهرس لألفـاظ القرآن، ومعجم ألفـاظ أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسـلم، ودراستهم عادات المجتمعات وتقاليدهم وأعرافهم في الجامعات، وترحيبهم بأبناء الأمة الإسـلامية وبناتها في ديارهم واعتنائهم بهم، ولذا يتبين لكم مصداق قوله صلى الله عليه وسـلم: (يوشـك أن تداعـى عليكم الأمم مـن كل أفق كما تداعى الأكلـة إلى قصعتها)، فالقصعة معروفة لدى الأكلة، ومجتمعات الأمة الإسلامية معروفة الآن لدى الأعداء، سواء في جوانب ضعفها أو قوتها.

والنهوض بالأمة يلزمه أولاً إحسان التوجه إلى الله، وتصحيح مفهوم مسـألة القضاء والقدر حتى يتهيأ الناس للعمل، ويحققوا التوكل على الله والأخذ بالأسـباب؛ بدلاً من التواكل والتمني، وتنبيه الوعي العام بمكانة الأمة ومسـؤولياتها، وتنسيق الجهود، وبث روح الثقة المتبادلة، وتنشـيط العمل الجماعي، وإحياء الاجتهاد والإبداع في أبناء الأمة.

الديانات التقليدية في غرب أفريقيا
مدخل دراسي

عاصم محمد حسن محمد

غرب إفريقيا.. تلك المساحة التي تضم ست عشرة دولة، والتي شهدت على مرّ التاريخ ازدهاراً لممالك عديدة، وثنية وإسلامية ونصرانية. وقد عُرفت هذه المناطق وانتقلت ثقافاتها لتنتشر على مستوى العالم القديم والحديث؛ بسبب الهجرات المطردة، والرحلات التعسفية لتجارة الرقيق التي كان الغرب الإفريقي فيها مضماراً لسباق محموم بين تجار النخاسة البيض في كل من أوروبا والأمريكتين الشمالية والجنوبية، كما يبين ذلك التاريخ المرير لتلك الجرائم التي ارتكبت في حق الأفارقة في تلك المحقب.

وقد اصطحب السود المجلوبون من غرب إفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية والدومنيكان وجزر البحر الكاريبي قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ إسلاميةً كانت (كأفراد قبائل المندنكا المسلمة)، أو وثنية (كأفراد قبائل السواحل الغانية ومملكة داهومي)، وشكلت تلك القيم والمعتقدات والأفكار عقول كثير من الأجيال السوداء التي استوطنت فيما بعد في تلك المناطق.

والغرب الإفريقي منطقة غنية بالديانات والعقائد المختلفة في مظاهرها والمتشابهة أحياناً في جذورها وأصولها، كما تتسم الأعراق بسلطة قبلية فائقة نادراً ما ينعتق الفرد من ربقتها وما تستلزمه من أعراف ومعتقدات معينة. كما يتسم الفرد في القبيلة ببساطة شديدة كمردود طبيعي لنسبة الأمية العالية، وصعوبة التعليم النظامي، وقلة موارد الدعم الحكومي والدولي له، ثم كان لكثافة الدغل الإفريقي وصعوبة التغلغل الجغرافي أثر بالغ في انحسار التبشير بديانات ذات وحي منزل بين أفراد تلك المناطق.

أدت تلك العوامل وغيرها إلى أن تظل كثير من القبائل على وثيتها وارتباطها العبادي بالطبيعة وأرواح الأجداد، ولما كان الإنسان مفطوراً بالطبع على التوجه نحو وجهة عليا تفوقه في هذا الكون، ولافتقاره الطبعي لقوة تحميه من تغول الطبيعة؛ ثم لما لم يكن ثمة نور هادٍ أو وحي دال؛ فقد لجأ إنسان تلك المناطق إلى ما أسماه (الأرواح) أو (الوسائط) أو الفتيش (السحر)، كبدائل للدين الحق.

■ محاور الدراسة:

تقدم هذه الدراسة صورة للديانات التقليدية في غرب إفريقيا بصورة عامّة، وظاهرة الفودو (Voodoo, Vodun) على وجه الخصوص، وهي ظاهرة عبادية وديانة تقليدية لقرابة عشرة ملايين شخص هناك، كنموذج للعقائد المنتشرة في المنطقة، حيث تُمارس في أربع دول من دول الغرب الإفريقي (بنين، توغو، غانا، نيجيريا)؛ وهي ظاهرة عالجتها شخصياً، وعاينت مجرياتها رأي العين خلال وجودي بجمهورية توغو، وواجهت فيها مواقف متفاوتة ما بين غريب وطريف ومخيف، فهذه الدراسة شهادة حاضر، وليس من رأى كمن سمع.

- المحور الأول: تاريخ دراسة الأديان الإفريقية، ومسمياتها.
- المحور الثاني: أساسيات معتقد وثنيي الغرب الإفريقي.
- المحور الثالث: طرق دعوة الوثنيين إلى الإسلام.

وغرضي من هذا البحث تبصير الدعاة والحريصين على نشر الإسلام في هذه المناطق؛ ليواجهوا هذه العقائد بعلم، ويجابهوا حججهم الواهية بحجج تستمد نورها من مشكاة الشرع، والله الموفق وعليه التكلان.

المحور الأول: تاريخ دراسة الأديان الإفريقية، ومسمياتها:

بدأت دراسة الأديان الإفريقية قبل قرن تقريباً، قام بها علماء السلالات البشرية anthrobologists والمبشرون الكنسيون، ولم تكن كلمة (دين) أو (عقيدة) تطلق من قبل على الشعائر الممارسة في إفريقيا، بل جاء وصفها بهذه العبارات متأخراً، ولا يزال محصوراً في نطاق ضيق، والشائع في وسائل الإعلام الغربية والأوساط الثقافية استخدام تلك العبارة التي أطلقها الرواد الأوائل من علماء السلالات وغيرهم: Animism ؛ لوصف الطقوس والشعائر الإفريقية [1].

(1) (Ray 2000).

يقول Mbiti [2]: إن المسميات الغربية للديانات الإفريقية قد تأثرت جداً بتلك الأوصاف الانتقاصية التي أطلقها أولئك الذين لفّقوا ونسجوا قصصاً خيالية عن الديانات والمثيولوجيا الإفريقية، فهم بهذا ينشرون ويذيعون ما سيطر على عقول أولئك الأوائل الذين قدموا إلى هذه المناطق ووضعوا أفكاراً وأوصافاً خيالية دون ما تمحيص دقيق.

وعبارة (Animism) التي يستخدمها الغربيون لوصف الطقوس الإفريقية مشتقة من كلمة (Anima) اللاتينية التي تعني (الروح) أو (النفس)، ويعد عالم السلالات البشرية الإنجليزي E.B.Taylor (١٨٦٦م – ١٩٤٣م) أول من أطلق هذا الاسم على تلك الشعائر[3].

يقول تايلور: (الروح anima عند أصحاب المعتقدات الإفريقية قابلة لمغادرة الجسد، ومن ثم الدخول في جسد آخر... إنساناً كان أو حيواناً، ثم تواصل مسيرتها في هذا الكون بعد موت الجسد الآخر بالانتقال إلى جسد ثالث؛ وهكذا يعتقد أولئك بوجود ما لا يُحصى من الأنفس في الكون) [4].

فعلى هذا، ووفق تحليله يخلص تايلور إلى أن الأديان الإفريقية وثنية؛ بمعنى أن الأفارقة

(٢) انظر: Mbiti في كتابه (African Religions and Philosophy)، ص ٧.

(3) (Mbiti,1969).

(٤) اقترح تايلور أن الأحلام والرؤى والهلوسات، وكون الجثث بلا حياة، جعلت البدائيين يستنتجون أن نفساً (باللاتينية: anima) تسكن الجسد، واستناداً إلى هذه النظرية حلموا تكراراً بأحبائهم الأموات، وافترضوا أن نفساً تستمر في العيش بعد الموت، ولكنها تحل في الأشجار، الصخور، الأنهار، وهلم جراً، وأخيراً: فإن الأموات والأشياء التي اعتقدوا أن الأنفس تسكنها صارت تُعبد كآلهة. وهناك أنثروبولوجي آخر وهو R.R.Marett (١٨٦٦م - ١٩٤٣م) له نظرية أخرى (محسنة لمذهب الروحانية) دعاه (مذهب حيوية المادة animatism)، فبعد دراسته لمعتقدات ميلانيزي جزر المحيط الهادي، والوطنيين في إفريقيا وأمريكا؛ استنتج مارت أنه بدلاً من حيازة فكرة نفس شخصية؛ آمن الناس البدائيون بأنه توجد قوة غير شخصية، أو قوة فوق طبيعية تحيي كل شيء؛ وهذا الاعتقاد قد ألهب مشاعر الرهبة والخوف عند الإنسان، فصارت فيما بعد ديناً (ويُسمى عنده: الدين البدائي). (بحث الجنس البشري عن الله، إصدارة برج المراقبة، شهود يهوة).

يخدمون ويعبدون عدة آلهة، وهو الأمر الذي يعده مثقفو القارة الإفريقية وعلماء سلالاتها محض افتراء!

يُطلق أحياناً على الشعائر الطقوسية الإفريقية عبارة (Paganism) [١]، وهو الاسم الذي يراه كذلك عدد من الباحثين الإفريقيين مجرد اتهام.. يقول Kofi: يُطلق إسم Pagan أصلاً على أولئك الذين ليسوا بيهود أو مسيحيين أو مسلمين، ومع مرور الزمن صارت العبارة تُستخدم لأولئك الذين ليس لهم دين.. وبالطبع؛ فإن إفريقيا لها دين، ووصفُ الديانات الإفريقية بهذا الوصف يُعدّ تحقيراً وانتقاصاً لها وإنكاراً لميراثها الديني الكبير) [٢].

(Fitishism) [٣]: من العبارات التي تطلق وصفاً لديانات الغرب الإفريقي، وهي مشتقة من اللغة البرتغالية من كلمة Fetico، التي تُطلق عموماً على (أي عمل منحوت يصنعه الإنسان لغرض ديني كالتعاويذ الجالبة للحظ والتمائم) [٤]، والتي شاهدها البرتغاليون في رحلاتهم إلى إفريقيا على صدور وجذوع الأفارقة، ولاحقاً صارت العبارة مستخدمة لوصف أديان الغرب الإفريقي، حيث تقول Mary Kingsley: (عندما أقول Fitish أو Juju أعني بذلك الدين التقليدي لغرب إفريقيا).

(Polytheism) [٥]: وهو من المصطلحات المستعملة لوصف الديانات الإفريقية، ويعني: (الاعتقاد في أكثر من إله)، ويرى E.G.Parrinder في كتابه أديان إفريقيا أن الأديان عديدة الآلهة (Polytheism) متسامحة في عقائدها، يمكنها بسهولة قبول أديان وعقائد أخرى، ولا يوجد فيها آلهة غيورة تجاه الشرك؛ ما دامت لم تهاجم المعتقدات القديمة لهم، لذا أخذت هذا الوصف [٦].

ويُعد المصطلح الأكثر قبولاً بين الباحثين الأنثروبولوجيين الأفارقة هو ذلك الذي أطلقه هاربرت سبنسر Herbert Spencer عام ١٨٨٥م في كتابه Principles of Sociology (مبادئ علم الاجتماع)، وهو مصطلح: عبادة الأسلاف (ancestor worship)، استخدم سبنسر المصطلح بناءً على تأمله الخاص لعقائد الغرب الإفريقي، وصار المصطلح ذائعاً؛ شائع الاستخدام بين الكتاب الأفارقة لوصف أديان المنطقة.

لكن يعترض بعض باحثي الغرب الإفريقي على هذه التسمية، ويرون أن الأمر ليس عبادة بالمعنى المعروف، يقول Kofi: (بلا شك، يلعب الأسلاف دوراً كبيراً في المعتقدات التقليدية الإفريقية، ولكن تسمية الديانات الإفريقية بهذا الاسم يعد إفراطاً في التبسيط للمصطلح.. نعم للأجداد احترام خاص، فالأبناء يحرصون على إطعامهم، واستشارة أرواحهم في أغراض علاجية روحية، ولكن ليس الأمر عبادة محضة كما اصطلح) [٧].

ويبدو واضحاً أن الفلاسفة وعلماء الأديان (سماوية كانت أو تقليدية) لم يستطيعوا اختيار اسم جامع يرضى عنه معتنقو هذه النِّحل. وتخضع معظم التسميات لثقافة المجموعة أو القبيلة المعتنقة لديانة معينة، بل يشجع بعضهم على التسميات المتخصصة حسب المناطق أو الأعراق (الإثنيات)، مع جعل اسم واحد يصنف كل الأديان تحتها بمسمى (الديانات الإفريقية التقليدية) (African Traditional Religions).

(١) ترجمة كلمة Paganism في القواميس الإنجليزية: دين وثني، رجز: عبادة الأوثان، وثنية.

(2) (Kofi 1978, p 4).

(٣) تترجم كلمة Fitishism في القواميس الإنجليزية بالبدّية، البدائية، طقوس دينية قائمة على التعاويذ - Atlas.engkish Arabic talking Dictionary

(4) (Kofi 1978).

(٥) ترجمة كلمة Polythism في القواميس الإنجليزية: الإيمان بعدّة آلهة أو عبادتها Atlas.engkish -Arabic talking Dictionary.

(6) (Epworth Press, London,1961, p11).

(7) (Kofi 1976).

في خمسينيات القرن المنصرم بدأ المثقفون الغربيون في إطلاق عبارات إيجابية (وفق تعبير البحاثة الأفارقة) تجاه الطقوس والمعتقدات الإفريقية، ومنها عبارة دين Religion، وقد أسهم في هذا التحول مجموعة من علماء السلالات البشرية مثل [1] Edward.E.Evans و Mercel Griaule و Victor Turner، والأنثروبولوجيين الإفريقيين: E.Bolaji Ido و John Mbiti اللذين جَهِدا في إثبات معرفة إنسان إفريقيا الأول للإله قبل أن يعرفه المبشرون أنفسهم! يقول Mbiti : (المبشرون الذين جلبوا الأناجيل إلى إفريقيا قبل مائتي سنة فقط؛ لم يكونوا هم الذين أتوا بالرب إلى قارتنا، ولكن (الربّ) هو من أتى بهم! إنهم يستخدمون اسم: (الربّ) الذي عرفه إنسان إفريقيا قبلهم فهو Nagi، Katonda، Mulungu، Mungu، Jok، Rohanga، Asis، Modimo، Olodumare و Unkulunkulu.. وآلاف الأسماء الأخرى التي تشير إلى الإله الواحد خالق هذا الكون..!) [2].

يصعب جداً الفصل بين الشعائر التعبدية ومسالك الحياة اليومية عند أصحاب الديانات التقليدية الإفريقية؛ حيث تجد الأفكار والمفهومات الطقسية تتغلغل في ثقافة القبيلة؛ في قصصها وأساطيرها، طقوسها العلاجية والجنائزية، أعيادها واحتفالاتها.. يقول Ray: (إن كلمة دين Religion بمفهومها الغربي (مفصولاً عن الحياة) لا توجد في التصور الإفريقي، بل لا توجد تلك العبارة في لغاتهم؛ لأن الدين يتغلغل في حياة الإفريقي اليومية كسلوك مباشر).

وهو المفهوم الذي حدا بـ Idowu: أن يقول عن الأفارقة أنهم (أولئك الناس الذين يستخدمون الدين في كل حياتهم) [3]، وأن يقول Iwuoha: (الدين أمر يدور حول البشر وحياتهم في إفريقيا) [4] .

ويقول Mbonu Ojike: (إذا كان الدين هو ما يُتاح قبوله لكل البشر فإفريقيا ليست لها دين، أما إن كان الدين يعني: العمل أكثر من الكلام، فإن إفريقيا متدينة) [5].

كما يقول Mbiti: (الأفارقة متدينون للغاية، ولكل شعب منظومته الدينية الخاصة مع سلسلة معتقدات وممارسات، ينفذ الدين إلى كل مؤسسات الحياة بصورة من الاكتمال يصعب أو يستحيل معه عزلها. دراسة مثل تلك المنظومات الدينية بالتالي، هي في نهاية الأمر دراسة الناس أنفسهم في كل تعقيدات الحياة التقليدية والحديثة...

ولأن الديانات التقليدية تنفذ إلى كل مؤسسات الحياة، فلا وجود لتمييز شكلي بين جوانب الحياة المقدسة والدنيوية، بين الدينية وغير الدينية، بين الروحية والمادية. أينما حل الإفريقي، هناك توجد ديانته، إنه يحملها إلى الحقول حيث يزرع البذور، أو يحصد محصولاً جديداً، يحملها معه إلى احتفالات الجعة، أو لحضور مراسم جنازة، وإذا كان متعلماً فإنه يأخذ ديانته معه إلى قاعة الامتحان في المدرسة أو في الجامعة، وإذا كان سياسياً فإنه يأخذها معه إلى البرلمان. رغم أن العديد من اللغات الإفريقية ليس فيها كلمة «ديانة» صرفة؛ فإنها ترافق مع ذلك الفرد منذ أزمان سابقة لمولده حتى أزمان طويلة تعقب وفاته الجسدية. عن طريق التغير الحديث فإن تلك الديانات التقليدية لا يمكنها أن تظل غير متبدلة، لكنها ليست منقرضة بحال من الأحوال. في أوقات الأزمات تطفو تلك الديانات إلى السطح، أو أن الناس يعودون إليها سراً) [6].

(1) (Paris 1984).
(2) (Orita 1967).
(3) (Iwuoha 2002).
(4) (John Day 1946).
(5) (Mbiti 1969).
(6) (Mbiti 1969).

إذن فالديـــن والعلائـــق الروحيّـــة أمر أصيل فـــي المجتمع الإفريقي، حتـــى يظهر ذلك في نظام التســـمية للمواليد الجدد، حيث يشيع في كثير من القبائل الإفريقية تسمية المولودين الجدد بناء على أحداث، ظروف، أو مناسبات أو أيام ميلادهم، وإن كانت الأخيرة هي الأكثر شـــيوعاً، ونجدها مرتبطة في مجملها بالقيم الدينية.

الجـــدول الآتي يوضح أمثلـــة لقبائل الإيفي- الفون- الأكان في غرب إفريقيا في نظام تسميتهم وفق الأيام:

المؤلفات السابقة:

كتب عـــدة باحثين حول هـــذه الأديان والنحل الإفريقيـــة، وكان للقساوســـة والأنثروبولوجيـــين النصارى قصب الســـبق في الكتابة والبحث، مثل القس الكاثوليكي البلجيكـــي Placide Tempels الذي كتب كتابه Bantu Philosophy عام ١٩٤٥م (الطبعة الأولى بفرنسا، وخرجت الطبعة الإنجليزية الأولى عام ١٩٥٩م)، حول ديانة البالوبا (Baluba) في زائير، وهو أول من أطلق مصطلح (القوة الحيوية) للتعبير عن الفلسفة الأساسية لإيمان البالوبا، وقد

أيام الأسبوع (ايفي، فون)/ أكان	أيام الأسبوع	أسماء الإناث (إيفي، فون) / أكان	أسماء الذكور (إيفي، فون) / أكان	المعنى (ايفي فون/ أكان)
Dzoda/Dwoda	الإثنين	Adjua/Adjoa	Kodjo/Kojo	المتوسل (أو المتضرّع) / طفل السلام
Blada/Benada	الثلاثاء	Abla/Abena	Komla/Kwabena	القوي / طفل النار
Kuda/Wukuda	الأربعاء	Aku/Akua	Koku/Kweku	الشجاع / المشهور
Yoda/Yawdo	الخميس	Ayawa/Yaa	Yao/Yaw	المصون (غير قابل للفساد) القوي /
Fida/Fida	الجمعة	Afi/Afua	Kofi/Kofi	الطفل الأعجوبة / الطفل النامي
Memlida/ Memenda	السبت	Ame/Ama	Komi/Kwame	المثير / الذي سيرتقي مكانا عاليا
Kosida/Akwesida	الأحد	Akosiwa/Akosi	Kosi/Kwesi	القائد / ابن الشمس

اســـتخدم هذا المصطلح أيضاً في دراســـات أخرى تالية له [1].

وكذلـــك E.G.Parrinder فـــي كتابه African Traditional Religion، وهو تعريف عام ومحاولات تصنيفية لأديان المنطقـــة الإفريقية، وأيضاً Evan Pretchard في كتابه Nuer Religion الذي يتناول عقائد قبيلة النوير بجنوب الســـودان، وGeoffrey Lienhard في كتابه Divinity and Experience الذي يتنـــاول عقائد وعبادات قبيلة الدينكا بجنوب السودان كذلك.

ومـــن بـــين الكتّـــاب الأفارقة نجـــد Jomo Kenyatta الرئيس الأســـبق لكينيـــا ومؤلف كتاب Facing Mount Kenya (١٩٣٨م)، والكاتـــب J.B.Danquah فـــي كتابيـــه Akan Doctrine of God (معتقـــد الأكان حـــول الـــربّ) (١٩٤٤م)، و Akan Laws and Customs (قوانـــين وأعـــراف قبيلـــة الأكان) (١٩٢٨م)، والكاتب Mbonu Ojike في كتابه: My Africa (١٩٤٦م)، و Archdeacon J.Olumide Laucas في كتابيه The Religion of Yoruba (دين اليوروبا) (١٩٤٨م)، و Religions in West Africa and Ancient Egypt (أديان الغرب الإفريقي ومصـــر القديمـــة) (١٩٧٠م)، والكاتب: E.Bolaji Idowu فـــي كتابيـــه: Olodumare: God in Yoruba Belief (١٩٦٢م)، وAfrican Traditional Religion: A Definition (الأديـــان التقليدية الإفريقية: تعريـــف) (١٩٧٣م)، والكاتب: Kofi Antubam في كتابه Ghanas Heritage of Culture (١٩٦٣م).

المحور الثاني: أساسيات معتقد وثنيي الغرب الإفريقي:

- أولاً: (الرب) في معتقد وثنيي الغرب الإفريقي:

الفكرة الرئيســـة حول هذا المعتقد هي: الإيقان بإله واحد خالق لهذا الكون؛ يُعرف بأســـماء عديدة وهو روح عليا ســـامية لا توجـــد له تجليات صورية مرئية، وهو المصدر الرئيس لكل قوة وطاقة في هذا الكون، وهو المعني أساساً بعملية الإماتة والإحياء.

ويوضـــح الجـــدول الآتي بعض هذه الأســـماء ومعانيها للخالق الأسمى عند بعض المجموعات في غرب إفريقيا [2]، وهناك كثير غيرها:

سيراليون Menda Kono	Leve	الخالق الأعظم، العليَ
	Ngewc	الربَ، الروح العظيم
	Maada	الجدَ
	Mahawa	الرئيس الأعظم
	Maha-yilei	الرئيس الأوحد
غينيا Tenda	Maha-Ngewc	الرئيس الرب
غانا Akan	Yataa	الذي تجده في كل مكان
	Meketa	الأزلي الذي لا يموت
	Hounounga	الذي لم يره أحد
	Onyame	الكائن الأسمى، الرب خالق كل شئ.

يتضح من الأســـماء والأوصاف الســـابقة ذلك التقدير وتلك المكانة التي يعطيها أصحاب الديانات الوثنية للإله الأســـمى، وأنـــه ذو فوقية وعلو على المحسوســـات فلا يتجســـد فيها، ولا يمكن تصور هيئته بوصفه روحاً ســـامية، وهذا يتضح جلياً من تســـمية يطلقها عليه أهل نيجيريا معناها (الذي لا يدرك كنهه أحد)، ويعبر الـ Akan maxim عن هذا الأمر بقولهم (إذا أردت أن تتحدث مع الرب فأخبر الريح – يعني تنقل حديثك –) [3].

(1) (Mbiti, p 10).

(2) (Kofi 1978).

(3) (Kofi 1978).

١. الرب الخالق:

الإيمـــان بأن اللـــه هو خالق هـــذا الكون أمر راسخ وأساسي في معتقد وثيي الغرب الإفريقي، وتختلف قصصهم وفـــق المثيولوجيا المتبعة في كل قبيلـــة أو عرقيـــة، فمثلاً قبيلـــة Tiv في نيجيريا يطلقون اسم النجار على الخالق عز وجل (Ando Gbe Tar)؛ أي الـــرب النجـــار، ويتخيلونه – تعالى وتقـــدّس – نجـــاراً يصنع المنحوتـــات، وقبيلة الـ Lodagaa يتخيلـــون عملية خلقه – تعالى وتنزه – للخلق كصانع القدور مع قـــدوره، أما قبيلة الفون في بنين فيعتقدون أن الكون قد تكون بمشيئة الرب (Mawu-Lissa)، ويعبرون عن الخلق بأنه قد قام وتكوّن بكلمة Fa (كن).

كما تجد عنـــد بعض القبائل الأخرى في غرب إفريقيا تصورات أسطورية للخلق بناء على بساطة العقول واســـتحكام قوة الطبيعة بغير توجيهات من الوحي؛ كقبيلة الميندي Mende في تصورهم للإله داخل كهف ومعه مجموعة مـــن الكائنات، يأمرهم بألا يأكلوا طعامه – تعالى وتنزه –، فتقترب بعض الكائنات فيمســـخها إلى الصور المعروفة حالياً من الكائنات، كائناً بعد آخر [١].

أما عند اليوروبا ففي اعتقادهم أن الأرض كانت في الأصل مستنقعات سبخة، ويسكن Olodumare (الاســـم الذي يطلقونـــه على الله عـــز وجل) في الســـماوات، مع الآلهة الأخرى (الأقل منه شأناً) – تعالى وتنزه ســـبحانه الواحد –، وأرادت هذه الآلهة زيارة الأرض للّعب والصيد، ونزلوا من الســـماوات على شبكة العنكبوت، وشاء Olodumare أن يحول الأرض المائية إلى صورة صلبة، فاســـتدعى رئيس الآلهـــة Orisha-nla، وعهد إليـــه بالمهمة، وأعطاه تربة في صدفة حلزون (وفـــي بعض الروايات في حقيبة صغيرة من أوراق الشـــجر) جمعتها دجاجة وحمامـــة، فنزل Orisha-nla وســـكب التربة على الأرض الســـبخة، وغطت التربة مســـاحة ضخمة شـــكلت فيما بعد اليابســـة. ورجع Orisha ليخبر Olodumare بمـــا حدث، فأرســـل Olodumare رســـوله الحرباء ليتأكد من الأمر، فذهبت الحرباء المـــرة الأولى وعادت قائلة: الأرض واســـعة ولكنها ليست جافة بما فيه الكفاية. ثم ذهبت المرة الثانية وعادت قائلة: الأرض الآن واسعة وجافة [٢].

تعتقد قبيلة الفون Fon، في جنوب بنين (مملكة داهومي ســـابقاً)، أن الخالق (ســـبحانه) قد سلك مســـلكاً خاصاً في خلقه للعالم الذي استغرق أربعة أيام، فـــي اليوم الأول أمـــر Mawu-Lissa بكلمته Fa الكون بالتكون وخلق الإنســـان، في اليوم الثاني أرسل رسولاً خاصاً ليهيئ الأرض ويجعلها صالحة لســـكنى الإنســـان، وفي اليوم الثالث أعطى الربّ الإنسان نعمتي البصر والكلام ليتعلم ويعرف، وفي اليوم الرابع والأخير أعطى الربّ الإنسان المهارات والحِرف التي تمكّنه من الاستفادة من البيئة والكون المحيط به [٣].

يُعتقد أن كل ما خلقه اللـــه صالح، ولقبيلة الـ Akan فـــي غانا حكمة ســـائرة حول هذه القضية (صـــلاح الخلق)، حيـــث يجعلونها فـــي فم الصقر (Ksansa) الذي يقول: (كل ما خلقه الله جيد)، ولهم كذلـــك تعبير مختصر عن عملية الخلق يســـردونه بلغة الطبول[٤]: (Kdomankoma (الرب) خلق أولاً Esen (حاجب المحكمة)، ثم Kyrema (الطبال) ثم أخيراً Kwawu Kwabrafo (الموت)).

Esen يقوم بمهمته، وهي الإعلان عن القرارات التي يتخذها رئيس المحكمة (الرب)، Kyrema يرمز

(1) (W.T.Harris) و (H.Sawyerr / The Springs of Mende Belief and conduct).

(2) (Kofi 1978).

(3) (Kofi).

(٤) لغة خاصة تستخدم في المجتمعات البدائية. حيث لم تتوفر وسائل المواصلات الحديثة. تعتمد هذه اللغة على السماع. وتعد لها طبول ضخمة من جذوع الأشجار المفرغة. ولها عدة إيقاعات للمناسبات المختلفة. للتحذير أو الحرب أو الزواج. كما لها مفرداتها الخاصة. (المؤلف).

إلى العلـــم، حيث أنه يعرف تاريـــخ القبيلة وحكمة المجتمع، ويســـتطيع ترجمتها عبر الطبل، Kwawu Kwabrafo (الموت) هو المنفذ للحكم.

إذن يلخص الـAkan عملية الخلق بلغة الطبول إلى: الأمر بالخلق، ثم خلق العلم، وأخيراً الموت [1].

تشترك كل الأســـاطير المبينة للخلق عند قبائل الغـــرب الإفريقي في بيان عملية انفصال الخلق عن الخالق، وفي الأغلب الأعم يؤمنون بأن الخالق والبشر كانا في مكان واحد، في علاقة قوية أشـــبه ما تكون بعلاقـــة الأب مع أطفاله، ثم حدث شـــيء غيّر هذه الوضعية. إحدى أساطير الخلق الموجودة عند قبيلة Mende التي تذكر قصة الخالق مع الخلق في كهف واحد، حيث منعهم من الاقتراب من طعام معين، فلما أكلوه انفصلوا عنه. لهم رواية أخرى تذكر سبباً آخر عن انفصال الخالق عن الخلق وإعطائه اسم: Leve (الأعلى)، حيث يعتقدون أنه: في زمان ســـحيق خلق الرب الكون ثم ختمـــه بخلق الرجل والمرأة، ولم يكن هذان (الرجل والمرأة) يعرفان اســـم الربّ الحقيقي فقط كانا يناديه بـ:Maada-le (الجدّ).

في يـــوم من الأيام خاطبهم الـــرّب قائلاً: (كل ما تســـألوني أعطيكموه)، فكانا كلما أرادا شـــيئاً أو طعامـــاً ذهبا إليه وقـــالا: Maada أعطنا كذا.. فيعطيهما قائلاً: In-ngee (نعم، خذا)، ولأجل هذه الكلمة ولأنه دائماً ما كان يقولها لهما ظنا أن اسمه هو Maadagee (الجد: خذ). ولما كانا يكثران من التردد عليه قال الرب في نفســـه (تعالى وتنزه عن قولهم): لو بقيت قريباً منهم سيضجرونني بأسئلتهم المتكررة، سأجعل مكاناً لنفسي بعيداً عنهم. وفي يوم ما أصبح الناس وما وجدوا الرب في مكانه، فرفعوا رؤوســـهم لأعلى فرأوه فوقهم عظيماً وكبيراً جداً فقالـــوا: Ngeewklanga-waa-le (خذ! ما أكبره وأوســـعه وأعظمه) من أجل هذا – حتى اللحظة – يقولـون: Ngewcwaa (الرب عظيم).

(1) (Kofi).

عند Akan كان الرب والبشـــر في مكان واحد معاً؛ حيث كانوا يمسونه ويشعرون به (تعالى وتنزه ســـبحانه)، وبدأت امرأة بطحن الـ Fufu: بانتظام باســـتخدام الهاون، وكانت يد الهاون ترتطم بالرب (تعالى عما يقولون) كلما دقت الفوفو ففارق البشر إلـــى الســـماوات، وعندما أدرك البشـــر ما حدث حاولوا البحث عن طريقـــة تُرجع الرب مرة أخرى إلى وســـطهم، اقترحت تلك المرأة العجوز أن يأتي كل واحد منهم بهاونه ويضعوها فوق بعضها ليكوّنوا ما يشبه السلّم ليصلوا إليه.. طبقوا الأمر واكتشفوا أنهم في حاجة إلى هاون واحد فقط ليكملوا السلم، عندها اقترحت المرأة العجوز مرة أخرى أن يسحبوا الهاون الذي في قاعدة السلم ويضعوه في الأعلى، فلما سحبوه انهار كل البناء وقُتل كثيرون [2].

ولليوروبا أكثر من قصة تروي هذا الانفصال، يقول (Idowu): تقول الروايات الشفهية إن السماء كانت قريبة من الأرض، وكان من الممكن لكل واحد أن يصعد إلى الســـماء ويرجع وقتما يريد، وكان هناك علاقة مباشـــرة مـــع Olodumare، وكان إذا مد واحد يده اســـتطاع أن يدرك بها السماء، وكان بلا شـــك ثمة وقت كان الاتصال بين السماء والأرض بغير حدود أو حواجز، كانت فترة ذهبية من عمر الكون. وحدث شيء أحدث هذه المسافة بين السماوات والأرض، وهناك قصص كثيرة جداً حول ما حدث، إحداها أن هناك شـــخصاً شرها أخذ طعاماً كثيراً جداً من الســـماء لذا انفصلت، وأخرى تـــروي أن امرأة لمســـت الســـماء (غير الصلبة) بيد متســـخة فانفصلت [3]، وقصة أخرى عندهم تذكر إنزالOduduwa – وهو الإنســـان الأول وســـلف اليوروبا – من السماء إلى الأرض، وقد نزل متعلقاً بسلسلة من حديد [4].

(2) (Kofi).
(3) (Idowu).
(٤) لويد ١٩٨٠م، ص ٣٦.

كل هذه القصص المأخوذة من الفو واليوروبا والمندي في غرب إفريقيا؛ مؤداها ونتيجتها أن الإنسان كان في وقت ما قرب الرب في مكان ما، ثم حدث شيء ما جعل الإنسان بعيداً عن الربّ، ولعل هذه القصص - في روحها - تشي بوجود قديم للمعتقد الكتابي عن آدم وحواء عليهما السلام في جنة عدن، وربما كان ثمة نور هاد من قبل في المنطقة انطمس بمرور الزمن.

وفي دراسة عن عقائد القبائل الوثنية في إفريقيا يقول القس جاك ماندلسون: (إن فكرة الله الأعلى، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة، نجده بين كثير من القبائل، كالزولو بجنوب إفريقيا، والبايراوندا والاشانتي بغانا وساحل العاج، والآكان بغانا، واليروبا بنيجريا والبكونجو بأنجولا، والنجومية بالكونغو.

ويجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام [1] - وهم أقدم سلالات إفريقيا - كائناً يُطلقون عليه اسم (مونجو)؛ وإلى هذا الكائن العلي يعزو الأقزام، أيضاً، خلق جميع الأشياء، وأنها ترجع إليه، كما أن هناك أسطورة بين قبائل لشاجا (بتنزانيا) تروي أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكم فيما عدا قلة، وجليّ مدى التشابه بين هذه الأسطورة وقصة سيدنا نوح.

ويروي البامبوتي والتشاجا والميروكيف [2] أن الرب حرّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض.

وفي جميع الأديان الإفريقية التقليدية اعتقاد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح... ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً في هذه الديانات، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصور الكثير من الناس. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن الله، مع أنه يشفي من المرض، قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة) [3].

٢. الرب الجد:

تسود في غرب إفريقيا عند القبائل الوثنية تسمية الربّ (سبحانه وتعالى) بالجد، إضافة للاسم الرئيس الذي يطلقونه عليه سبحانه، والجدول الآتي يوضح ذلك:

يقول Kofi: (إن للجدّ عند قبائل غرب إفريقيا تقدير خاص، وتسمية الربّ بالجد توافق ذلك التقدير والتعظيم الذي يعطونه للرب، ولا يلزم من التسمية جعله بشرياً. ويُعد الجد عندهم رأس العائلة، وهو الشخص الذي ترجع إليه كل القضايا ليحكم فيها، ويحظى باحترام وتقدير كبيرين جداً، ويرسخ رؤساء القبائل وبقية الكبار فيها لهذه المفاهيم بنفس القدر، فإن تسمية الربّ بالجد الأكبر، أو السلف الأعظم منبثقة من الدور الذي يؤديه كرئيس وقائد أعلى للمجتمع) [4].

٣. عبادة الرب:

بصورة عامة، وعلى النمط المعروف للشرك عبر القرون، لا توجد أية عبادات تُصرف لله سبحانه وتعالى مباشرة عند وثني غرب إفريقيا؛ بالرغم من الأسماء المشعرة بالتقديس والتعظيم لله عز وجل مما تنضح بها أدبياتهم.

ولا يجد المرء هيكلاً أو مبنى مخصصاً لعبادة الله وحده (على كثرة الهياكل والمباني العبادية)، كما لا يوجد بينهم كهنة أو سدنة مخصصون للإرشاد إلى عبادة الله سبحانه، مثل أولئك المكرسين للدلالة

(١) قبائل الأقزام أو «البيغمي» هي القبائل التي تعيش في الغابات على صيد الحيوانات. وتنتشر هذه القبائل في وسط إفريقيا وغربها. وفي الكونغو برازافيل. والكاميرون. والغابون. وجمهورية إفريقيا الوسطى. ورواندا. وبوروندي. وأوغندا.

(٢) مجموعة من قبائل الأقزام في الكونغو.

(٣) الرب والله وجوجو.. الأديان في إفريقية المعاصرة. تأليف القس جاك مندلسون. من الكنائس التوحيدية (uniturian churches). ترجمة إبراهيم أسعد. ص ١٠٨.

(4) (Kofi, 25).

على كيفية عبادة الآلهة وأرواح الأسلاف، ولهم في ذلك فلسفة ليست بالغريبة على المسلم المتمعن في كتاب الله سبحانه، يقولون: (الربّ دائماً خيّر، لا يؤذي ولا يضرُّ ولا يحتاج إلى استرضاء كما الأرواح والآلهة التي يخشى غضبها وإيذائها) [1].

وهذا شبيه بما ذكره المولى سبحانه في كتابه العزيز عن مشركي مكة؛ إذ كانوا يقدّمون القرابين والهدي لآلهتهم بمزاعم شبيهة بما يزعم هؤلاء، ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٦]، قال أبو محمد بن عطية الأندلسي في تفسير هذه الآية: (وسبب نزول هذه الآية أنّ العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسمّيه لله وجزءاً تسمّيه لأصنامها، وكانت عادتها التحفّي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله؛ إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقرّوه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الله ردّوه، وإذا تفجّر من سقي ما جعلوه لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدّوه، وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لا بدّ للآلهة من نفقة. فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك، قال هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي وغيرهم؛ أنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السّنة أكلوا من نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم) [2].

وكذلك ثمة مزعم آخر منهم، وهو أنّه لا يُتصوّر أن يرتبط الإنسان بالكائن الأسمى مباشرة إلا عبر وسائط تُسترضى من البشر لترضي بدورها الربّ.

ثانياً: الأسلاف:

يكنّ معتنقو التقاليد الإفريقية في غرب إفريقيا لأرواح الأسلاف احتراماً وتبجيلاً كبيرين جداً، يقول فرانسوا لا بلانتين: (إن بانتيون الأجداد ليس نسخة طبق الأصل لعالم الأحياء على غرار ما نجده في نظرية أفلاطون الأولى... فالأجداد الذين يتم ذكرهم وتمجيدهم مرات عديدة في اليوم هم بالأحرى قوة حافظة تمنح الحيوية، وتقوي القرية، وتضمن تناغمها، وتتيح تحييد قوى أخرى وإبعادها) [3].

يؤمن وثنيو الغرب الإفريقي بتجوّل أرواح الأجداد في الكون الفسيح، ويعتقدون أن علاقتهم مع أسلافهم علاقة قوية، ويشعرون برقابتهم المستمرة عليهم لاعتقادهم بوجودها حولهم وفيما بينهم، يقول Paris: (من وجهة نظر هؤلاء: لا يوجد موت بالمعنى الشائع، بل يؤمنون بخلود النفس (الروح)، وأن هذه الوضعية التي اتخذتها الروح تجاه هذا الشخص بخروجها منه ليست إلا بداية لدورة جديدة خارج جسده المادي، وتسمية هذه الأحوال موتاً يعد أمراً مغلوطاً، بل هو تحول من الحالة الفيزيائية للحياة إلى الحالة الروحية الخالدة) [4].

إن الإيمان بمواصلة الأسلاف لحياتهم بعد الانتقال (الموت) أمر شائع، والأموات عند بعض القبائل موجودون وسط الأبناء؛ فمثلاً عند قبيلة اليوروبا يظل الأب الذي توفي يُسمّى Baba si (أبي)، والأم المتوفاة Iya mi (أمّي)، ويُعاملون كأنهما لا يزالا على قيد الحياة، فالموتى قد انتقلوا فقط من عالم مادي إلى عالم روحي دون أن يقطعوا الوشائج مع الأحياء [5].

(1) (Kofi, 30).

(٢) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ص ٦١٥.

(٣) أبحاث في السحر، مجموعة دراسات، ترجمة محمد أسليم، مكناس، مطبعة سندي ١٩٩٥م.

(4) (Paris 1995, 52)).

(5) (Chife).

ويعبّر عن إيمانهم بهذا الأمر الشاعر السنغالي المشهور Birago Diop في قصيدة له قائلاً [1]:

الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً..
إنهم هناك.. في الظلال الكثيفة..
الموتى ليسوا تحت الأرض..
إنهم في الأشجار حين تصدر حفيفاً..
إنهم في الأخشاب حين تصدر أنيناً..
إنهم في تلك المياه الجارية..
إنهم في الأكواخ.. إنهم وسط الحشود. ...

ويعتقد وثيو الغرب الإفريقي أن الأسلاف يسكنون (أرض الأرواح) (إذا حققوا أموراً معينة في حياتهم)، ويعتقدون أن الحال التي مات عليها الشخص هي التي تحدد درجته ورتبته في هيكل الأسلاف، مثلاً تعتقد قبيلة الأكان بغانا أن المرء لكي يصير سلفاً لا بدّ له من حياة سابقة ذات قيمة وشرف، وأن يكون قدوة حسنة خلال سني حياته، ويموت عن عمر كبير وأبناء وأحفاد [2]. وكذلك اليوروبا؛ يعتقدون أن الموتى الأحداث غير مؤهلين للدخول في منظومة الأسلاف، وأن على المرء أن يموت ميتة (جيدة)، فلا يدخل في الأسلاف من مات بحادث، أو انتحار أو شكل آخر من أشكال الموت العنيف. وكذلك ألا تكون الميتة لسبب مجهول، أو بسبب الجنون، الاستسقاء، الجذام أو الصرع. وتتشابه تقريباً الشروط التي تحددها مجموعات الغرب الإفريقي ليدخل الميت في نسق الأسلاف.

يحظى كبار السن باحترام وتبجيل كبيرين في مجتمع غرب إفريقيا عموماً، وعند القبائل المؤمنة بقوة الأسلاف الروحية خصوصاً، فهم يعتقدون أن كبير السنّ قد مرّ بمراحل عديدة في هذه الحياة تؤهله لنيل درجة رفيعة من الحكمة والخبرة، وبالتالي القرب من الله؛ مما يؤهله أن يكون بعد مماته (وفق الشروط) سلفاً يحيا مع الربّ في مكان واحد!

(1) (Munto 1961, p. 108).
(2) (Kofi, 36).

وعلى سبيل المثال يعتقد وثيو الميندي Mendeفي سيراليون أنّ الأسلاف ذهبوا ليستريحوا مع الربّ، ووثيو الكونكومبا Konkomba في شمال غانا؛ يقولون إن أسلافهم قد ذهبوا إلى Uumbwardo (بيت الربّ).

ويقول J.B.Danquah عن معتقد قبيلة الأكان – في غانا – حول الأسلاف: (يعملون كوسائط بين البشر والكائن الأسمى، وتستجاب الصلوات المرفوعة للربّ بسرعة إذا مرّت عبر الأسلاف) [3].

يسود اعتقاد بأن الأسلاف يمارسون حياتهم ويستكملونها، ويفتقرون إلى المقومات الأساسية للعيش (الماء والطعام). تقول Margaret Greel: (يحتفظ الأسلاف بكل انفعالاتهم ورغباتهم كما كانوا من قبل، فهم يشعرون بالجوع والعطش، يغضبون ويسرون؛ وينتقمون إذا ما أُهملوا، ويرضون إذا ما عوملوا بالاحترام اللائق، ووفاء الأبناء تجاه الأسلاف هو الذي يقيهم من الجوع والعطش إذا قُدمت القرابين بصورة منتظمة) [4].

لذا يحرص وثيو الغرب الإفريقي على التواصل كلما أحسوا برغبة الأسلاف في شيء من الاهتمام، والذي غالباً ما يعرفونه من خلال الأحلام وتكهّن العرافين.

والطريقة الشائعة بين القبائل الوثنية في الاتصال بالأسلاف هي طقوس الإراقة [5] Libation التي قد تشتمل أحياناً على تقديم قرابين من طعام وخمر، ويمارس هذا الطقس فردياً وجماعياً، فقبل أن يشرب المرء منهم خمراً أو ماءً فإنه يريق بعضاً منه على الأرض، ويعتقد أنه بهذا قد أعطى سلفه ما يحتاج من ماء أو خمر، وقبل الأكل يلقي بلقمة من طعام على الأرض للأسلاف،

(3) (Danquah).
(4) (Paris 1995, 52).
(٥) (طقس الإراقة) طقس وثني، يعتمد على إراقة بعض الخمور على الأرض استرضاء للأرواح والآلهة. يُمارس في عدد من الديانات الوثنية، وانتقل إلى بعض الطوائف النصرانية.

ويشيع كذلك سلوك بين وثيني الغرب الإفريقي، وبخاصة بين وثيني قبيلة الأكان، وهو التأكد قبل النوم من أن خزانات المياه بالبيت تحتوي على شيء من الماء، فالأسلاف سيتجولون ليلاً، ويحبون أن يرتووا من بيوت أقربائهم.

يلخص لنا Kofi Opuko أسس الاعتقاد في الأسلاف كما يأتي [1]:

١. الاعتقاد في استمرارية حياة الأسلاف وعدم انقطاعها بالموت.
٢. الاعتقاد في أن للأجداد عهداً (وهو حماية العائلة أو القبيلة أو الأسرة)، وأن هذا العهد صار منوطاً بهم منذ أن دخلوا في هيكل الأسلاف، وهم يعطون أحفادهم مزيداً من القوة والحماية.
٣. يعد الأسلاف (ضابطين) للحركة الروحية (غير المرئية) للمجتمع، فبتذكر الفرد منهم للأسلاف، وبالتزامه بقوانينهم وأحكامهم الناجزة؛ تصير حياته أكثر ضبطاً والتزاماً.
٤. الإيمان بتناسخ الأرواح وعودة أرواح الأسلاف في أجساد أبنائهم مرة أخرى.

١. طقوس الأسلاف:

معظم الاحتفالات الطقوسية الوثنية في غرب إفريقيا تحتوي على فقرات خاصّة بإطعام الأسلاف، وعند قبيلة الإيفي والأكان والأشانتي يوجد تقدير خاص لما يُسمى (كرسي الأسلاف)، وهو لا يستعمل للجلوس فقط، لكن له دلالة رمزية للأسلاف والرؤساء في الأسرة.

- كرسي الأسلاف:

عند قبيلة الأكان مهرجان خاص بكرسي الأسلاف يسمونه Adae، حيث يُحتفل بكراسي الأسلاف العظماء (يعتقدون أن موت الجد على هذا الكرسي يجعل له مكاناً خاصاً في هيكل الأسلاف)، حيث تسوّد الكراسي، وتجعل في بيت الكراسي الخاص بالرؤساء. وكل رئيس لقبيلة الأكان ينحت لنفسه كرسيّاً من شجرة (Funtumia africana) أو شجرة الأومنيا (Alstonia bonei)، وعندما يموت، يوضع على كرسيّه ثم يغسل قبل دفنه، ثم يحفظ الكرسيّ في مكان آمن حتى يأتي ميعاد طقوس التسويد.

يحتل طقس التسويد مكانة مهمة في الاحتفال الجنائزي للرئيس السابق للقبيلة، ويقوم عليه حامل كراسي الأجداد، والذي يعين بدوره من قبل بقيّة الحمّالين. وتقام طقوس التسويد ليلاً حيث يؤتي بجميع الكراسي السابقة ليسوّد الجديد في حضرتها (عند الأشانتي يتم التسويد في حضور الكرسي الذهبيّ).

قبل التسويد يُغسل الكرسي جيداً بالماء (عند بعض بطون الأكان: يؤتى بالكراسي القديمة، وتغسل في طست نحاسي كبير، ثم بفضلة الماء يغسل الكرسي الجديد ليندمج الكرسي الجديد كلياً في سلفه)، بعد الغسل يسوّد الكرسي الجديد بتلطيخه بمادة سوداء مخلوطة بمحّ البيض، ثم يلطّخ لاحقاً بدم شاة، وقطعة من شحم حيواني، بعد الاحتفال تؤخذ كل الكراسي إلى بيت الكراسي مرّة أخرى.

ويُحتفل بهذا العيد مرتان كل ٤٢ يوماً، يقع أحد الأعياد في يوم الأحد (Akwasida)، والثاني في يوم الأربعاء (Wukudae)، ورئيس القبيلة هو المسؤول المباشر عن هذا العيد وطقوسه؛ حيث إنّه الوريث الشرعي للأسلاف والأجداد، وهو يرى أنّ هذا العيد من أعياده الخاصّة التي يرتبط بها روحياً مع أسلافه؛ لذا يبدي أحوالاً غاية في الاحترام والتخشّع لأرواح الأسلاف، بدءاً بخلع نعليه دلالة على الاحترام [2].

في الصباح الباكر ليوم Adae يخرج رئيس القبيلة برفقة شيوخها ليدخل بيت الكراسي، يطرق حامل الكراسي الباب أولاً، ثم يدخل، يعقبه

(1) (Kofi.p.39).

(2) (Sarpong).

رئيس القبيلة ثم الشـــيوخ، خالعين نعالهم وكاشفين صدورهـــم دلالة علـــى الاحترام الفائـــق، ثم يبدأ الرئيس بتحية الأسلاف قائلاً: Nananom,mema mo akye o (صبـــاح الخير أيها الأســـلاف!)، ثم يقوم بطقس الإراقة، وينادي كلّ واحد منهم باسمه، بدءاً بأكبرهـــم، تُذبح بعد ذلك الشـــاة التي يلطّخ بدمها الكرسيّ الجديد ويُجهز الطعام الخاص بهذا الاحتفال، ويسمّى nsamannuane، ويعده حمالو الكراسي تحت الإشـــراف المباشر من الرئيس، في غضون ذلك يغادر الرئيس بيت الكراســـي ويتوجه إلى عرشه، ليبايعه أتباعه بيعة رسمية.

عندما ينتهـــي تجهيز الطعام يرجـــع الرئيس إلى بيت الكراســـي مرّة أخرى ليقدم الطعام لأرواح الأسلاف، وقبل أن يضع الطعام في المنضدة الخاصّة بهذا الطقس؛ يضع ماء ليغســـل الأسلاف أيديهم، ويغســـل هو أيضاً يده من الماء نفسه، ثم يتذوق من الطعام، ويقدم بعضه للحاضرين معه داخل الغرفة، ثم يخرج تاركاً الطعام للأســـلاف، يعتقد أنه بهذا الطقس تحتفظ كراسي الأسلاف بأرواحها، ويرتبط الرئيس الجديد بصورة مباشرة مع أسلافه [1].

عند قبيلة الأشـــانتي في غانا يســـوّد الكرسي الجديد بدم بشـــري بالكيفية الآتية: عندما يموت الملك الســـابق تجتمـــع أخواته وأبناؤهـــن لاختيار الملك القادم، فنظام التوريـــث يتم بالخؤولة (نظام طوطمي)، ويطرح الخيار، وتكون التي تقدم دم أحد أبنائها ليغسل به كرسي الأجداد الذهبي هي المؤهّلة لتكون الخلافة في بيتها. عندما يتقلد الملك الجديد يأمر بذبح مجموعة من الناس ليرافقوا أخاه الذي ذبح فداءً للكرســـي- كعبيد - فـــي حياته الأخرى، ويتحول المذبوح بدوره إلى سلف مبجّل [2].

٢. الأسلاف عند المجموعات القبلية في غرب إفريقيا، وطقوس تعظيمهم:

(1) (Kofi: 1967).

(٢) (شيخ صالح).

أ. الأسلاف عند قبيلة الإيفي Ewe في توغو:

يعتقد وشيـــو قبيلة الإيفي في توغو بســـلطة الأجداد الفائقة، وبوســـاطتهم بينهـــم وبين الربّ، وفلســـفتهم في ذلك أن الميت أقـــرب إلى الربّ من الحي، لكونه قـــد انتقل إلى بعد آخر يقرّبه من ربّه أكثر فأكثر، ويتوسل بالجد السابق فالسابق، فمثلاً عند حدوث مصيبة من مرض أو قحط فإنهم يصلّون للأجداد بالكيفيـــة الآتية: (أيها الجد - Tobbe أو Togbui - فلان - يســـمى باسمه - انقل دعواتنا إلـــى الجد فلان - الذي يليـــه تصاعدياً - ثم إلى الجدّ فلان، ثم إلى الجـــد فلان، وصولاً إلى الرب (الذي يُطلقون عليه اسم ماوو).

يستشـــار الأسلاف عند الإيفي في كل القضايا والحوادث، فمثلاً عند الزواج تشـــتري قبيلة البنت خموراً غالية جداً، ويُقام طقس الإراقة قائلين: أيها الجدّ فلان. ثـــم يذكر الأجداد تتابعاً إلى أن يصلوا إلى والد البنت الذي إن كان حياً يقال لهم: إن بنت ابنكم فلان تريد الزواج. وإن كان ميتاً فإنه يحسب ضمن الأســـلاف، ويقال: إن حفيدتكم فلانة تريد الزواج، وليكن هذا في علمكم [3].

توضع أحياناً أنصاب ممثلة للأســـلاف داخل البيـــوت، وترســـم صورهـــم على جـــدران المعابد ليتذكرهم أحفادهم.

ب. الأسلاف عند قبيلة المندي في سيراليون:

يمثل الأســـلاف عنـــد الميندي دور الوســـائط الروحيين، عنـــد حدوث أية ملّمـــة أو قضية ذات بعد روحي؛ يشعر الأسلاف بها قبل خمسة أو ستة أيام قبل إقامة الاحتفال الطقوســـي الخاص بتلك القضيّة.

من أهم المواســـم التي تقوم قبيلة المندي فيها باستدعاء الأسلاف موســـم الحصاد، حيث يتكون الاحتفال من قســـمين، يبدأ أولهما في بدء الموسم: شهر ســـبتمبر، والجزء الثاني في ديسمبر. حينما

(٣) (شيخ صالح/ سوسا).

تحصد أول الحبوب، يذهب بها المسؤول عن الطقس إلى التلّ المختصّ بالاحتفال بالأسلاف معلماً إياهم ببدء الحصاد، منادياً كلّ واحد منهم باسمه، واضعاً الحبوب في ذلك المكان، في اليوم التالي يعود إلى المكان نفسه حاملاً معه زهرة الأرز (مصنوعة من أوراق أرز محصودة حديثاً) موضوعة على ورقة موز، قائلاً: (لقد جلبنا لكم زهرة الأرز، لتراعوا وتحموا لنا أرزنا في مزارعنا من الطيور والهوام والحيوانات لئلا تفسده، نريد أن نبدأ حصاد الأرز فرجاؤنا أن تحموا مزارعنا، لا تأكلوا هذه الزهرة لأنها حلوة؛ بل كلوها لتهتموا وتراعوا حياتنا) [1].

بعد هذا الطقس تتوجه مجموعة منهم لصيد بعض الحيوانات لتقديمها كقرابين للأجداد، وفي يوم محدد يُطبخ أرز مع زيت النخيل ولحوم الحيوانات المصيدة وتقرب كتقدمة لأرواح الأجداد، ولا ينسى القوم أن يسكبوا بعض الماء على الأرض ليشرب الأسلاف ويغسلوا أيديهم قبل الأكل، ثم يوضع الطعام على ورقة موز، ويوضع على الحجر المقدّس المخصص لهذا الأمر.

ج. الأسلاف عند الفون Fon في بنين:

يعتقد وثيو الفون أن أرواح أجدادهم تعيش داخل أو قرب المياه، ويذهب السادن (أو السادنة) قرب النهر عند بداية طقوس الأجداد سنوياً في شهر مايو أو يونيو، حاملاً القِدر والحصير المخصصين لهذه الطقوس الاحتفالية إلى جرف النهر أو شلال المياه، ثم يبدأ السادن بدعاء الأسلاف إلى الخروج من أعماق المياه والدخول في القِدر، وبعد هذا النداء يعتقد السادن أن الأرواح قد حلّت داخل هذه القدور، ويعرف دخولها فيها بهزات عنيفة تعتري حملتها، ثمّ يرجع بها إلى القرية لإكمال الطقوس هناك.

توضع القدور في المذبح المخصص للقرابين داخل المعبد، ويتولى السادن نقل الصلوات بين الجمهور وأجدادهم، والتي تبدأ في الغالب بشكر الأجداد على حمايتهم للقرية في العام الماضي، وسؤالهم حفظها وحمايتها في هذا العام أيضاً. تُخرج كراسي الأجداد من أماكنها، وفوق كل كرسي مظلة ملونة بألوان عديدة، وهذه الطقوس لبيان العلاقة القوية – والودّية جداً – بين أفراد القبيلة وأسلافهم.

د. الأسلاف عند الإيقو Egun [2] في بنين:

يسلك وثيو هذه القبيلة مسلكاً غريباً جداً في تعظيم الأسلاف، حيث ينبشون قبورهم بعد موتهم لإخراج جماجمهم بعد سبعة أو تسعة أشهر من الدفن (تنبش قبور النساء بعد سبعة أشهر وقبور الرجال بعد تسعة أشهر)، تغسل الجماجم جيداً، وترش عليها دماء قرابين من الديوك الصغار، ثم تحفظ الجماجم في مكان معين انتظاراً ليوم الاحتفال الكبير (يوم تشريف وتذكر الموتى).

في ذلك اليوم تُجلب كل الجماجم إلى وسط ميدان الاحتفال، موضوعة في أوعية ومغطاة بقماش أبيض نظيف، يوضع على الآنية التي تحتوى على جماجم الرجال قبعة وسيفين، وتلك التي تحتوي جماجم نسائية يوضع عليها حلي وزينات نسائية. وفي اليوم التالي تؤخذ الآنية في موكب مهيب يقوده السدنة إلى حفرة كبيرة تسمى حفرة المحيط (Ocean Pit)، ثم تبدأ مراسم الدفن للجماجم.

طقس آخر عند نفس القبيلة يسمى Ago، يُقام بعد عام من دفن الجماجم، حيث ينصب الوثيون خياماً قرب المحيط (أو النهر)، ويذبحون عدداً من القرابين، ويطبخون الطعام ويجعلونه داخل الخيام، ويدعون الأسلاف ليدخلوا إليها ويتناولوا الطعام

(1) (Harris, p.18).

(٢) أصل الكلمة egun gun، ومعناها في لغة اليوروبا: الهيكل العظمي، حيث يعتقدون أن الميت قد رجع وقد يؤذي. ويُمثل الأمر في طقس يلبس فيه السدنة أزياء خاصة، تخيط بالبد (مليونين فرنك تقريباً)، وعند خياطته تجرى طقوس خاصة، ولا يُسمح لأحد برؤية السادن حين يلبس ذلك الثوب، ولا يمسه إنسان لاعتقاد سائد هناك بأن من يمسه يموت، وأن من بداخله إنسان ميّت. (أحمد محمود - بنين).

الـــذي صنع لهم خصوصاً! يُنادى كلّ جد بالاســـم، ويدخل الســـادن داخل الخيام، ويمكث – حســـب اعتقادهم- مع أرواح الأجداد، ويخرج لينقل لقومه مقدار فرح الأجداد واستمتاعهم بالطعام الذي أُعدّ لهم، وهو خبر يستقبله القوم بفرح وابتهاج كبيرين. فـــي اليوم التالي يقرب الشـــيوخ قرابـــين الطيور، ويقطعـــوا أمعاءها إلى قطـــع صغيرة، وتوضع على الزوائد المعدنية فـــي الخيام التي نُصبت للأجداد؛ كدلالة خاصة على الاحترام والتبجيل.

ثالثاً: الآلهة والأرواح:

هناك عـــدد كبير جداً من الآلهة التي تُعبد في غرب إفريقيا كوســـائط بين الخلق والربّ، فيوجد على سبيل المثال عند قبيلة الإيفي وحدها، في توغو وغانا، ما يقرب من ٦٠٠ إله [١]!

والاعتقاد السائد عند وثيي الغرب الإفريقي أن الآلهة (الأرواح المعبودة) قد خلقها الإله الأكبر لأداء أمور معيّنة، يعني هذا أنهم لم يأتوا باختيارهم، وهم يشتركون مع سائر مخلوقات الأخرى في المحدودية والقصور أمام القوة العظمى للخالق، حيث يستمدّون قوتهم وفعاليتهم من الربّ [٢].

يعتقـــد بعض الوثيـــين أن هذه الآلهـــة أبناء للربّ ورســـل له، وبعضهم يعتقد أنهم وكلاء له على الأرض. ويمكن أن تكـــون هذه الأرواح المعبودة إناثاً أو ذكوراً، أرواحاً خيّرة أو شرّيرة، وقد أعطيت هذه الآلهة مواضع للســـكن حسب تصوّرهم، كالأشجار، المياه، الصخور، حتى بعـــض الحيوانات، ويعتقدون أن للأرواح قدرة غير محدودة على التنقّل من مكان لآخر ومغادرة أماكنها التي تسكن فيها.

كما يعتقدون أن لهـــذه الآلهة قوى خارقة، وأن لكل إله (أو إلهـــة) نطاقها الخاص، فيوجد عندهم آلهة للحرب، والخصب، والشفاء والأوبئة، والزراعة، والصيـــد، وبعض مظاهر الطبيعـــة كالرعد والبرق والصواعق وغيرها لكل مظهر منها إله، وفي نطاق أعمالها قد فوضها الـــربّ – بزعمهم – تفويضاً كاملاً للعمل والتأثير، ولهذه الآلهة سدنة وسادنات، ولا يدل جنس الســـادن (الذكـــورة أو الأنوثة) على جنس الإله الذي يخدمه أو تخدمه [٣].

وتنقســـم هـــذه الآلهة من حيث نطـــاق العمل والتأثير إلى قسمين:

قسم خاص بحماية المجتمع والقبيلة، يجوز لكل فرد أن يتملّكـــه، وهذه الآلهة يعتقد أنها أبناء للربّ – تعالى وتقـــدس –، وأنها تعبد من زمن بعيد جداً بأسمائها وأوضاعها الحالية، تُسمى عند الأكان في غانا – على ســـبيل المثال – Tete abosom، وعند الإيفي في توغو Togbuitrowo [٤].

القسم الثاني آلهة حديثة، تُستخدم في الغالب لطلب الصحّة والأعمال الســـحرية، تُســـمى عند الأكان في غانا Suman Brafo أو Bosom Brafo ، وعند الإيفي في توغو Dzositrowo.

رابعاً: السدانة:

الســـدنة [٥] هم الوسطاء بين الآلهة وعابديهم، المترجمـــون لحاجياتهم، وقـــادة الطقوس والترانيم الاحتفالية. ويمارس الســـدنة فـــي المجتمع غرب الإفريقي أدواراً أخرى غير العبادة وسدانة الأوثان، فهم يُعدون حكماء وأطباء شعبيين وقضاة لأقوامهم كذلـــك، يذكـــر Idowu حول الســـدنة في أرض اليوروبـــا بنيجيريا: (الوظيفة الرئيســـية للســـادن عند اليوروبا هي الوســـاطة بينهم وبين آلهتهم، هو الشخص الذي يرتبط بالبشر والآلهة في آن واحد، هو الذي بإمكانه أن يسمع كليهما (الآلهة والبشر)، وهو الذي يرفـــع للآلهة صلوات عابديهم ليقبلوها، ويبارك العبّاد نيابة عن الآلهة) [٦].

(1) (Alex / David 1995).
(2) (Kofi).
(3) (Dr. Peter 1967).
(4) (N.K. Dzobo 1971).
(٥) يُسمّى السدنة Okomfo عند الأكان في غانا. Tronua عند الإيفي،Alufa عند اليوروبا (أو Olufa (أحمد محمود). و-Eze alusi عند الإيبو في نيجيريا Kofi).
(6) (Idowu 1973: p130).

السدانة أمر يجد احتراماً وتقديراً كبيرين جداً عند وثيي الغرب الإفريقي، وهو أمر مفتوح للرجال والنساء، وبالرغم من أن السدانة تكون وراثية في بيت معيّن من القبيلة في بعض المجتمعات؛ فإن بعض الأشخاص يرشحون ليكونوا سدنة إن أثبتوا كفاءتهم لذلك، وثمة طريقة واحدة للإثبات، وهو أن يتلبس الإله أو الروح المعبود بالمرشّح في أثناء الطقوس، ويعد هذا التلبس (Possession) الإذن العملي باختيار الشخص المتلبّس ليكون ضمن سدنة الإله المعيّن.

يخضع السادن المختار بعد ذلك لتدريبات عديدة حول عمله الجديد، تتضمن دروساً في القانون الخاص بالإله، والمحرمات، وكيفية الرقص، ودلالة كل رقصة، والموسيقى ونغمات الطبول، كما يجب عليه أن يتعلم الحكمة الشعبية (العلاج بالأعشاب وأوراق الشجر)، والطبّ الروحي، وكيفية طرد الأرواح الشريرة من أجسام العبّاد، كما يجب عليه أن يتعلم تاريخ المجتمع وعاداته وتقاليده بتوسّع.

وكثير من الأمور الاجتماعية توكل للسدنة بوصفهم قادة روحيين للمجتمع، كما يؤدي بعضهم أدوار القادة السياسيين، كما حدث ذلك في قرى Rukuba في نيجيريا، ومناطق Guan في غانا (قبل أن يتبنى Guan نظام الأكان Akan في الرئاسة) [1].

ليست للديانات الإفريقية كتب مقدّسة كتلك التي للوثنيات المشهورة في شبه الجزيرة الهندية على سبيل المثال، أو طقوس جنائزية مكتوبة بلغة مقدّسة كتلك الموجودة في الوثنية المصرية، فالطقوس أمر متوارث، وغالباً ما يختار القائمون على سدانة الأوثان هناك بالوراثة أو بالتلبّس، وهو ما يجعل دراسة الأديان الإفريقية أمراً ليس باليسير؛ لذا تعتمد جلّ الدراسات على الملاحظة المباشرة للطقوس، يقول Mbiti : (واحدة من صعوبات دراسة الديانات والفلسفة الإفريقية تكمن في انعدام كتب مقدسة خاصة بها، الديانة في المجتمعات الإفريقية مدونة لا في ورق، لكنها مدونة في قلوب الناس، وعقولهم، وتاريخهم الشفهي، وطقوسهم، والشخصيات الدينية مثل الكهنة، وصنّاع المطر، والكبار القائمين بالمهام، حتى الملوك، كل فرد هو حامل ديني، بالتالي علينا دراسة ليس فحسب المعتقدات الخاصة بالإله والأرواح، لكن أيضاً الأشخاص المسؤولين عن الطقوس والاحتفالات الرسمية. ما يفعله الناس يتم تحت تحفيز ما يعتقدونه، وينبع ما يعتقدونه من ما يفعلونه ويجربونه، بالتالي الاعتقاد والممارسة في مجتمع إفريقي تقليدي لا يمكن الفصل بينهما: إنهما ينتميان إلى كلّ واحد) [2].

خامساً: اليوم الآخر:

لا يؤمن وثيو الغرب الإفريقي، في الغالب، بالبعث بعد الموت، ولكن الإيمان بتأثير الأموات أمر حاضر على الدوام في فلسفاتهم، فهم يعتقدون أن هناك حياة من نمط آخر يحياها أولئك الذين دخلوا في هياكل الأجداد.

يقول القس جاك ماندلسون: (في جميع الأديان الإفريقية التقليدية اعتقاد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح... ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً في هذه الديانات، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثير من الناس.. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا – مثلاً – أن الله، مع أنه يشفي من المرض، قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة) [3].

إن عدم الإيمان باليوم الآخر جعل مفهومهم للجزاء منصبّاً على الدنيا فقط، حيث لا يظنون وجود عقوبة أو ثواب في الآخرة، فالمجرم ينال جزاءه في حال حياته، والبارّ يلقى من السعة

(1) (Kofi 1978: p 75).

(2) (Mbiti 1969).

(٣) الأديان في إفريقية المعاصرة. جاك ماندلسون.

والرغد ما يكافئ برّه.

ينقل لنا Mbiti هذه الرؤية قائلاً: (ليست هناك لا جنة يتم التطلع إلى ولوجها، ولا نار تستوجب الخوف منها في العالم الآخر، لا تتطلع روح الإنسان إلى تخلص من الخطيئة، ولا إلى تواصل أوثق بالإله في العالم الآخر. إن هذه الحقيقة عنصر مهم في الديانات التقليدية، وهي حقيقة سوف تساعدنا في فهم تركيز التدين الإفريقي على الأمور الدنيوية، مع الإنسان في قلب هذا التدين. وهنا أيضاً تظهر أهمية المفهوم الإفريقي لمسألة الزمان، فالديانات والفلسفة التقليدية تعنى بالإنسان في الزمان الماضي والحاضر، يظهر الإله في الصورة كتفسير لصلة الإنسان بالزمان، ليس هناك أمل تبشيري أو نظرة رؤيوية مع الإله بارزاً في لحظة مستقبلية ما، جالباً تحولاً جذرياً في حياة الإنسان العادية. لا يصور الإله في علاقة أخلاقية، وروحية مع الإنسان. أفعال الإنسان التعبدية واللجوء إلى الإله هي براجماتية ونفعية أكثر منها روحية أو روحانية) [1].

سادساً: القضاء والقدر:

يعتقد الوثنيون أن كل الأحداث التي تطرأ على البشر إنما هي جزاء أعمالهم، خيراً أو شراً، فتراهم يؤمنون بأهمية الكسب في المصير، ولا يُرجعون تقدير هذه المسائل إلى الخالق سبحانه، بل ولا لآلهتهم الوثنية، إنما ينسبون قضية التقدير إلى ذواتهم، ويرون الجزاء نتيجة لتصرفاتهم.

وأخالف هنا ما ذهب إليه ب. س. لويد؛ إذ يذكر أن (شعوب إفريقيا لا تزال تؤمن بشكل ما بالقضاء والقدر، وأن الإنسان يمكنه تعديل قدره بالأعمال الصالحة) [2]، حيث تدل أنماط تعبدهم وإيقانهم بالجزاء ونمطهم في التحكيم إلى أن المسائل ترتبط بأعمالهم التي ترضي أو تغضب آلهتهم، لذا يسترضونها على الدوام بالقرابين؛ لأنها مظنة الغضب والثورة باستمرار، ويتعلقون بالتمائم والتعاويذ الطاردة للأرواح الشريرة التي تجلب غضب الآلهة، فلا يرجعون حادثة ما أو مرضاً أو ظاهرة من الظواهر الكونية أو توفيقاً أو خذلاناً إلا إلى أعمالهم المحضة، ومزاج آلهتهم.

المحور الثالث: طرق دعوة الوثنيين إلى الإسلام:

إذا صح تصنيف العقائد الوثنية إلى وثنيات بسيطة ووثنيات مركّبة أو معقّدة (بناء على إيمانهم بوجود إله كلي القدرة خالق للكون)؛ فإن وثنية الغرب الإفريقي تندرج تحت الصنف الأول (وثنيات بسيطة).

وكما سبق في هذا البحث؛ فإن وثنيي الغرب الإفريقي يؤمنون بوجود إله خالق سام يفوق الإدراك، ويقرّون بخلقه للسموات والأرض والأنهار والجبال، ويمكن تشبيه طريقتهم في تناول المعتقد بطريقة مشركي مكّة الذين كانوا يقرّون بخلق الله تعالى للسموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان : ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر : ٣٨]، وبالقدر نفسه إن سُئل أحد وثنيي الغرب الإفريقي: من خلق السموات والأرض؟ فلن يملك جواباً غير أن يقول: الله.

وإذا دار النقاش معهم حول سبب تعلقهم بالأوثان؛ جاءت الإجابة مماثلة تماماً لحجة مشركي مكة الواهية، والتي أجازوا بها تعلقهم بالأوثان، وهي اتخاذهم شفعاء عند الله، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

(1) (Mbiti 1969).

(٢) لويد ١٩٨٠م، ص ٤٩.

الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨].

كما يتشابه معتقدهم في نقطة محورية، وهي إشراكهم الجنّ والملائكة (يسميها وثنيو الغرب الإفريقي: أرواحاً، أو فودو) مع الله سبحانه وتعالى، والزعم بأنهم أبناء لله وبنات له (تعالى عن قولهم)، وهو عين ما ذُكر عن مشركي مكة: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٠]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلآئِكَةِ أَهَؤُلاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ : ٤٠ – ٤١].

وكما أشار القرآن إلى غلوّ مشركي مكة في تعظيم آبائهم، فإن لوثيي الغرب الإفريقي غلوّاً مماثلاً، لكنه يفوق هذه الدرجة باتخاذ أرواح الأجداد وسائط إلى الله – سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً –.

وخلاصة الأمر أن شبهات الوثنيين في الغرب الإفريقي يمكن علاجها بطريقة القرآن الناجعة الناجحة المحكمة، وللمسلم بحمد الله ذخيرة وافرة من الحجج والبراهين والطرق الإلهيّة والنبويّة في علاج هؤلاء الذين ينتظرون من يخرجهم ﴿... مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١].

وأورد في هذا المقام أهم أسباب الشرك وطريقة القرآن في علاجها:

لوثيي الغرب الإفريقي إيمان عميق بسلطة الآباء الروحيّة، كما مرّ معنا في البحث، وهو أمر مشترك بينهم وبين المشركين الأوائل، ومعتقد أكثرهم أن هذه الآلهة التي يعبدونها قد ورثوها كابراً عن كابرٍ فلا يسوغ لهم تركها.

■ المناقشة:

يُنبّه الوثني على أن الآباء والأجداد قد قضوا، وأنهم أفضوا إلى الله تعالى، وأنهم في هذه اللحظة لا يعقلون شيئاً مما يدعوهم به أبناؤهم، ولا أحد ذو علم كامل، وواحد من وثنيي هذا القرن يعرف آلاف المعلومات العلمية والتقنية والدينية أضعاف ما كان آباؤه يعرفونه، أفيتبع من يعلم جهلهم تجاه قضية ما وهو قد جاءه البيان؟

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة : ١٠٤].

حتى لو ثبت عندهم أن الأجداد قد أمروا بعبادة ما، أو أرادوا شيئاً ما هل ننظر لما يريده الأجداد أم لما يريده خالق السموات والأرض؛ وأنتم تقرون بإله عظيم كلي القدرة؟

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨].

ثم لو سمّى الأجداد هذه الأوثان آلهة، وأنتم تبعتموهم في التسمية على أنها آلهة تضر وتنفع، ولم ينزّل الإله الأعظم هذا الأمر عليكم ولا على آبائكم؛ فما الذي يجعلكم تعتقدون ألوهيتها وما جاءكم بيان من الله بذلك، أليس هذا مدعاة لوقوع الغضب والسخط عليكم من الله؟!

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف : ٧١]، ويمكن للداعية أن يذكر لهم قصص الأنبياء الذين جادلوا أقوامهم في عبادتهم لغير الله، فلما أبوا أخذهم الله بالعذاب.

يبين للوثنيين أن الله تعالى لما خلق آدم (وهو الأب الأول للكل، ولو كان ثمة أحد الأباء أحق

بالاتباع فهو الحقيق بذلك لكونه السلف الأول)، أخرج من صلبه كل الذرية التي ستكون من بعده، بقدرته سبحانه، وأخذ عليهم العهد بالإقرار بوحدانيته، وأشهد كل واحد منا على نفسه ألست بربكم؟ فقلنا جميعاً: بلى شهدنا على أنفسنا بأنك الربّ المستحق للعبادة وحدك. ثم منعنا الله أن نأتيه مشركين ونقول له إنما تبعنا آباءنا. فعندها لن ينفع الآباء أبناءهم، بل ينشغل كل واحد بنفسه، وأنتم قد رأيتم هنا في الدنيا قبل الآخرة كيف أن الإنسان إذا أصابته مصيبة فإنه لا ينظر إلا إلى نفسه كيف يخلصها، فلو سقطت مجموعة من الآباء والأبناء في المحيط وكلهم لا يعرفون السباحة، فكل واحد منهم سينشغل بنفسه ومحاولة الخروج ولن يلتفت إلى الآخر فكيف بيوم القيامة حين نقف أمام الله ونرى العذاب الشديد بأعيننا! كل واحد سيقول نفسي نفسي! ولن ينفع الآباء الأبناء!

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ...﴾ الآيات [الأعراف : ١٧٢ – ١٧٣]، والمراد من هذا النقاش أن الله تعالى قد خلق الإنسان مستعداً بفطرته وبالأدلة الكونية للتوصل إلى الحق والاعتراف بخالق الكون.

ويبين الداعية لهم أن كثيراً من السدنة وأصحاب الأصنام وخدامها، إنما يبحثون عن العلو وطلب الرفعة بين أقوامهم بسبب هذه الآلهة؛ ولهذا يزعمون أنهم ورثوها من آبائهم، وأنهم لا يريدون أن يتركوا ميراثهم، فيضفون عليها قداسة وشرعية، والحقيقة أنهم يريدون العلوّ والاستخفاف بعقول البسطاء، وأخذ غلتهم وثمار أرضهم بهذه الحجة، ويرون أن في عقيدة التوحيد ونبذ الآباء منازعة لهم في سلطانهم.

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨].

ويمكن للداعية أن يسأل الوثنيين: من أمركم بعبادة هذه الأصنام؟ فإن كان الجواب: وجدنا آباءنا يعبدونها ونحن نعبدها. يورد حجة إبراهيم عليه السلام: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم حين تعبدونهم؟ أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ وإذا كانت لا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع؛ فما الداعي إلى عبادتها؟ ألمجرد تمسك آبائكم القدماء بها؟

ويمكن للداعية أن يقتدي بشعيب عليه السلام مع قومه حين قالوا له: ﴿... أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود : ٨٧]؛ قائلاً لهم: أخبروني يا قوم، إن كنت على بصيرة وبرهان قاطع من ربي فيما أدعوكم إليه (وأنتم ليس لكم البرهان القاطع على صدق الأجداد والآباء)، وقد رزقني الله هذا الرزق الحسن الذي ترونه (ويحبّذ أن يأتي الداعية إلى وثيي القرى بهندام جيّد)[1]؛ فهل يُعقل أن أخالف أمر الله ونهيه وأعظم أوامره أن نوحده، وأعظم نواهيه أن نشرك به!

ويمكن للداعية أن يقتدي بيوسف عليه السلام وهو يدعو صاحبيه في السجن، من الأحسن أن تمارس هذه الطريقة عندما يجد الداعية قبولاً ولو مبدئياً من أهل القرية (أو الطائفة المدعوة)، قائلاً: يا قوم؛ أهذه الأوثان والمعبودات المتعددة في الذوات والصفات، التي لا تضرّ ولا تنفع

(١) أذكر أنه في إحدى رحلاتنا الدعوية بإحدى القرى التي اهتدى بعض أفرادها؛ كانت هناك معارضة كبيرة من سدنة الصنم على وجودنا في المكان. وكان معنا الشيخ محمد آدم عرب (مدير مكتب المنتدى الإسلامي حالياً. وقد كان وقتها مسؤولاً من قسم الدعوة). فدخل في نقاش مع السدنة حول عدم جدوى عبادة غير الله. فقال له أحد السدنة: هل إذا صرنا مسلمين سيزيد رزقنا؟ فقال لهم الشيخ محمد عرب: انظر إليّ الآن! (وكان الشيخ في حلة جميلة) هل تراني يبدو عليّ الفقر؟ فأسلم السادن من فوره.

خير للعبـــادة، أم الله الواحد المتفـــرّد بالألوهية والربوبية، المعبود بحق والغالب على كل شيء؟ ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأوثان ما هي إلا مجرد أســـماء لا حقيقة لها، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفســـكم، ما أنزل الله بها من سلطان، أنتم من سميتم هيفيسو إلهاً للرعد، هل الله هو الذي قال لكم هذا؟ أنتم من ســـميتم ساكباتا إلهاً للأرض! من أين لكم هذه التسمية؟ هل أمركم الله بأن تسموه هكذا؟ أهذا هو الدين الذي يرتضيه الله؟ ويورد الداعية أســـماء الآلهة المعبودة في المنطقة ويفندها اســـماً اسماً، وهي جمادات لا تســـمع ولا تُبصر، ولا تضرّ ولا تنفع، ما أوحى الله بعبادتها، وما أنزل بها من حجة أو برهان.

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ... الآيات [يوسف : ٣٩ – ٤٠].

يذكر الشيخ عبد الرحمن إدريس قصة واقعية حدثت معه وأحد عابدي هيفيسو، يقول: (كنا في قرية (فدبي) الذين يعبدون هيفيســـو، وكنت في مجلس للوعظ والإرشـــاد في وسط القرية تحت شـــجرة، فإذا برجل ثمل يترنح الميمنة والميســـرة إلى أن وقف أمام الجمع، يســـتهزئ بالمســـلمين والضيوف الذيـــن قدموا إليهـــم – يقصدنا –، وتعجـــب كل أهل القرية من تصرفه، ثم انتهى به الأمر إلى أن جلس بجانبنا يســـتمع إلى المواعظ التـــي كانت تدور حول الآيـــات الكونية، ووجوب إفراد المولى ســـبحانه بالعبادة، وعدم نفع الأوثان والنصب وزيادتها لأصحابها رهقاً وتعباً. واختتمنا مجلسنا ووعدناهم بالعودة غداً.

ثم لمـــا جئنا فوجئنا بـــأن أول القوم حضوراً هو ذلك السكران، لكنه بدا لنا اليوم بحالة طيبة وذهن صـــاف قائلاً: لقد فهمـــت كل ما قلتموه بالأمس ووعيته، وأنا اليوم أريد أن أعلن إسلامي، وأن أخبركـــم عما أعرف حول هذه الأوثان. فمن العجب أنه أول من أســـلم في القرية بأســـرها، وأقمنـــا أول مصلى في القرية إلـــى جوار بيته، على قطعة أرض جادت بها نفسه في سبيل هذا الدين، فأسميناه أبا بكر).

المصادر الأوليّة:

١ – النحوي، إبراهيم أبو بكر، ٢٠٠٤م.

٢ – أزياب جبريل، ٢٠٠٤م.

٣ – غمادوكو زبير، ٢٠٠٤م.

٤ – ناصر الحسن، ٢٠٠٤م.

٥ – شعيب الحسن، ٢٠٠٤م.

٦ – محمـــد آدم عرب، مديـــر مكتب المنتدى الإسلامي – توغو.

٧ – أحمـــد محمـــود، مدير مكتـــب المنتدى الإسلامي – بنين.

٨ – صالح الحســـن، مســـؤول الحـــج باتحاد مســـلمي توغو ورئيس قســـم الرعاية الاجتماعية بالمنتدى الإسلامي – توغو.

٩ – على سوسا – مسؤول شؤون المهتدين في اتحاد مسلمي توغو.

١٠ – ســـدنة وثن هوسا فودو، توغو – لومي إيبي كبوتا.

١١ – ســـدنة وثـــن هوســـا فـــودو: توغو – تابليغبو.

١٢ – قاضـــي المحكمة الوثنيـــة: توغو– على الطريق بين لومي – تابليغبو.

المراجع العربية:

١ – القرآن الكريم.

٢ – المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي.

٣ – أبحاث في السحر، مجموعة دراسات، ترجمة محمد أسليم، مكناس – مطبعة سندي، ١٩٩٥م.

٤ – بحث الجنس البشري عن الله، إصدار برج المراقبة، شهود يهوة.

٥ - ضـــرار عميـــر: مقـــال، جريـــدة البيان الإماراتية، العدد المنشور في ٢٠٠٢/١/٩م.

٦ - الرب واللـــه وجوجو (الأديان في إفريقية المعاصـــرة)، تأليـــف القس جاك مندلســـون، من الكنائـــس التوحيديـــة (uniturian churches) - ترجمة إبراهيم أسعد، ص ١٠٨.

٧ - د. آمـــال النور حامـــد، الجهد المبذول ذو الطبيعـــة الراقصة والانفعـــالات المصاحبة له في طقوس الزار، مجلة الآثار الســـودانية العدد الرابع، يوليو ٢٠٠٥م.

٨ - د. آمـــال النـــور حامـــد: الـــزار مفهوماً أنيمياً.

٩ - أسامة يس: المعاني.

١٠ - محمـــد الجوهري: علـــم الفلكلور، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٠م.

١١ - بريتون ســـاكس لويد: إفريقيا في عصر التحـــول الاجتماعي- ترجمة شـــوقي جلال، كتاب عالم المعرفة رقم ٢٨، أبريل ١٩٨٠م.

اللغة العربية في إثيوبيا

خلفيات الانتشار وعوامل الانحسار

د. عمر عبد الفتاح (*)

■ مقدمة:

إثيوبيا من الدول التي تتعدد فيها اللغات واللهجات، ويتراوح عدد اللغات الوطنية بها ما بين ٧٠ – ٨٠ لغة، ومن بين هذه اللغات هناك أربع أو خمس لغات ذات أهمية كبيرة، وهذه اللغات تنال أهميتها إما بسبب عدد متحدثيها كلغة أمّ، وإما بسبب أهميتها السياسية والثقافية والدينية، وإما بسبب حجم استخدامها كلغة ثانية.

وتأتي اللغة الأمهرية في مقدمة هذه اللغات، فهي اللغة الرسمية لدولة إثيوبيا، وهي لغة الإدارة والمصالح الحكومية، كما تُستخدم في المدارس الحكومية وخاصة في مراحلها الأولى، وتصدر بها غالبية الصحف في إثيوبيا. وتُعد اللغة الأمهرية اللغة الأم لما يقرب من ١٠ – ١٢ مليون نسمة[١]، وذهب بعضهم إلى أن عدد متحدثيها يصل إلى ٣٠ مليون نسمة تقريباً[٢]، وكذلك تعد لغة ثانية لقطاع عريض من الإثيوبيين، وربما تكون اللغة الثانية لبقية الشعب الإثيوبي؛ حيث تُعد اللغة الأمهرية هي لغة التعامل Lingua franca بين سكان إثيوبيا.

ومن اللغات المهمة أيضاً اللغة الأورومية، وهي لغة قبائل الأورومو (الجالا)، ويزيد عدد متحدثيها عن ٧ ملايين متحدث[٣]، كما تُعد اللغتان التيجرينية والصومالية من اللغات المهمة أيضاً في إثيوبيا.

أما باقي لغات إثيوبيا؛ فإنها تشمل العديد من اللغات التي تتحدثها فئات صغيرة، غالباً ما تتكون الواحدة منها من عدة آلاف، وهناك حوالي ١٢ لغة محلية في إثيوبيا، يتحدث بها أكثر من مائة ألف متحدث كلغة أم لكل واحدة منها[٤]، ومن هذه اللغات اللغة العفرية والهررية والجوراجية والبيجا وغيرها.

وبالإضافة للغات المحلية الإثيوبية؛ هناك عدة لغات أجنبية ذات أهمية ومكانة خاصة في إثيوبيا، وتأتي اللغة الإنجليزية على رأس هذه اللغات من حيث الأهمية، فعلى الرغم من العدد القليل الذي

(*) مدرس بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة القاهرة.

(1) Appleyard, David, «Colloquial Amharic», p.2. وانظر أيضاً: Ferguson, C.A., «The Role of Arabic in Ethiopia», p.112)

(٢) المهدي، فايز محمد: الإذاعات المصرية الموجهة إلى شرقي أفريقيا، ص ٦٨.

(3) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p.12.

(4) Ibid, p.12.

يتحدثها كلغة أم في إثيوبيا؛ فإنها تتمتع بمكانة كبيرة، حيث تُعد اللغة الرسمية الثانية لإثيوبيا، فهي لغة التعليم في المدارس الثانوية الحكومية، وفي التعليم الجامعي، كما أن لها أهمية كبيرة في مجال التجارة والاتصالات الدولية[1]، ويمكننا أن ننظر إليها من هذه الناحية كإحدى اللغات المهمة في إثيوبيا.

كذلك تتمتع اللغة الإيطالية بأهمية ما في إثيوبيا، فقد دخلت إثيوبيا منذ ما يقرب من قرن من الزمان، واستُعملت في عدة مجالات مهمة، فقد صارت لغة وطنية لعدد من الإيطاليين الذين استقروا في إثيوبيا واستوطنوا بها، ولغة ثانية لعدد من الإثيوبيين، كذلك تم استعمالها لغة للتعامل في مجال العمل والصناعة[2].

أما اللغة العربية؛ فإنها تتمتع بمكانة متميزة على الخريطة اللغوية لإثيوبيا، فقد استقرت اللغة العربية في إثيوبيا منذ وقت طويل، يسبق دخول اللغات الأوروبية إلى إثيوبيا، وتحدّث بها عدد كبير من الإثيوبيين، وانتشرت بينهم انتشاراً كبيراً.

وفي السطور التالية ستتناول هذه الورقة البحثية وضع اللغة العربية في إثيوبيا، حيث ستبدأ بإلقاء الضوء على الخلفية التاريخية لانتشار اللغة العربية في إثيوبيا (مراحل الانتشار، عوامل الانتشار، مظاهر الانتشار)، ثم تنتقل إلى بيان الوضع الحالي للغة العربية في إثيوبيا، واستخداماتها المختلفة، ووضعها في وسائل الإعلام الإثيوبية، وفي التعليم، ويلي ذلك الحديث عن أسباب انحسار اللغة العربية في إثيوبيا، ومعوقات انتشارها، وتختتم الورقة بالخاتمة والخلاصة.

■ الخلفية التاريخية لانتشار اللغة العربية في إثيوبيا:

مرت اللغة العربية بمرحلتين أساسيتين من الانتشار في إثيوبيا؛ المرحلة الأولى هي مرحلة التهيوء، وتشمل الفترة السابقة لظهور الإسلام حتى بدء انتشاره الحقيقي في إثيوبيا.

والمرحلة الثانية هي مرحلة الازدهار، وهي الفترة التي بلغ الإسلام فيها أوج ازدهاره وانتشاره، وشهدت الحبشة (إثيوبيا) قيام ممالك إسلامية بها، وهذه المرحلة شهدت ازدهاراً حقيقياً للغة العربية في إثيوبيا.

أولاً: مرحلة التهيوء:

عرفت اللغة العربية طريقها إلى الحبشة منذ فترة بعيدة، فالجوار الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والحبشة أدى إلى قيام علاقات متعددة بين الجانبين، وقد ساعد على ذلك أن الفاصل بينهما هو البحر الأحمر الهادئ، والذي تضيق شواطئه وتتقارب، وتكاد يلامس بعضها بعضاً عند مضيق باب المندب.

وقد تبادل الجانبان العلاقات، فقامت علاقات تجارية وسياسية وهجرات متبادلة؛ مما أحدث نوعاً من التأثير والتأثر، فقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى الحبشة وأثرت فيها أيّما تأثير؛ حيث كان هؤلاء المهاجرون أكثر تقدماً ورقياً من أهل البلاد الأصليين، فأثّروا في المناطق التي نزلوا بها؛ حتى أن اسم الحبشة ذاته مأخوذ من اسم إحدى هذه القبائل العربية المهاجرة إلى الحبشة، والتي تسمى (حبشة) أو (حبشات)[3]، كما أن لغة الحبشة القديمة (اللغة الجعزية) اكتسبت اسمها من اسم إحدى القبائل العربية المهاجرة، وهي قبيلة (الأجاعز) أي الأحرار[4].

كذلك قامت علاقات تجارية بين الجانبين، فقد كانت الحبشة منذ أقدم الأزمنة سوقاً تجارية مهمة، وكانت مورداً لا ينضب لتجارة الرقيق الذي كان مطلباً من أهم مطالب الدول القوية القديمة، كما كانت غنية بالأخشاب والتوابل وسن الفيل والجلود.

(1) Ibid, p. 300.
وانظر أيضاً: Ferguson, C.A., «The Role of Arabic in (Ethiopia)», p.115
(2) Ibid, pp. 171 - 170.

(٣) طرخان، إبراهيم علي: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، ص ٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٧.

وقد قام التجار العرب، وبخاصة اليمنيون، بدور كبير في تصريف هذه التجارة، فقد اتخذوا من ساحل أفريقيا الشرقي موطناً لهم، وعملوا على نقل هذه المواد إلى الدولة الرومانية الشرقية عبر مكة ويثرب، وإلى الدولة الفارسية عبر اليمن وحضرموت[1].

وقد تحولت هذه العلاقات إلى علاقات سياسية وحربية في كثير من الفترات، حيث عملت الحبشة على حماية طرق تجارتها، فغزت اليمن أكثر من مرة، واحتلتها في الفترة ما بين سنة ٣٠٠ - ٣٧٨ م، حتى استطاع اليمنيون طرد الأحباش، وكرر الأحباش الأمر مرة أخرى، واستمرت العلاقات بين الجانبين في توتر وشد وجذب لمدة طويلة حتى قبيل ظهور الإسلام.

ويلاحظ أن اللغة العربية في هذه المرحلة لم يتعد استخدامها في الحبشة نطاق المعاملات التجارية مع العرب، ولم تتجاوز الساحل الشرقي للحبشة، ولم تتوغل داخلها؛ ولذا يمكننا أن نعد هذه المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام بواكير وإرهاصات لدخول اللغة العربية إلى الحبشة وانتشارها.

ثانياً: مرحلة الازدهار:

مع ظهور الإسلام شهدت اللغة العربية مرحلة جديدة من مراحل الانتشار في إثيوبيا، حيث حمل الإسلام اللغة العربية معه حيثما حلَّ وأينما ارتحل، وسارت اللغة العربية بجانب الإسلام تنتشر حيث ينتشر وتستقر حيث يستقر، فمع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية بدأت قريش تضطهد المسلمين، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، واستقر المهاجرون المسلمون هناك فترة من الزمن، وإذا كانت هذه الهجرة لم تترك أثراً يذكر في نشر الإسلام أو نشر اللغة العربية في الحبشة، فإنها كانت بمثابة تعريف للأحباش بهذا الدين الجديد الوافد من جزيرة العرب.

(١) الحيمي، حسن أحمد: سيرة الحبشة، ص ١٨.

وبعد أن انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية دانت بلاد العرب للمسلمين، وأصبحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية، فأسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر، وعبرت مجموعة قليلة من تجار العرب الساحل الغربي للبحر الأحمر، كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج على الساحل الحبشي[2].

وبدأ العرب في الظهور كقوة فتية على الساحة العالمية، كما أخذ الإسلام يسير بخطى واسعة، واستقر في الساحل الشرقي للحبشة، وتكونت للمسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقي لأفريقيا، وامتزج المسلمون العرب بالوطنيين وصاهروهم، فأخذ الإسلام واللغة العربية ينتشران تدريجياً، واعتنق كثير من سكان الحبشة الإسلام، مثل قبائل الساهو والعفر في شرق الحبشة، والسيدامو وشوا في جنوبها، كما تأثرت به أيضاً القبائل الصومالية ودخل كثير من البيجا في الإسلام[3].

وكان كلما انتشر الإسلام في مكان أسرع إليه الفقهاء والعلماء، فأقاموا الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، وقد كان لهذه الحركة التعليمية أثر كبير في انتشار اللغة العربية بين هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام، حيث استخدموها لغة دينية ووسيلة لإقامة شعائر دينهم، فكان كل داخل في الإسلام يحفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته، ثم يمضي إلى تعلم اللغة العربية ليزداد تفقهاً في الدين.

كما استخدم الأحباش اللغة العربية لغة تعامل مع التجار العرب المسلمين، كما استخدمت اللغة العربية - لغة القرآن الكريم التي جعلها الإسلام

(٢) طرخان، إبراهيم علي: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، ص ٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص ص ٢٩ - ٣٠.

لغة عالمية للتفاهم – لغة تعامل (Franca Lingua) مشتركة بين هذه القبائل؛ لأن كل قبيلة من هذه القبائل لها لغتها الخاصة بها، والتي لا تفهمها القبائل الأخرى، فأضفت اللغة العربية على هذه القبائل نوعاً من الوحدة الثقافية.

ولم يتوقف انتشار اللغة العربية على الساحل الشرقي للحبشة فقط بل امتد إلى داخل الحبشة نفسها، حيث حملها التجار العرب والدعاة والمعلمون إلى الداخل، وحملتها القبائل العربية المهاجرة والطرق الصوفية إلى أعماق الهضبة الحبشية.

وقد شهدت اللغة العربية مرحلة من الانتشار والازدهار الكبير، وقد ارتبط ذلك بالتوسع الإسلامي الكبير في الحبشة، ومن أبرز مراحل التوسع الإسلامي في الحبشة المدة ما بين القرنين ١٠ – ١٢ م؛ إذ تُعد هذه المدة مرحلة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة، حيث ظهرت الممالك الإسلامية في الحبشة، وشهدت ازدهاراً لنشر العقيدة الإسلامية، وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية داخل الوطن الإثيوبي، وهذه الممالك اشتهرت وذاع صيتها وعُرفت باسم (ممالك الطراز الإسلامي)، واشتهرت في هذا الطراز إمارات سبع هي: أوفات، داراداو، أرابيني، هدية، شرخا، بالي، دارة.

وقد اتسم تكوين هذه الممالك بصفة عامة بالطابع السلمي التجاري؛ إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية، وقد ارتبطت هذه الممالك بالعالم الإسلامي الخارجي عن طريق التجارة والحج، وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة ودمشق والقاهرة[١]. وقد اهتمت هذه الممالك بالتعليم الإسلامي، فأُنشئت المدارس المختلفة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية، بالإضافة إلى تدريس العلوم الإسلامية؛ كالفقه والحديث والتفسير وغيرها.

وقد انتشرت اللغة العربية في هذه الممالك بشكل كبير، فكان أهاليها يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم المحلية، فكان أهل أوفات مثلاً يتحدثون العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية[٢]، كما ذكر أحد الكتاب أنه في أثناء زيارته لمدينة داراداو وجد أن اللغة العربية في هذه البلدة هي اللغة السائدة، وأنها اللغة الأولى التي يتكلم بها أهلها حتى النساء والأطفال الصغار بفصاحة، حتى يخيل إليك إن سمعتهم أنك في بلد عربي[٣].

وشهدت اللغة العربية مرحلة أخرى من الازدهار في القرن السادس عشر، وهذه المرحلة ارتبطت بالموجة الجديدة لانتشار الإسلام، فقد شهدت حركة انتشار الإسلام أكبر قوة لها مع ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم الذي استطاع توحيد مسلمي إثيوبيا، وأخذ يستولي على المدن الإثيوبية الواحدة تلو الأخرى، حتى دانت له البلاد بالولاء والطاعة، ودخلت أغلب أقاليم إثيوبيا في طاعته وتحت سيطرته ما عدا أجزاء محدودة منها، واستمر جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم حوالي ١٥ عاماً قبل أن يتدخل البرتغاليون في ساحة الصراع والأحداث التي انتهت بمقتله.

وبدأت سلطة المسلمين بعد ذلك في الضعف والتقلص؛ بعد أن وصلت إلى أوج ازدهارها وأقصى توسعها، وكان لهذه المرحلة من التوسع أثر كبير في توطيد قواعد الإسلام ونشر اللغة العربية في أنحاء إثيوبيا، حيث امتد الإسلام ووصل إلى أرض ومناطق لم يكن قد وطئها من قبل.

وقد شهدت اللغة العربية نهضة أخرى في القرن التاسع عشر في أثناء عصر الفوضى الذي ساد الحبشة، فقد كان الإسلام في أول القرن التاسع عشر يمر بفترة ركود، فَقَدَ فيها حماسه ونشاطه في التقدم والانتشار، ولكنه استعاد نشاطه من جديد في تلك الفترة، وتمكنت مدينة هرر من

(١) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) العبودي، محمد بن ناصر: في إفريقية الخضراء، ص ١٥٨.

استعادة نشاطها كمركز للإشعاع الإسلامي، وانتشر الإسلام في منطقة عروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما مملكة الحبشة نفسها (فوق الهضبة الحبشية)؛ فقد بلغ انتشار الإسلام فيها مبلغاً كبيراً عن طريق إسلام قبائل الجالا (الأورومو) الذين استقروا فوق الهضبة[1].

وإذا كان التعليم الإسلامي قد انحصر وجوده، منذ عهد بعيد، في المدن الساحلية ومدينة هرر فقط؛ فإنه في خلال القرن التاسع عشر كان للنهضة الإسلامية أثر كبير في انتشار الإسلام واللغة العربية في كل الأنحاء، حيث قام المشايخ بتأسيس جميع أنواع المدارس في المدن والمراكز الإسلامية[2]، وذلك من أجل تعليم الدين الإسلامي واللغة العربية.

■ عوامل انتشار اللغة العربية في إثيوبيا:

هناك عدة عوامل تضافرت معاً وأدت إلى انتشار اللغة العربية في إثيوبيا؛ من أهمها:

١ - العامل الديني:

يأتي العامل الديني في مقدمة عوامل انتشار اللغة العربية في إثيوبيا، فقد أخذ الإسلام ينتشر شرقاً وغرباً، فدخلت بلاد العرب في الإسلام، ولحقت بها الشام والعراق وفارس وغيرها من البقاع، وسارت اللغة العربية مع الإسلام جنباً إلى جنب، فحيثما انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية، فمع اعتناق الفرد للدين الإسلامي لا بد له من الإلمام، على الأقل، ببعض الآيات القرآنية حتى يؤدي بها صلاته وواجباته الدينية؛ ولذلك فإنه لا بد أن يكون على علم ولو ضئيل باللغة العربية، أما مَن يريد أن يفهم دينه ويتبحر فيه، فلا بد له من الإلمام الجيد باللغة العربية حتى يستطيع قراءة القرآن الكريم وفهمه، وقراءة شروحه وتفاسيره، وبهذه الطريقة حمل الإسلام اللغة العربية معه حيثما حل وأينما ارتحل؛ على نحو يجعل للعربية درجة من الانتشار في كل المناطق التي تضم جماعات مسلمة، ولم تكن الحبشة بمعزل عن هذا الأمر، فانتشار الإسلام بها أدى إلى انتشار اللغة العربية.

٢ - دور التجار:

أدى التجار دوراً قوياً في انتشار اللغة العربية في إثيوبيا، فإذا كان بعض التجار العرب قد استقروا قبل الإسلام على الساحل الشرقي للحبشة وعملوا في التجارة؛ فإنه بعد الإسلام كثر عددهم بشكل كبير، وأقاموا مراكز استقرار لهم على طول الساحل، كما نشأت كثير من المدن الساحلية التي تحولت إلى مراكز تجارية مهمة.

ولم يكن من المعقول أن يظل النفوذ العربي الإسلامي حبيساً في هذه المدن الساحلية، بل كان لا بد أن ينفذ إلى المناطق الداخلية، فكان هؤلاء التجار هم الوسيلة والعدة في نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية، فكانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية التماساً للتجارة، ويقيمون بها بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد، وفي أثناء إقامتهم كانوا يخالطون الناس ويتعاملون معهم وينشرون الإسلام، وهو ما يستتبع نشر اللغة العربية.

كما كانت هذه المدن الساحلية أسواقاً ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليين لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجون إليه، أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة الإسلامية والثقافة العربية من قريب؛ مما يدفعهم إلى اعتناق الإسلام ومن ثم نشره بين ذويهم إذا عادوا لبلادهم.

كما أن المعاملات التجارية في مثل هذه الأسواق كانت تتم في الغالب باللغة العربية أو بالعربية المختلطة بلغات البلاد المحلية؛ مما أتاح لهؤلاء الأفراد أن يعرفوا قدراً من اللغة العربية من

(١) غيث، فتحي: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) حسن، إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، ص ١٦٢.

خلال هذه المعاملات؛ مما كان له أثر ما في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين، حتى إذا ما اعتنقوا الإسلام صار واجباً عليهم الإلمام ولو بشكل قليل باللغة العربية.

كما قام العديد من التجار الأثرياء بفتح الكتاتيب والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية، كما كانوا يرسلون الطلاب المتفوقين إلى الحرمين أو دمشق أو القاهرة لإتمام تعليمهم[١]، وكان لهذا الأمر أثر كبير في نشر اللغة العربية في إثيوبيا.

٣ - دور الهجرات العربية:

كان للهجرات العربية وتحركات القبائل دور مهم في نشر اللغة العربية في إثيوبيا، فقد خرجت هجرات متعددة من القبائل العربية بعد هجرة المسلمين الأولى فقصدت الحبشة واستقرت بها، ومن هذه الهجرات هجرة أقوام من ربيعة وقحطان واستقرارهم في مناطق البيجا[٢]، كذلك هاجرت أقوام من قبيلة بني مخزوم القرشية، وأقامت إحدى الممالك الإسلامية بزعامتها في منطقة شوا الشرقية في نهاية القرن التاسع الميلادي تقريباً، وقد هاجر أسلاف هذه الأسرة عبر البحر الأحمر في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣].

كذلك هاجر العديد من المسلمين لأسباب اقتصادية أو سياسية من شبه الجزيرة العربية أو من مصر ووصلوا إلى الحبشة، فبعد قيام الخلافة الأموية وفي أثناء تثبيتها لحكمها في الحجاز هاجر العديد من العرب فراراً من الأمويين، وتكررت مثل هذه الهجرة وعلى النمط نفسه عندما قامت الخلافة العباسية، ففر كثير من معارضيها وانتشروا في شمال أفريقيا والأندلس، ومنهم عدد لا بأس به وصل إلى الشاطئ الإفريقي[٤]، ومنهم من توغل إلى الحبشة.

ولم تتوقف الهجرات العربية عند ذلك التاريخ فقط بل توالت واستمرت على مدار السنين؛ نتيجة للجوار الجغرافي أو نتيجة للظروف السياسية أو للعوامل الطبيعية، وإن أخذت شكلاً أقل حدة وأقل تدفقاً من ذي قبل، حيث يذكر فيرجسون أن هذه الهجرات استمرت، حتى أنه يذكر أن هناك عدداً من المجموعات المسلمة المتحدثة بالعربية نزحت من السودان إلى إثيوبيا في القرن التاسع عشر[٥].

وكان للهجرات دور مهم في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين؛ نظراً لأن هذه القبائل العربية اختلطت بالسكان الأصليين واندمجت معهم وصاهرتهم، كما أن هذه القبائل كانت على قدر من التقدم والرقي؛ مما جعلها من عناصر التأثير فيمن حولها من السكان الأصليين.

٤ - العامل الحضاري:

ومن العوامل التي ساهمت في نشر اللغة العربية في إثيوبيا أيضاً العامل الحضاري، وهذا العامل يعني أنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري متفوق بلغة أخرى حظها من ذلك التراث قليل؛ فإن الأمر ينتهي بتغلب اللغة الأولى وسيطرتها[٦]، وقد حدث هذا مع اللغة العربية في إثيوبيا؛ فإثيوبيا بها عدد كبير من اللغات المحلية ذات التراث الحضاري المتواضع، وقد اصطدمت هذه اللغات باللغة العربية التي كانت في تلك الفترة لغة الحضارة الإسلامية، الحضارة التي ازدهرت في العصر الأموي والعباسي وبلغت شأناً كبيراً، وأدى ذلك إلى سيطرة اللغة العربية فأصبحت هي لغة التعامل.

(١) محمود، حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص ص٤٣١ - ٤٣٢.
(٢) طرخان، إبراهيم علي: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، ص ٣١.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٢.
(٤) غيث، فتحي: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص ٧٦.
(5) Ferguson,C.A.«The Role of Arabic in Ethiopia» p.118.
(٦) محمود، حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص٥٢.

٥ – عامل المصلحة الشخصية:

كما أن هناك عاملاً آخر جعل للعربية هذا الشأن في إثيوبيا، وهو عامل مصلحة الأفراد الشخصية، فالعربية هي اللغة التي يستطيع أن يصل الأفراد عن طريقها إلى الوظائف الرفيعة، وذلك عن طريق التعامل مع العرب المسلمين الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة، فقد كانوا سادة التجار والماسكين بزمام الحياة الاقتصادية في البلاد؛ لذا كان من مصلحة الأفراد الأحباش أن يتعلموها، ليس فقط لأنها لغة دينهم؛ ولكن لأنها أيضاً وسيلة للتكسب والارتزاق، بعد أن صارت الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافياً معيناً لا يشغلها سوى المسلمين المتعلمين؛ لذا فقد التزم كل مسلم بتعليم أبنائه القراءة والكتابة بالعربية[١].

وبالإضافة إلى هذه العوامل؛ فإن الطرق الصوفية والدعاة والمعلمين قاموا بجهود صادقة في نشر الإسلام واللغة العربية عن طريق التعليم والدعوة الصادقة، كما قاموا بإنشاء المساجد وفتح المدارس، كما صاهروا أهل البلاد واندمجوا فيهم.

■ مظاهر انتشار اللغة العربية في إثيوبيا:

لانتشار اللغة العربية في إثيوبيا مظاهر عدة؛ منها:

١ – اللغة العربية لغة تعامل:

تحدث كثير من الإثيوبيين اللغة العربية واحتفظوا بها إلى جانب لغاتهم الأصلية، فغالبية المدن الإسلامية اتخذت اللغة العربية لغة للدين والثقافة، واستخدموها لغة تعامل فيما بينهم؛ فأهل أوفات على سبيل المثال كانوا يتحدثون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية[٢]، كما أن اللغة العربية صارت اللغة السائدة أو اللغة الأولى في مدينة دارداو التي يتكلم بها أهلها، حتى النساء والأطفال الصغار، وتكلموا بها بفصاحة يخيل للمرء إذا سمعها أنه في بلد عربي[٣].

(١) المصدر السابق، ص ٤٨٨.

(٢) طرخان، إبراهيم علي: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، ص ٣٩.

(٣) العبودي، محمد بن ناصر: في إفريقية الخضراء، ص ١٥٨.

وقد ذكر أحد الزائرين الأوائل للحبشة في القرن التاسع عشر؛ أنه لاحظ أن عدداً كبيراً من الصوماليين والدناكل الذين لم يستقروا في قرى أبداً، لديهم القدرة على قراءة اللغة العربية وكتابتها، وقد ذكر مراقب آخر أنه في الغرب في جيما يوجد كثير من المسلمين يستطيعون قراءة القرآن الكريم باللغة العربية[٤].

٢ – اقتراض اللغات المحلية الإثيوبية كثيراً من الألفاظ العربية:

اقترضت اللغات المحلية الإثيوبية كثيراً من الألفاظ العربية، فقد كانت اللغة العربية لغة ذات تراث كبير وحضارة راقية؛ بينما كانت اللغات الإثيوبية أقل منها في هذا الجانب، فاقترضت منها الكثير من ألفاظ الحضارة وغيرها من المفردات، وقد أورد كثير من العلماء قوائم بهذه المفردات المقترضة من اللغة العربية[٥].

ولم يقتصر تأثير اللغة العربية على مسلمي إثيوبيا فقط بل تعداهم إلى النصارى أيضاً، وذلك عن طريق تأثير الكنيسة المصرية التي ارتبطت بها الكنيسة الحبشية، وقد تحقق ذلك التأثير عن طريق الكتب الدينية التي تمت ترجمتها ونقلها من العربية إلى الجعزية أو الأمهرية، وخاصة بعد أن حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية في مصر، فقد اتخذ الأقباط في مصر من اللغة العربية لغة للكنيسة، ونقلوا إليها الكتب الدينية، كما ألفوا باللغة العربية.

(4) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p.310.

(٥) أورد العلماء كثيراً من قوائم المفردات التي اقترضتها اللغات الإثيوبية من اللغة العربية، ومن المقالات التي تناولت هذا الجانب نجد:

Leslau,W.(1957): «Arabic Loanwords in Amharic», BSOAS, vol.19, pp.221 - 44.

Leslau,W.(1957): «Arabic Loanwords in Argobba», JAOS, vol.77, pp.36 - 9.

Witold Kazimierz Brzuski: «Arabic Loanwords in Amharic connected with extiles, Leather products and Jewelry» in African Bulletin No5 - 1974. -- : « Arabic Loanwords in the old and modern Amharic Language» in African Bulletin, No35 - 1988.

وبعد ذلك أخذ الأحباش ينقلون هذه الكتب من العربية إلى الجعزية، ثم إلى الأمهرية، فنقلوا قصصاً تروي أعمال الرسل، وقصة آدم وحواء، وكتباً عن معجزات السيد المسيح، وعجائب مريم العذراء، وحياة القديسين والشهداء وعجائبهم، كما تُرجمت كتب خاصة بخدمة القداس وطقوس العماد والدفن والصلوات والعظات وغير ذلك، كما نقل الأحباش كتباً في اللاهوت كانت قد دونت بالعربية، كما تُرجم عن العربية إلى الجعزية أيضاً العديد من الكتب في القرن السابع عشر للدفاع عن المذهب اليعقوبي[١]، واستمرت حركة الترجمة والنقل هذه مدة طويلة.

ونظراً لأن الأحباش النصارى ظلوا قروناً عديدة ينقلون آدابهم عن اللغة العربية؛ فقد كان طبيعياً أن تؤثر اللغة العربية في لغة المترجمين إلى حد بعيد، حيث ظهرت في الكتب المترجمة إلى الحبشية آثار عربية واضحة في كثير من العبارات والصيغ والألفاظ، كما تظهر في هذه النصوص الحبشية عبارات أخذها المترجمون الأحباش بنصها كما هي في اللغة العربية، ومن هذه الألفاظ: الحبس، الحكيم، المنار، القارورة، الوباء، الخف، الورد، الجنين، ضابط الكل، الدر، وغيرها من الألفاظ العربية[٢]. وبدون شك فإن هذا يوضح مدى تأثر الأحباش النصارى بالثقافة القبطية العربية.

٣ - كتابة اللغات الإثيوبية بالحرف العربي:

تمت كتابة كثير من اللغات المحلية الإثيوبية بالحرف العربي، فقد كتبت اللغة الهررية بالحرف العربي، وهي لغة يُتحدث بها في مدينة هرر في شرق إثيوبيا، واسمها المحلي أدارAdare . وعلى الرغم من أنها محاطة من جميع الجهات بلغة الجالا (الأورومو) والصومالي، وهذه اللغات تركت أثرها في اللغة الهررية، ولكن التأثير الكبير في مجال المفردات أحدثته اللغة العربية، ويرجع ذلك إلى التأثير الإسلامي الطويل فيها، حيث تعد مدينة هرر أول مدينة إسلامية في إثيوبيا[٣].

كذلك كتب الصوماليون في الحبشة لغتهم بالحرف العربي، كما أن متحدثي لغات العفر والبيجا من الجماعات البدوية المسلمة يفضلون استخدام العربية كلغة مكتوبة لهم[٤]. كما استخدم الحرف العربي في كتابة اللغة الأورومية (لغة الجالا) منذ زمن بعيد في كتابة النصوص الدينية والأذكار والمدائح[٥].

٤ - كتابة مؤلفات العلماء الأحباش باللغة العربية:

ظهر العديد من العلماء والفقهاء من بين المسلمين الأحباش، نبغوا في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، وبلغوا فيها شأناً كبيراً، حتى إنهم وضعوا العديد من المؤلفات بلغاتهم المحلية وباللغة العربية أيضاً، ومن هؤلاء العلماء الشيخ سيد فقيه زبير، من ياجو (ت ١٢٤٢هـ)، وضع أربعين مقالة تعليقية على الآجرومية، وجمال الدين محمد، من أنّا Anna (ت ١٨٨٢هـ)، وضع كتاباً كاملاً في الفقه بعنوان (كفاية الطالبين في معرفة مهمات الدين)، والشيخ إبراهيم عبد الرازق الذي ألف تعليقات على ألفية بن مالك، والشيخ جوهر بن حيدر، من شونقي، وضع كتاباً في الفقه بعنوان (عناية الطالبين)، كما كتب الشيخ محمد أمان من داري تعليقاً على الآجرومية بعنوان (المقاصد الوافية في شرح الآجرومية)[٦].

(١) عابدين، عبد المجيد: بين الحبشة والعرب، ص ص ٢٣١ - ٢٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٧.
(3) Ullendorff, E. «The Ethiopians», p.130 .
(4) Hess, Robert, «Ethiopia, The modernization of Autocracy». pp. 18 – 19 .
(٥) محمد، حسن مكي: الأورومو (الجالا) دراسة تحليلية، ص ٩٠.
(6) Ahmed, Hussein, «Traditional Muslim Education in Wallo», p.101.

ومن العلماء المشهورين أيضاً الشيخ حسن بن حبيب الحنفي الجبرتي من والو، وله مؤلفات ومصنفات كثيرة؛ منها (تفسير القرآن الكريم)، (شرح وقاية الرواية)، (شرح كنز الدقائق)، (شرح مختصر القدوري)، وشرح تحفة الملوك الذي سماه (منهج السلوك)، وله تصنيفات وشروح أخرى كثيرة[1].

■ الوضع الحالي للغة العربية في إثيوبيا:

واجهت اللغة العربية هزات متعددة ومعوقات كبيرة، أدت إلى تراجع مكانتها وتقلص انتشارها، وعلى الرغم من ذلك فما تزال تحتفظ بمكانة ووضع متميز في إثيوبيا، ولا يزال لها نوع من الوجود على الساحة الإثيوبية، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - اللغة العربية لغة دين:

لا تزال اللغة العربية هي اللغة الدينية لمسلمي إثيوبيا، فعدد المسلمين الكبير لا يزال من أهم عوامل استقرار اللغة العربية هناك وثباتها، والعربية هي لغتهم المقدسة، لأنها لغة القرآن الكريم، وهي اللغة المستخدمة في إقامة شعائرهم الدينية، وتعلمها ملازم لحفظ القرآن الكريم وفهمه، وضروري لفهم تعاليم الإسلام من مصادره الأساسية.

ويشير فيرجسون إلى دوراللغة العربية في إثيوبيا فيذكر أن المسلم بصرف النظر عن لغته الأم، لا بد له من الإلمام ببعض العبارات العربية، مثل الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، أو عبارة التحية (السلام عليكم)، أو البسملة أو غيرها، كما يجب عليه حفظ الفاتحة وبعض الآيات القرآنية باللغة العربية حتى يستطيع أن يؤدي صلاته، ومن أراد أن يزداد تفقهاً في شؤون دينه فعليه أن يزداد علماً باللغة العربية؛ ليطلع على المؤلفات الدينية في الفقه والشروح والتفاسير والحديث وغيرها.

ولذا نجد أن الأفراد يختلفون في مدى إلمامهم وإتقانهم للغة العربية، فمنهم من يفهمها ويتحدثها بشكل تام، ويستطيع استخدامها في الحياة اليومية، ومنهم من يستطيع تلاوة القرآن الكريم والحديث في الأمور الدينية، ويمكنه فهم الخطب باللغة العربية؛ لكنه لا يستطيع استخدامها في حياته اليومية، ومنهم من تقتصر معرفته بها على إقامة الشعائر الدينية فقط، ويتوقف كل ذلك على مقدار ما تعلمه من اللغة العربية في المساجد أو في المدارس الإسلامية التي يتم فيها تعليم اللغة العربية[2].

٢ - اللغة العربية لغة تعامل:

اللغة العربية إحدى أهم لغات التعامل في إثيوبيا، حيث تُعد هي واللغة الأمهرية من لغات التعامل والاتصال واسعة الانتشار في إثيوبيا[3]، وتظهر هذه الأهمية بشكل خاص بين مسلمي إثيوبيا الذين يتحدثون لغات مختلفة، فالعربية هي وسيلة التفاهم المشتركة بينهم جميعاً، ولها وجود واضح في المدن الإسلامية مثل هرر، وجيما، وعروسي، وغيرها من المدن الإسلامية بإثيوبيا، ويجب هنا أن نشير إلى أنه من النادر أن تجد من الإثيوبيين غير المسلمين من يتحدث اللغة العربية بوصفها لغة تعامل، فهي مرتبطة إلى حد كبير بالأقاليم والجماعات المسلمة في إثيوبيا.

واللغة العربية المستخدمة في الحديث في إثيوبيا تميل إلى اللهجة اليمنية أو السودانية، ولكنها تتأثر أحياناً باللهجات المحلية، كما أن هناك عدداً من المسلمين الذين تأثروا باللغة العربية الفصحى نتيجة لدراستهم لها في المدارس أو المساجد أو عن طريق الإذاعة أو القراءة؛ فاستخدموها في معاملاتهم[4].

ولا تزال اللغة العربية مفهومة في الأسواق الإثيوبية بشكل كبير؛ بسبب سيطرة العرب قديماً

(١) إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني: أهل بلال، ص ٨٥.

(2) Ferguson, C.A., «The Role of Arabic in Ethiopia», pp.119 - 120.

(3) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p.12 ((36

(4) Ferguson,C.A., «The Role of Arabic in Ethiopia», pp. 120 - 121.

على التجـــارة الإثيوبية، والتي أدت إلى انتقال كثير مـــن المفردات العربيـــة في هذا المجـــال، والتي لا تزال موجـــودة حتى الآن، إلا أن وضع اللغة العربية بوصفهـــا لغة تعامل آخذ في التراجع أمام ســـيادة اللغة الأمهرية من ناحية، وأمام التقدم والانتشـــار الكبير للغة الإنجليزية من ناحية أخرى.

٣ - اللغـــة العربيـــة فـــي وســـائل الإعـــلام الإثيوبية:

تتمتع اللغة العربية بوجود ملحوظ على الساحة الإعلاميـــة الإثيوبية، فالإذاعـــة الإثيوبية تُخصِّص ســـاعة من إرســـالها تُقدم باللغة العربيـــة يومياً، وتتناول هذه الفترة الأخبـــار المحلية والعالمية، كما تتضمن بعض البرامج والأغاني العربية.

كمـــا تصدر عدة صحف إثيوبية باللغة العربية، مثل صحيفة (العلم) التي تصـــدر في أديس أبابا، ويزيـــد عمرها عـــن نصف قرن، ولـــم تتوقف عن الصدور منذ نشـــأتها في عـــام ١٩٤٢م حتى الآن، وهي صحيفـــة حكومية تصدر عـــن وزارة الإعلام الإثيوبية، والهـــدف منها إعلام الشـــعوب العربية والمجتمع الدولي بالنشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإثيوبيا، بالإضافة إلى تعزيز العلاقـــات الثنائية بين إثيوبيا وبلدان العالم العربي المجاورة[١].

وهناك صحف أخرى ومجلات عربية وإسلامية تصـــدر في إثيوبيا؛ مثل مجلـــة (بلال)، وهي مجلة إسلامية شـــهرية تعبر عن وجهة النظر الإسلامية والمجتمع المســـلم في إثيوبيـــا، وكذلك تصدر مجلة (الرسالة)، وهي مجلة إســـلامية تصدرها جمعية إســـلامية باللغتين العربية والأمهرية، وكان المجلس الأعلى للشـــؤون الإســـلامية قد أصـــدر صحيفة نصف شـــهرية باللغتين العربية والأمهرية، إلا أنها توقفت عن الصدور لأســـباب مالية[٢]. وبلا شك؛ فإن صدور مثل هذه الصحـــف يدل دلالة واضحة على أن اللغـــة العربية في إثيوبيا لها أرض وخلفية ثابتة؛ بحكم ذلك العدد الكبير من المسلمين، وبحكم الجوار العربي.

٤ - اللغة العربية في التعليم الإثيوبي:

ولأهمية الحديث عن وضـــع اللغة العربية في نظام التعليم الإثيوبي؛ فســـوف أتناوله بشـــيء من التفصيل، وأشـــير أولاً إلى أن إثيوبيا بها نوعان من التعليم:

١ - تعليم حكومي.

٢ - تعليم غير حكومي (محلي - خاص).

وتجدر الإشـــارة إلى أنه لا يتـــم تدريس اللغة العربية في أيٍّ من مراحل التعليم الحكومي، أما في التعليم غير الحكومـــي؛ فنجد أن اللغة العربية يتم تعليمها بشكل كبير في المدارس القرآنية التقليدية، وكذلـــك في بعـــض المدارس الإســـلامية الخاصة محدودة الانتشار.

ويلاحـــظ أن الهدف من تعليـــم اللغة العربية في إثيوبيـــا يختلف من منطقة إلـــى أخرى، ففي المناطق الريفية أو المناطـــق البدوية يكون الهدف دينيـــاً وثقافيـــاً في المقـــام الأول، من أجل تمكين الأطفال من تلاوة القرآن الكريم وقراءة النصوص الدينية الأخـــرى المكتوبة بالعربية. أما في المناطق الأكثر تمدناً؛ فإن اللغة العربية تستخدم لغة تعامل ووسيلة اتصال؛ على الأقل في المعاملات التجارية وفي تدوين الحســـابات أو كتابة العقود وما شابه ذلك[٣]، لذلك نجد أن مســـتوى إلمـــام الإثيوبيين المســـلمين باللغة العربية يختلف مـــن منطقة إلى أخرى.

وتـــدرّس اللغـــة العربية في مدارس تســـمى (المدارس القرآنيـــة)، وهي مدارس أهلية لا تخضع

(١) يلي، صادق: أديس أبابا زهرة إثيوبيا الجديدة، ص ص ٥٠ - ٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٢.

(3) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p. 350.

لإشـــراف الحكومـــة ولا تحظـــى باعترافها، وهي مدارس بدائية إلى حد كبير، وتنقسم الدراسة فيها إلى مرحلتين؛ هما:

أولاً: مرحلة التهجي Tehaji :

كلمـــة (تهجي) كما هو واضـــح كلمة ذات أصل عربـــي[1]، وهذه المرحلة تشـــبه إلى حد بعيد نظام التعليم الدينـــي الذي كان قائماً في كثير من البلاد العربية والإســـلامية، والذي يعرف في مصر، على سبيل المثال، باســـم (الكُتَّاب)، والذي لا تزال آثاره باقية حتى الآن في بعض القرى المصرية وغيرها.

وهذه المرحلة لها هدفان أساسيان هما:

١ - تعليم الحروف العربية.

٢ - قراءة القرآن الكريم.

ولتحقيق هذيـــن الهدفين لا بد أن يمر الطالب بعـــدة خطوات، ففـــي البدء يجب عليـــه أن يتعلم الحروف العربية، فتكتب على ألواح خشبية، ويقوم المعلـــم أو أحد التلاميذ القدامـــى بقراءتها، ويظل الطفل يرددها حتى يحفظها.

والخطـــوة التالية يتعلم فيهـــا الأطفال النقاط التي توضع فوق الحروف أو تحتها، ثم يتعلم الطفل النطق الصحيح للحروف، ثم يتعلم علامات الشكل الأربعة (الفتحة، الكســـرة، الضمة، الســـكون)، ثم يتعلم أصـــوات المـــد (ا ، و ، ي)، وهذه الخطوات مهمة جداً بالنسبة إلى هؤلاء الأطفال؛ لأن الهدف الرئيس في هذه المرحلة هـــو قراءة القرآن الكريم المكتـــوب مصحوبـــاً بهذه الحـــركات، والعربية لغة أجنبية لديهم، ومن ثم لن يســـتطيعوا أن يقرؤوا أو يكتبوا دون معرفة هذه الحركات.

وبعـــد ذلك يتعلـــم الطلاب كيفيـــة الربط بين الحـــروف، وكيفية قراءتها وكتابتها مجمعة[2]، وبعد ذلك يتدربون على قراءة الآيـــات القرآنية بطريقة التهجي، وربما اكتســـبت هذه المرحلة تسميتها من هـــذه العملية، حيث يبدأ الطالـــب بنطق الحروف وحركاتها واحـــد تلو الآخر، ثـــم يقرأها بعد ذلك معـــاً، فيبدأ بتحديد الحـــرف الأول من الكلمة، ثم يحدد الحركـــة، وبعد ذلك ينطق الصوت الناتج من اتحادهما معاً، ويتكرر هـــذا في الحرف الثاني ثم الثالث حتى تنتهي الكلمة، ثم ينطق الكلمة كلها دفعة واحدة.

وبعد مدة من التدريب ينتقل الطلاب إلى حفظ سور وأجزاء من القرآن الكريم، ويتمكن بعضهم من حفظ القرآن الكـــريم كاملاً، بينما تكتفي غالبيتهم بحفظ عـــدة أجزاء منه فقط، ويتوقفون بعدها عن الذهاب إلى المدرسة، وبذلك يصل تعليم الطفل إلى نهايته في هذه المرحلة[3].

ثانياً: المدارس العالية «علم» Ilm :

بعد أن ينهي الطلاب مرحلة التهجي يتوقف كثير منهم عن مواصلة الدراسة، وبخاصة الذين يسكنون المناطـــق الريفية والبدوية، ويكتفون بما حصلوه من معرفة، أما الطلاب الذين يريدون مواصلة دراستهم فإنهـــم يلتحقون بالمدارس الإســـلامية العالية التي تسمى (علم).

وفي هذه المرحلة يتم تقديم دراسة مكثفة للفقه الإسلامي، مع دراسة التوحيد والتفسير والحديث، وكذلك دراسة المنطق.

وحتـــى يتمكن الطلاب من دراســـة هذه العلوم وتحصيلها؛ فلا بد لهم من دراســـة النحو وقواعد العربية، ويعد النحو من أهم العلوم اللغوية التي يتم تدريســـها في هذه المرحلة، ومن الكتب التي تدرس في هـــذا الفرع: (الآجروميـــة) و(مطالعة العرب)

(١) تختلف تسمية مرحلة «التهجي» من منطقة إلى أخرى داخل إثيوبيا، فبينما تعرف باسم «التهجي» في والو وإيفات، نجد أنها تسمى «مجلس قرآن» **Mejilis Qoran** في مدينة هرر وجيما وإقليم عروسي، في حين تعرف باسم مدارس «الشيخ» **Sheikhy** في معظم المراكز المتمدنة.

(2) Ahmed, Hussein, «Traditional Muslim Education in Wallo», p.99.

(3) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p.352.

و(ألفية بن مالك) و(المجيب) و(مغني اللبيب)، كذلك هناك علوم لغوية أخرى يتم تدريسها؛ مثل الصرف والعروض والبيان والبديع والبلاغة[1].

وكما يكتفي معظم الطلاب في المناطق الريفية والبدوية بالمرحلة الأولى، يكرس عدد قليل في المناطق المتمدنة أوقاتاً لدراسة رسمية كهذه، حيث يعمل أغلب المسلمين بالتجارة، لكن معظمهم يتعلمون شيئاً من التفسير أو الفقه وغيره من العلوم الدينية الإسلامية في أوقات فراغهم في المساء، حيث يذهبون إلى المسجد ويستمعون إلى الدروس التي تلقى هناك[2].

ونظراً لأن المدارس القرآنية، المذكورة سابقاً والتي تقوم بتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، لا تفي بمتطلبات العصر الحديث، حيث إن مناهجها تخلو من المواد الدراسية الحديثة كالتاريخ، والجغرافيا، والكيمياء، واللغة الإنجليزية وغيرها، كما أنها لا تعلم الأطفال اللغة الأمهرية لغة الدولة الرسمية؛ فإنها لم تستطع أن تنافس المدارس الحديثة، ولم يعد لها مكان في نظام التعليم الحديث.

لذا أصبح من الواجب إيجاد مواءمة بين مناهج المدارس القرآنية ومناهج المدارس الحديثة في المناطق ذات الكثافة المسلمة، ومن أجل هذا ظهرت المدارس الخاصة التي تعرف باسم (مدرسة Madrasa)، وهذه المدارس عادةً ما تقوم بتعليم اللغة العربية وقراءة القرآن الكريم، بالإضافة إلى أنها تتبع مناهج وزارة التعليم ومقرراتها. وهذا النوع من المدارس منتشر إلى حد ما، سواء في القرى الصغيرة أو في المدن الكبيرة، حيث توجد ست مدارس منها في مدينة هرر، وعشرون مدرسة في ديرداو، وعشر مدارس في أديس أبابا، وأعداد صغيرة أخرى في غيرها من المدن[3].

لكن يُؤخذ على هذه المدارس ازدحام المناهج، فالطلاب في هذه المدارس يجب أن يتعلموا اللغة العربية والقرآن الكريم، بالإضافة إلى تعلم اللغة الأمهرية واللغة الإنجليزية، إلى جانب المواد الأخرى التي تُدرس في المدارس الابتدائية العادية، كذلك يُؤخذ على هذه المدارس أنها عادةً لا تقدم برنامجاً تعليمياً كاملاً، ونتيجة لذلك فإن الظاهرة السائدة هي أن يترك التلاميذ هذه المدارس في الصف الثالث أو الرابع، ويلتحقون بمدارس أخرى، من أجل تعليم أفضل، وفرص أكبر لاجتياز هذه المرحلة والوصول إلى المرحلة الثانوية.

وبالإضافة إلى هذين النوعين من المدارس التي تقوم بتعليم اللغة العربية (المدارس القرآنية، المدارس الإسلامية الخاصة)؛ يوجد نوع ثالث من المدارس، وهو المدارس الخاصة بالجاليات العربية والإسلامية في إثيوبيا، وهذه المدارس تابعة لبعض الدول أو الأفراد من العرب والمسلمين، وتقوم بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي بالإضافة إلى المواد الأخرى، وهذه المدارس ذات مستوى تعليمي أفضل من غيرها، وتتمتع بإمكانيات تعليمية متقدمة؛ لذلك تلقى إقبالاً كبيراً من مسلمي إثيوبيا.

■ أسباب انحسار اللغة العربية وتراجعها في إثيوبيا:

حينما نطالع الوضع الذي وصلت إليه اللغة العربية في إثيوبيا، ونرى مدى تراجع مكانتها والانحسار الذي ألمّ بها؛ يتبادر إلى أذهاننا تساؤل عن الأسباب التي أدت إلى ذلك الوضع!

لقد تضافرت عدة أسباب معاً وأدت إلى هذا التراجع، ويأتي على رأس هذه الأسباب تأثير اللغات الأوروبية والاستعمار، فبدءاً من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين حاول الاستعمار الأوروبي، الذي بسط سيطرته ونفوذه على غالبية دول القارة، الحيلولة دون انتشار الإسلام وتغلغل الثقافة العربية في أفريقيا، وبدأ الصراع بين الثقافتين العربية

(١) Ahmed, Hussein, «Traditional Muslim Education in Wallo», pp.100 - 101.

(2) Bender, M.L., «Language in Ethiopia», p. 353.

(3) Ibid, p. 360.

والأوروبية، وكان محل التنازع اللغة التي هي وسيلة نقل الثقافة[1].

وقد عمل الاحتلال الأوروبي على تأسيس امتداد لغوي وثقافي وفكري غربي له في أفريقيا، فانتشرت اللغات الأوروبية في دول القارة بشكل كبير، وحظيت اللغة الفرنسية بانتشار كبير في أفريقيا، حيث توجد أربع وعشرون دولة إفريقية تنتشر بها الفرنسية، وتعد اللغة الفرنسية اللغة الرسمية بجانب لغة أو لغتين في الدول التي كانت مستعمرات فرنسية، كما انتشرت اللغة الإنجليزية أيضاً، حيث توجد إحدى وعشرون دولة إفريقية تعد اللغة الإنجليزية فيها أكثر اللغات انتشاراً، وبعض الدول اتخذتها لغة رسمية لها، كذلك انتشرت اللغة الإسبانية واللغة البرتغالية في المستعمرات التي كانت تابعة لهما[2].

وإذا كان الاحتلال الإيطالي لإثيوبيا لم يؤد إلى نشر اللغة الإيطالية بها على نطاق واسع؛ نظراً لقصر المدة التي قضاها فيها، ولم تتح له الفرصة للقيام بمثل هذا التأثير الكبير؛ فإن الإيطاليين قد تركوا أثراً لغوياً غير هيّن، حيث انتشرت اللغة الإيطالية بين عدد من سكان إثيوبيا، واستُعملت الإيطالية لغة تعامل، وخاصة في مجال العمل والصناعة[3].

ولم تكن إيطاليا وحدها هي التي مارست دوراً في نشر اللغات الأوروبية في إثيوبيا، فقد سبقها في هذا المجال البرتغاليون، كما أن ظروف إثيوبيا السياسية أدت إلى تدخل قوى أجنبية أخرى، وبخاصة الإنجليز والفرنسيون، وكل قوة من هذه القوى عملت على نشر اللغات الأوروبية، كل حسب توجّهه، وكان كل ذلك على حساب اللغة العربية.

وقد لجأت القوى الاستعمارية إلى وسائل مختلفة لتحقيق أهدافها؛ من أهمها:

١ - إطلاق يد البعثات التنصيرية، وتخصيص الإمكانيات الكبيرة لها، وترجمة الإنجيل إلى كل اللغات الإفريقية المحلية، فتمت ترجمة الإنجيل إلى لغات إثيوبيا المحلية المختلفة، فتُرجم إلى الأمهرية والأوروميه والتيجرينية وغيرها من اللغات المحلية الأخرى.

٢ - محاولة تشويه صورة العلاقات العربية الإثيوبية من ناحية، والعلاقات الإسلامية بالنصارى في إثيوبيا من ناحية أخرى، وذلك عن طريق إظهار العرب كأنهم كانوا تجار رقيق ومستعمرين، والعمل على إحياء نزعة التعصب الديني بين المسلمين والنصارى في إثيوبيا. بالإضافة إلى إهمال المسلمين وحرمانهم من فرص التعليم وفرص العمل المناسبة؛ مما أدى إلى تأخرهم وتخلفهم.

٣ - تعطيل كتابة اللغات الإثيوبية التي كانت تكتب بالحرف العربي، واستبدال الحرف اللاتيني بالعربي، فتم التوسع في كتابة اللغات الإثيوبية بالحرف اللاتيني، كما حدث مع اللغة الصومالية في إثيوبيا، ولغة الأورومو، وكتابة هذه اللغات بالحرف اللاتيني يعني ربط هؤلاء الأقوام بالثقافة الغربية من ناحية، وفصل الإثيوبيين عن تراثهم المسجل بالحرف العربي، وعزلهم عن ماضيهم من ناحية أخرى.

٤ - فرض اللغات الأوروبية لغات للتعليم في المدارس الحكومية، وكان الهدف من ذلك القضاء على اللغة العربية نهائياً واستبدال اللغات الأوروبية بها، وقد حدث ذلك في إثيوبيا حينما تم إقرار اللغة الإنجليزية لغة للتعليم الحكومي في المرحلة الثانوية والتعليم العالي[4].

كذلك ساعدت السياسة اللغوية في إثيوبيا على سحب البساط من تحت أقدام اللغة العربية مما

(١) سليم، رجاء إبراهيم: التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٥، ص ٢٤.
(٢) المصدر السابق، ص ص ٢٩ - ٣٠.
(3) Bender. M.L., «Language in Ethiopia». p. 171

(٤) سليم، رجاء إبراهيم: التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٥، ص ص ٣٠ - ٣١.

أدى إلى تراجع مكانتها وضعف انتشارها، ذلك أنه تم منع استخدام اللغة العربية في المدارس الحكومية، كما صدرت قرارات تمنع استعمال اللغة العربية في المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين[1].

وكذلك تم فرض اللغة الأمهرية لغة للتعليم في المرحلة الأولى، وفرض اللغة الإنجليزية لغة للتعليم الحكومي في المرحلة الثانوية والتعليم الجامعي؛ مما أدى إلى تقلص المساحة التي كانت تحتلها اللغة العربية في كل أنحاء إثيوبيا، بعد أن كانت لغة العلم والثقافة.

والحقيقة أن انحسار اللغة العربية في إثيوبيا لم يكن فقط نتيجة لسياسة الاحتلال الأوروبي المعادية، ولا السياسة اللغوية المضادة التي اتُّبعت في إثيوبيا، وحدهما، وإن كان لهما الدور الكبير في هذا الجانب، فهناك عامل آخر له أهمية كبيرة، وهو الوضع الحضاري والثقافي للعرب، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقدم وتُرسخ أقدامها في أفريقيا كلها، كان العرب في حالة من التأخر والتخلف الحضاري، وقد أثر ذلك بشكل كبير في الدور الثقافي للعرب في هذه المنطقة، كما أدى إلى فقدان الكثير من الأرض التي كانت اللغة العربية قد كسبتها في الماضي، وخلاصة الأمر أن انتشار اللغات وتقدمها أمر مرهون بتقدم أصحابها وتفوقهم.

■ الخاتمة:

يجب أن نلاحظ أن إثيوبيا بها أرض خصبة لنشر اللغة العربية، وذلك لكثرة عدد المسلمين بها، كما أن غالبية هؤلاء المسلمين لهم شغف بالإسلام، وفي حاجة إلى معرفة شؤون دينهم، الأمر الذي لن يتحقق إلا بمعرفة ولو جزئية باللغة العربية؛ لذلك فإن عامل الإقبال على تعلم اللغة العربية موجود ولا يحتاج إلا لتفعيل واستثارة فقط.

ولكننا نلاحظ أيضاً أن هناك أمراً قد يعوق ذلك الإقبال، وهو ارتباط مصلحة الأفراد بتعلم اللغات الأوروبية، حيث إنها تتيح فرصاً أكبر للوصول إلى الوظائف الرفيعة في المجتمع، في حين ارتبطت اللغة العربية بالماضي، ويُنظر إليها كلغة دينية يقتصر دورها على إقامة الشعائر الدينية فقط، لذلك لا بد من وجود الحافز الذي يشجع الإثيوبيين على تعلم اللغة العربية، وذلك بأن تُخصص لهم المنح الدراسية في الجامعات العربية والإسلامية، على أن تكون هذه المنح في مختلف التخصصات، وليست مقصورة على العلوم اللغوية والدينية فقط.

كما يجب أن يزداد نشاط نشر الثقافة العربية في إثيوبيا عن طريق إيجاد مدارس عربية إسلامية ذات مستوى مرتفع؛ لأن المستوى المتواضع للمدارس الإسلامية في إثيوبيا لا يؤهل طلابها لمستوى علمي متقدم، ولن يتحقق ذلك إلا بنوع من التنسيق بين الجهود العربية والإسلامية وبين مسلمي إثيوبيا لإيجاد نوع من التعليم يضمن الحفاظ على الهوية الإسلامية لهم، ويساعد على نشر اللغة والثقافة العربية من جهة ثانية، ويخرج طلاباً على مستوى علمي لائق من جهة ثالثة.

كما يجب تزويد الإثيوبيين بالكتب العربية المتطورة، وإمدادهم بالمدرسين ذوي المستوى العلمي الجيد، كذلك يمكن افتتاح مراكز ثقافية عربية في إثيوبيا على غرار المراكز الثقافية الأوروبية والأمريكية.

وقد تبدو هذه الاقتراحات مكلفة مادياً، إلا أن ذلك يُعد أفضل استثمار للمال العربي والإسلامي؛ لأن هذا الاستثمار هو استثمار للعقول، وهذا الجهد والمال لن يذهب سدى لو استطعنا استثماره جيداً.

وفي النهاية يمكننا أن نقول باختصار: إن هناك صراعاً حضارياً ثقافياً بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة وبين الحضارة الأوروبية الأمريكية من جهة أخرى، والمنتصر فيه هو من تستطيع حضارته وثقافته وقيمه أن تستوعب الحضارات والثقافات الإفريقية، وتضيف إليها ما يخدم الأفارقة أنفسهم.

(١) العبودي، محمد بن ناصر: في إفريقية الخضراء، ص ١٥٩.

■ المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

١ - إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني (١٩٩٤): «أهل بلال»، الطبعة الأولى، الدار السودانية للكتب - السودان.

٢ - حجازي، محمود فهمي (بدون تاريخ): «علم اللغة العربية»، مكتبة غريب - القاهرة.

٣ - حسن، إبراهيم جسن (١٩٥٧): «انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى»، معهد الدراسات العربية - القاهرة.

٤ - الحيمي، حسن أحمد (١٩٥٨): «سيرة الحبشة»، القاهرة.

٥ - سليم، رجاء إبراهيم (١٩٨٩): «التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢إلى ١٩٨٥»، مركز البحوث والدراسات السياسية - جامعة القاهرة.

٦ - طرخان، إبراهيم علي (١٩٥٩): «الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن ص ص ٣ - ٦٨، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة.

٧ - عابدين، عبد المجيد (١٩٤٩): «بين الحبشة والعرب»، دار الفكر العربي - القاهرة.

٨ - العبودي، محمد بن ناصر (بدون تاريخ): «في إفريقية الخضراء»، دار الثقافة - القاهرة.

٩ - غيث، فتحي (بدون تاريخ): «الإسلام والحبشة عبر التاريخ»، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

١٠ - محمد، حسن مكي (١٩٨٧): «الأورومو (الجالا) دراسة تحليلية» في «دراسات إفريقية « ص ص ٨٧ ١٠٨- ، المركز الإسلامي الإفريقي - الخرطوم.

١١ - محمود، حسن أحمد (١٩٦٣): «الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا»، الجزء الأول، الطبعة الثانية - القاهرة.

١٢ - المهدي، فايز محمد (١٩٩٠): «الإذاعات المصرية الموجهة إلى شرقي أفريقيا»، المكتبة الثقافية (٤٦٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣ - يلي، صادق (١٩٩٤): «أديس أبابا زهرة إثيوبيا الجديدة»، في مجلة العربي - عدد ٤٢٩، ص ص ٤٢ - ٥٧، وزارة الإعلام - الكويت.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1 - Ahmed, Hussein (1988): «Traditional Muslim Education in Wallo» in «proceedings of the Ninth international congress of Ethiopian studies». pp. 94 -106. NAUKA publishers. MOSCOW.

2 - Appleyard, David (1995): «Colloquial Amharic». first published. Rutledge - New York .

3 - Bender, M.L. (1976): «Language in Ethiopia». Oxford University Press - London.

4 - Ferguson, C. A. , (1972): «The Role of Arabic in Ethiopia : A Sociolinguistic perspective.» In : J.B.Pride and Janet Holmes (Eds.) Sociolinguistics selected readings .penguin Books Ltd. England. pp.112124-.

5 - Hess, Robert (1970) "Ethiopia, The Modernization of Autocracy". first published. Cornel University .

6 - Ullendorf, E. (1960): " The Ethiopians, an Introduction to Country and People ".Oxford University – London.

الجفاف في أفريقيا..
القنبلة الموقوتة

محمد الزواوي

المياه عصب الحياة وشـريانها النابض، عليها تقوم الدول، وبدونها تشـتعل الحروب، فهي إكسير الحياة لمخلوقات الله على الأرض، قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٠].

معادلة المياه لها محددات كثيرة، فالمياه تعني الزراعـة والرعـي، ومن ثم ازدهـار الاقتصاد، فبسط السـيادة على المناطق المجاورة، وفقدان المياه يعني الموت، والنـزوح الجماعي، والهجرة، وانتشـار اللاجئين، وتصدير المشكلات إلى دول مجاورة، وقد تصل الأزمة إلى الانزلاق نحو شفير الحرب.

وتعد قارة إفريقيا من أشـد مناطق العالم جدباً، وأكثرها فقراً في مصـادر المياه، وكان للاحتلال الغربي لقـارة إفريقيا دور كبير في تصعيد أزمـة المياه فيهـا وتعميقها، فبعد أن نهب ثروات القارة وترك سكانها فقراء، قسّمها تقسـيماً جغرافياً يضمن تفجيـر الخلافات الدينية والعرقيـة والجغرافية، وكانت مصادر المياه محوراً أساسـياً في هذا التقسـيم؛ مما جعل الميـاه ومناطق الرعي مصـدراً للقلاقل والحروب بين العديد من دول إفريقيا لا سيما وسطها.

يتكون مخـزون المياه بالقـارة الإفريقية من البحيرات العظمى، وهي مجموعة من البحيرات العذبة، مثل بحيـرة فيكتوريا التي ينبع منها نهر النيل، وهي ثاني أكبر بحيرة مياه عذبة في العالم من حيث مسـاحة سـطحها، وبحيرة تانجانيقا، وهـي ثاني أكبر بحيرة في العالم من حيث حجم الميـاه وعمقهـا، وهناك بحيـرات أخرى أصغر حجماً، وهي بحيرات: تشاد، ومالاوي، وتوركانا، وألبرت، وكيفو.

وتتوسـط البحيرات العظمى الدول الآتية: بوروندي، ورواندا، والشـمال الشـرقي للكونغو الديموقراطيـة، وأوغندا، وشـمال غرب كينيا، وتنزانيـا، كما تحيـط بدول زامبيـا، ومالاوي، وموزمبيق، وإثيوبيا.

وبسـبب كثافة السـكان والوفـرة الزراعية في تلك المنطقة قامت دول الاسـتعمار الأوروبي بتقسيمها إلى دول صغيرة نسبياً، شهدت العديد من الحروب البينية والأهلية في معظم مناطقها، مـا عدا تنزانيا التي نجت من أتون تلك الحروب وآثارها، وظلت المناطق الأخرى تعاني الفقر حتى يومنا هذا.

وهكذا عمل الاستعمار على تفاقم مشكلات الأفارقة بتقسـيمه السياسي والجغرافي لدول القارة على أسـاس مصادر الميـاه، مما جعل فتيل الحروب تشـتعل الفينـة بعد الفينة على

مصادر المياه والأنهار، وعلى المراعي، أو بسبب نصب السدود، أو بسبب الاختلاف حول توزيع حصص المياه ومناطق الرعي.

وإضافة إلى البحيرات العظمى هناك الأنهار، مثل نهر النيل - وهو أهم أنهار القارة -، ونهري النيجر وفولتا في الغرب، ونهر زامبيزي في الجنوب.

وبخلاف البحيرات والأنهار تعتمد قارة إفريقيا بصورة أساسية على الأمطار الموسمية في الرعي والزراعة، لكن في ظل عدم استقرار أجواء كوكبنا بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري؛ فإن مواسم الأمطار أصبحت أكثر تقلباً؛ إذ تسببت الحرارة الزائدة في غلافنا الجوي في حدوث تغيرات في المناخ، وفي نسب بَخْر المياه وتكوّن السحب، وهو ما أدى إلى قلة هطول الأمطار في كثير من مناطق العالم، وعلى رأسها إفريقيا، وزيادة نسبة جفاف الأرض الزراعية وتصحّرها.

الجدب والتصحر:

من المعروف أن التصحر وجفاف الأرض من أهم الأسباب البيئية لهجرة البشر وتحولهم إلى لاجئين حول مناطق المياه والرعي، كما أنهما يُشعلان التقاتل على المصادر الطبيعية المتقلصة والغذاء؛ مما يسفر عن المجاعات، وعدم الشعور بالأمان، وتدمير المدن والقرى، وإحداث عدم توازن بيولوجي، وزيادة القلاقل الاجتماعية والاقتصادية، والفقر المحتم.

ويؤدي الجفاف والتصحر إلى حدوث خسائر عظيمة لقارة إفريقيا، لا يقاسي مرارتها إلا الفقراء واللاجئون، وبخاصة النساء والأطفال، وقد شهدت القارة السمراء بسبب ندرة المياه العديد من المجاعات الفتاكة، والتي أدت إلى انتشار ظاهرة الاعتلال الصحي والموت جوعاً، وأصبح الإنسان في إفريقيا فريسة سهلة لسماسرة الموت، والمنصّرين، وكل من يتاجرون بآلامهم.

والإنسان الإفريقي نفسه له دور في تعميق آثار هذا الجفاف والتصحر بممارساته غير المسؤولة، مثل قطع الأشجار، وإزالة الغابات، وزيادة استهلاك الماشية للمراعي، واستعمال الوسائل الخاطئة أو غير الجيدة في حصاد المزروعات، والتي تقلل من احتفاظ التربة بالمياه، والعمل بأساليب خاطئة في استخدام التربة، كالإفراط في الزراعة، ويؤدي هذا كله في النهاية إلى جدب الأرض وجفافها. كما أن سوء إدارة الموارد المائية والإدارة الزراعية يتسبب في إهدار كميات عظيمة من المياه، وإقفار الأرض؛ مما نتج عنه أزمة غذاء أدت بدورها إلى حروب وقلاقل حصدت أرواحاً لا حصر لها في العقود الأخيرة.

وإذا كان ما سبق كافياً وحده في إثارة المخاوف على حاضر القارة ومستقبلها، فإن المشكلات لم تقف عند هذا الحد، فقد أصبح العالم اليوم يعيش في خضم أزمة ارتفاع أسعار الغذاء والحبوب، حيث قفزت تلك الأسعار إلى أرقام لم يشهدها العالم منذ سنوات طويلة، وهو ما يزيد من خطورة الأزمة في القارة الإفريقية - انظر الجدول -، فقد أكدت منظمة الزراعة والأغذية (الفاو) التابعة للأمم المتحدة، أن زيادة أسعار الغذاء أدت إلى كارثة غذاء في ست وثلاثين دولة، معظمها في إفريقيا، وكلها بحاجة إلى إعانات عاجلة، كما أعلن البنك الدولي بأن «المجاعات هي أكبر مشكلة منسية في العالم»، وأشار البنك إلى أن أسعار الغذاء العالمية ازدادت بنسبة ٧٥٪ منذ عام ٢٠٠٠م، بزيادة في أسعار القمح وحده وصلت إلى ٢٠٠٪ [١].

(١) المصدر: منظمة الأمم المتحدة للزراعة والأغذية (الفاو).

العام	الشهر	متوسط أسعار المواد الغذائية	لحوم	ألبان	حبوب	زيوت ودهون	سكر
٢٠٠٠		٩٢	١٠٠	١٠٦	٨٥	٧٢	١٠٥
٢٠٠١		٩٤	١٠٠	١١٧	٨٧	٧٢	١١١
٢٠٠٢		٩٣	٩٦	٨٦	٩٥	٩١	٨٨
٢٠٠٣		١٠٢	١٠٥	١٠٥	٩٨	١٠٥	٩١
٢٠٠٤		١١٣	١١٨	١٣٠	١٠٨	١١٧	٩٢
٢٠٠٥		١١٦	١٢١	١٤٥	١٠٤	١٠٩	١٢٧
٢٠٠٦		١٢٦	١١٥	١٣٨	١٢٢	١١٧	١٩٠
٢٠٠٧		١٥٦	١٢١	٢٤٧	١٦٨	١٧٤	١٢٩
٢٠٠٧	أكتوبر	١٧٤	١٢٢	٢٩٧	١٩٧	٢٠٢	١٢٨
	نوفمبر	١٧٩	١٢٦	٣٠٢	١٩٩	٢٢١	١٣٠
	ديسمبر	١٨٦	١٢٣	٢٩٥	٢١٩	٢٢٦	١٣٧
٢٠٠٨	يناير	١٩٥	١٢٦	٢٨١	٢٣٤	٢٥٠	١٥٤
	فبراير	٢١٥	١٢٨	٢٧٨	٢٧٧	٢٧٣	١٧٣
	مارس	٢١٧	١٣٢	٢٧٦	٢٧٦	٢٨٥	١٦٩
	أبريل	٢١٤	١٣٢	٢٦٦	٢٧٨	٢٧٦	١٦١
	مايو	٢١٥	١٤٢	٢٦٥	٢٧٠	٢٨٠	١٥٥
	يونيو	٢١٩	١٤٤	٢٦٣	٢٧٣	٢٩٢	١٥٦
	يوليو	٢١٣	١٤٣	٢٦٤	٢٥٥	٢٧٣	١٨٣
	أغسطس	٢٠١	١٤٦	٢٤٧	٢٤٠	٢٣٠	١٨٨
	سبتمبر	١٨٨	١٤٤	٢١٨	٢٢٦	٢٠٩	١٧٤
	أكتوبر	١٦٤	١٣٥	١٩٣	١٩٠	١٦٥	١٥٣

جدول يوضح الارتفاع الجنوني لأسعار المواد الغذائية والحبوب في السنوات الأخيرة. المصدر: منظمة الأمم المتحدة للزراعة والأغذية (الفاو)

وتُعد منطقة جنوب الصحراء وشرق إفريقيا أشد المناطق جدباً على الإطلاق، وكثير من الحروب اندلعت في إفريقيا بسبب المياه والتنافس على مناطق الرعي والري، كما كان الفقر والتخلف سبباً في تعميق جراح الأفارقة، فقد عجزوا عن استثمار ثرواتهم المائية واستغلالها، بل عجزوا عن الحفاظ على الأرض الخصبة التي كانوا يمتلكونها، حيث تشير تقارير الأمم المتحدة إلى أن نسب الأرض الخصبة قد تقلصت بصورة كبيرة بسبب الجدب والجفاف، ففي عام ٢٠٠٤م قدرت لجنة مكافحة التصحر التابعة للأمم المتحدة، أن إفريقيا فقدت ما يقرب من ستة ملايين هكتار من الأرض الزراعية سنوياً منذ عام ١٩٩٠م بسبب جفاف الأرض، ولا تزال الأرض الخصبة في تقلص، حتى وصلت الخسائر المالية في مستوى الدخل إلى ٤٢ مليار دولار سنوياً.

ومن المتوقع أن تفقد إفريقيا ثلثي أرضها الصالحة للزراعة بحلول عام ٢٠٢٥م، ويؤدي جفاف الأرض حالياً إلى خسارة أكثر من ٣٪ سنوياً من إجمالي الدخل القومي من الزراعة في دول جنوب الصحراء الإفريقية، ففي إثيوبيا على سبيل المثال كانت خسائر الدخل القومي تمثل ١٣٠ مليون دولار سنوياً، وفي أوغندا انخفضت إنتاجية الأرض بسبب تزايد الأرض القاحلة؛ مما هدّد بحدوث فوضى في اقتصاد البلاد وازدياد الفقر.

كما تشير الأرقام إلى تقلص واحدة من أكبر بحيرات إفريقيا، وهي بحيرة تشاد، في السنوات الماضية؛ بسبب سوء الممارسات الزراعية والرعوية، وتقلص البحيرة أدى إلى زيادة التوترات بين الرعاة والمزارعين وصائدي الأسماك في الدول الإفريقية الأربعة التي تطل عليها، وكانت مساحتها في الستينيات ٢٥ ألف كيلو متراً مربعاً من المياه، لتفقد اليوم ٩٠٪ من مياهها بسبب الجفاف والتصحر، وغياب الإدارة الحكومية للمياه، وبسبب الممارسات الزراعية السيئة.

تقول «أليس لي» مسؤولة الفضاء الخارجي بالأمم المتحدة والمسؤولة عن مراقبة الأرض بالأقمار الصناعية، في ندوة عُقدت مؤخراً بشأن تطبيقات مراقبة التغير المناخي وأثرها في النمو الزراعي والأمن الغذائي، إن بحيرة تشاد على وشك الجفاف بصورة تامة؛ بسبب الاحترار والنشاطات الإنسانية في المنطقة، وإذا لم تُتخذ إجراءات سريعة، مع الاستعانة بصور الأقمار الصناعية؛ فإن إفريقيا سوف تتحول إلى صحراء كبيرة قريباً، تعج بمشكلات كبيرة فيما يتعلق بتوفير الغذاء، وارتفاع نسب الفقر إلى مستويات غير مسبوقة.

كما أن الجفاف كان له النصيب الأكبر في حصد الأرواح وفي الخسائر الاقتصادية التي مُنيت بها إفريقيا؛ فقد أدى الجفاف في زيمبابوي بين عامي ١٩٩٠م و١٩٩١م إلى انخفاض قدره ٤٥٪ في الإنتاج الزراعي، كما أدى إلى تدهور بقيمة ٦٢٪ في سوق الأسهم، وانخفاض قدره ٩٪ في منتجات التصنيع، وانخفاض قدره ١١٪ في الناتج القومي، وكان سبباً في ٨٠٪ من حالات الوفاة بالبلاد.

وفي كينيا أدى جفاف السنوات العشر في الفترة من ١٩٩١م إلى ٢٠٠١م إلى خسائر اقتصادية قُدّرت بنحو ٢,٥ مليار دولار، وهي خسارة ضخمة إذا قورنت بالناتج القومي الإجمالي للدولة، وكان يمكن استثمار تلك الأموال في بناء المدارس والمستشفيات[1].

وقد أعد باحثان من «جامعة ويسكونسن الأمريكية» دراسة عن تقلّص بحيرة تشاد، نُشرت في دورية الأبحاث الجيوفيزيائية، خلصت الدراسة إلى أن تقلّص البحيرة يرجع في المقام الأول وبصورة مباشرة إلى النشاطات والممارسات الإنسانية السيئة لسكان تلك المنطقة، والعدد المتزايد من السكان، وأكد الباحثان «جوناثان فولي» و«مايكل كوي» أن هناك العديد من الأسباب العامة وراء تلك الظاهرة، مثل ارتفاع حرارة الأرض، وزيادة بخر المياه دون تعويض مواز من الأمطار، واعتمد الباحثان على نماذج حاسوب وصور من الأقمار الصناعية قدمتها لهم شبكة ناسا الأمريكية لأبحاث الفضاء.

ولأن معظم سكان قارة إفريقيا يعيشون في أرض هامشية في المناطق النائية، ويمارسون عمليات الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار؛ فإن التصحر يهدد الإنتاج الزراعي في تلك الأرض، ويفاقم مشكلة الفقر، ويقوض التنمية الاقتصادية.

ومن المتوقع أن يزداد الفقر والتصحر في كثير من الدول الإفريقية في القرن الحادي والعشرين، وخصوصاً مع عجز معظم الحكومات عن زيادة الإنفاق على الإنتاج الاقتصادي والزراعي لقيادة التنمية الاقتصادية والحضرية، حيث تشير الإحصائيات إلى أن إفريقيا بها ١٣٪ من سكان العالم (٨٠٠ مليون نسمة)، ولكن إنتاجها في المقابل يمثل ٢٪ فقط من الإنتاج الإجمالي لدول العالم، وتشير أرقام الأمم المتحدة إلى أن ٦٥٠ إنساناً يموتون يومياً في إفريقيا بسبب الجفاف، معظمهم من الأطفال دون الخامسة، كما أن هناك ١٤ دولة في القارة تعاني ندرة في المياه، ومن المتوقع أن ينضم لها ١١ دولة أخرى بحلول عام ٢٠٢٥م، وسيعاني ٥٠٪ من سكان إفريقيا ندرة المياه، ويُقدّر عددهم في ذلك الوقت بنحو ١,٤٥ مليار نسمة.

وهناك ستة أمراض على الأقل متعلقة بالمياه يعانيها أكثر من نصف سكان القارة، وعلى سبيل المثال أصيب أكثر من ١٠ آلاف شخص بالكوليرا التي تنتشر عن طريق المياه الملوثة، وذلك عندما انتشرت في جنوب القارة عام ٢٠٠١م[2]، ويفتقر حالياً ٥١٪ من سكان دول جنوب الصحراء البالغ عددهم ٣٠٠ مليون نسمة إلى إمدادات مياه الشرب، في حين يفتقر ٤١٪ منهم إلى المياه الصحيّة.

وبالرغم من أن إفريقيا فيها كثير من مصادر المياه، مثل الأنهار الكبيرة كنهر النيل والكونجو وزامبيزي والنيجر، إضافة إلى بحيرة فيكتوريا التي تعد ثاني أكبر بحيرة مياه عذبة في العالم؛ فإنها ثاني قارة من حيث معدلات الجفاف بعد قارة أستراليا، ولكن مشكلة الأخيرة لا تكاد تذكر بسبب قلة السكان، أما الأفارقة فيعاني الملايين منهم ندرة المياه بسبب اختلال توزع

(١) المجلس العالمي للتنمية المستدامة.

(٢) الصندوق الدولي للمحافظة على البيئة.

السكان، فعلى سبيل المثال يحتوي حوض نهر الكونجو على ٣٠٪ من أرض إفريقيا المتشبعة بالمياه، لكن يسكنها ١٠٪ فقط من سكان القارة.

حروب المياه:

كل تلك المشكلات السابقة تهدد بنشوب حروب المياه في السنوات القادمة، وأبرز تحديات المياه تكمن في منابع النيل الذي يسقي مصر والسودان وسبع دول أخرى، حيث بدأت بعض دول النيل، مثل كينيا وأوغندا، والتي وقّعت مع مصر اتفاقية منابع النيل تعلن عن نيتها في الانسحاب من الاتفاقية، ونشرت صحيفة «سودان تايمز» في الثامن من نوفمبر ٢٠٠٨م أن كينيا اتهمت مصر والسودان بأنهما يحتكران مياه النيل، وأن اتفاقية عام ١٩٢٩م الموقعة بين مصر وبريطانيا بشأن استغلال مياه النيل لم تعد سارية، حيث تمنع تلك الاتفاقية كلاً من كينيا وأوغندا وتنزانيا وإثيوبيا والسودان من نصب مشاريع تتحكم في مياه النيل دون إذن مسبق من مصر، وهو ما يلوّح ببوادر أزمة مياه بين مصر ودول منابع النيل، قد تتحول في المستقبل القريب إلى معضلة غاية في الخطورة، وخصوصاً إذا تدخلت إسرائيل والدول الغربية لإذكاء نار الحرب في تلك المنطقة الاستراتيجية بالنسبة إلى الأمن القومي المصري.

ودعا وزير المياه الكيني مصر والسودان إلى توقيع اتفاقية إضافية بشأن مياه النيل، إلا أن مصر والسودان رفضتا أحد بنود الاتفاقية ومن ثم توقيعها، ولكن دول حوض النيل السبعة وقّعته، وهي بوروندي والكونغو الديموقراطية وإثيوبيا وكينيا ورواندا وتنزانيا وأوغندا، وحذّرت كينيا من أنه سيتم تطبيق الاتفاقية دون مصر والسودان، وهو ما ينذر بتأزم الموقف في منابع النيل.

ويبلغ إجمالي مياه النيل سنوياً ما مقداره ٨٣ مليار متر مكعب، تبلغ حصة مصر منها ٥٥ ملياراً، وهي الحصّة التي اتفقت عليها مع بريطانيا التي كانت تمثل آنذاك مستعمرات شرق إفريقيا، وتعتزم كينيا وتنزانيا انتهاك الاتفاقية وإقامة مشاريع تقوم بسحب المياه من بحيرة فيكتوريا، وهو ما يمثل تهديداً مباشراً لحصّة مصر من المياه.

وقد لعبت الأيدي الصهيونية في الخفاء في منطقة مياه النيل منذ سنوات طويلة، واستطاعت أن تحقق نفوذاً ملموساً في دول منابع النيل، وأقامت هناك مشروعات زراعية تعتمد على سحب المياه من بحيرة فيكتوريا، كما استطاع الكيان الصهيوني أن يحظى بتسهيلات عسكرية في بعض تلك الدول فأنشأ فيها قواعد بحرية وجوية تابعة له، والتاريخ يذكر المساعدات الإسرائيلية من قواعدها بإثيوبيا في حرب ١٩٦٧م، كما تستخدم إسرائيل الدول الإفريقية كمنصة تجسس على الدول العربية، وتصرّف منتجاتها العسكرية هناك، وتدرّب قادة في الجيوش الإفريقية، كان من أبرزهم جون جارانج الذي كان رأس الحربة لمشروع تقسيم السودان، والذي تحطمت طائرته في جنوب البلاد في الأول من أغسطس عام ٢٠٠٥م.

وكان الصهاينة منذ هرتزل عام ١٩٠٣م يحلمون بالحصول على مياه النيل، فقد تقدم مؤسس الكيان الصهيوني بطلب إلى الحكومة البريطانية في ذلك العام لإنشاء مشروع لمد فلسطين بمياه النيل عبر صحراء النقب وسيناء، وتجدد ذلك الحلم في سبعينيات القرن الماضي لكنه قوبل برفض قاطع من مصر، إلا أن ذلك الحلم لا يزال يداعب مخيلة الصهاينة حتى اليوم بسبب ندرة المياه في كيانهم؛ لذا التفوا حول تلك المطالب بزيادة نفوذهم في دول منابع النيل، وإقناعها ببناء السدود على النهر لتقليل حصة مصر من المياه، ووعدهم بالدعم السياسي والدبلوماسي.

ولهذا تظل مشكلة المياه في القارة السمراء قضية حياة أو موت لكل الأفارقة من الشمال إلى الجنوب، وتظل المياه هي شريان الحياة الذي يمد دول القارة بسبب وجودهم، ومع ارتفاع حرارة الأرض، وتقلب مواسم الأمطار، وإمساك السماء لمياهها، ومع ازدياد عدد سكان القارة، وزيادة عدد الماشية؛ سوف يتحول الجميع إلى البحيرات والأنهار لإرواء ظمئهم، وتظل منسوبات تلك الأنهار والبحيرات في انخفاض حتى يأتي ذلك اليوم الذي يدق فيه ناقوس الخطر مؤذناً ببدء جولة جديدة من الصراع حول مصادر المياه.

Piracy in Somalia
Threatening global trade, feeding local wars

Roger Middleton

القرصنة في الصومال..
تهدد التجارة العالمية وتغذي الصراعات المحلية [1]

روجر ميدلتون

ترجمة: مجلة قراءات أفريقية

باتت القرصنة الملاحية في القرن الإفريقي تمثل تهديداً مباشراً على مصالح العديد من الدول؛ بما في ذلك دول المنطقة العربية؛ بدءاً من مصر شمالاً وحتى اليمن جنوباً، وقد ازدادت القرصنة على السواحل الصومالية إلى مستويات خطرة، وأصبحت تهدد بعرقلة التجارة العالمية، كما أن أموال القرصنة يُعتقد أن لها دوراً كبيراً في تمويل أمراء الحرب بالصومال، كما يمكن أن تصبح سلاحاً في يد مختلف الأطراف لإحداث كوارث بيئية.

ولفترة طويلة ظلت القرصنة مشكلة تقتصر على منطقة مضيق ملقا بين إندونيسيا وماليزيا، ولكنها الآن أصبحت تحمل خطورة متزايدة في منطقة خليج عدن بسبب هشاشة الدول الإفريقية المطلة عليه. وشهد عام ٢٠٠٨م تصاعداً في القرصنة الصومالية لتحظى باهتمام صناع القرار بمختلف دول العالم، وذلك بعد عمليات اختطاف كبيرة شهدتها تلك المنطقة، ففي الأسبوع الأخير من أغسطس ٢٠٠٨م تم اختطاف ٤ سفن، وحتى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٨م سجّل قطاع البحرية الدولية بغرفة التجارة العالمية ٦١ حالة اختطاف في هذا العام وحده.

ومنذ نهاية عام ٢٠٠٧م تحولت نشاطات القراصنة من ميناء مقديشيو إلى مياه خليج عدن، والرقم الحقيقي للهجمات أكبر من المعلن؛ إذ لا يتم الإبلاغ عن كل الحوادث لوجود نشاطات غير قانونية في المياه الصومالية، كما أن الإحصاءات الرسمية لا تقيس أثر القرصنة في حركة التجارة في المنطقة، وتشير الأرقام إلى أن هناك ١٦ ألف سفينة تمر من خليج عدن سنوياً، تحمل نفطاً من الشرق الأوسط، وبضائع من آسيا إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، وهذا المسار الملاحي يُعد واحداً من أهم المسارات الملاحية في العالم، وأصبح اليوم مهدداً بسبب عدم الاستقرار المزمن الذي تعيشه الصومال.

وقد ظلت القرصنة تمثل مشكلة في المياه الصومالية لعشر سنوات على الأقل، لكن أعداد الهجمات الناجحة تزايدت بصورة حادة في السنوات الثلاث الأخيرة (انظر: شكل١)، والفترة الوحيدة التي اختفت فيها القرصنة تماماً كانت فترة الشهور الستة التي حكم فيها اتحاد المحاكم الإسلامية الصومال، وذلك في النصف الثاني من عام ٢٠٠٦م، وهذا يؤكد أن وجود حكومة فاعلة في الصومال سيؤدي إلى كبح أعمال القرصنة، ولكن بعد الإطاحة بالمحاكم الإسلامية ظهرت القرصنة من جديد، ففي ظل عدم وجود حكومة فاعلة، وبسبب السواحل الصومالية الطويلة والمعزولة والقاحلة، وبسبب يأس السكان واعتيادهم أجواء الحرب؛ أصبحت الصومال الآن بيئة مثالية لازدهار القرصنة.

والبنية الأساسية لعصابات الجريمة المنظمة المتورطة في عمليات القرصنة على السواحل

(١) تقرير كتبه روجر ميدلتون ونشرته مؤسسة شاتام هاوس البحثية البريطانية في أكتوبر ٢٠٠٨.

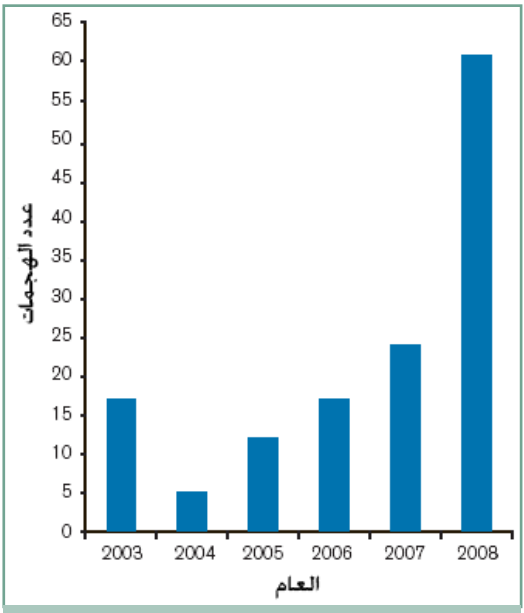

عمليات الاختطاف ومحاولات الاختطاف في الصومال وخليج عدن في المدة من ٢٠٠٣م حتى ٢٠٠٨م
(المصدر: قطاع البحرية الدولية بغرفة التجارة العالمية - القرصنة والسرقة المسلحة ضد السفن)

الصوماليـــة تتمركز في مجموعتين أساســيتين؛ واحـدة في كيســمايو في الجنــوب، والأخرى في منطقتــي أوبيا وهاراديرا، وقــد أوقفت مجموعة القرصنـــة الأولى نشـــاطها في عـــام ٢٠٠٦م، ولم تســـتأنف عملياتها مرة ثانية علـــى نطاق ملحوظ، في حـــين أن الثانية التـــي تُعرف باســـم «المارينز الصوماليون» قد عادت إلـــى مناطق عملياتها بدءاً من يناير عام ٢٠٠٧م، وقامت تلك المجموعة بمعظم عمليات الاختطاف في عام ٢٠٠٧م، لكن بنهاية عام ٢٠٠٧م بدأنـــا نرى مجموعات أخرى من العصابات تتـــورط في عمليات القرصنـــة، وخلافاً للاعتقاد الشـــائع فإن مجموعة «المارينـــز الصوماليون» لا ينتمـــون لقبيلة واحدة؛ بل يجنّدون مســـلحيهم من العـديد من القبـائـــل، وبالتالي لا يوالون مجموعة قبلية بعينها.

ومنذ عام ٢٠٠٧م ازدادت قيمة المبالغ المدفوعة فـديـــة بصورة حادة، وهو مـــا أدى بدوره إلى زيادة الدوافـــع لدى المســـلحين للدخـــول في عالم القرصنـــة الصومالية، وأصبحنـــا نرى الآن مـــا بين ٤ إلـــى ٥ مجموعات مـــن القراصنة بمستويات مختلفة من المهارات، وكلها متورطة في نشاطات القرصنة على سواحل الصومال، كمـــا ازدادت المخاوف من دخـــول العديد من المجموعات الجديدة فـــي عمليات القرصنة؛ بسبب الزيادة الحادة في عمليات الاختطاف، ومبالغ الفدية الكبيرة التي يجنيها القراصنة.

والسبب الرئيس لازدياد عمليات القرصنة هو غياب مسؤولي تطبيق القانون في المناطق الســـاحلية الصومالية؛ إضافة إلى انخفاض تكلفـــة الدخول إلى عالم القرصنة، فلا تحتاج العصابات إلا إلـــى زورقين صغيرين أو ثلاثة، ومـــن ٦ إلى ١٨ رجلاً، يتم تســـليحهم ببنادق «AK ٤٧ s» و«آر بـــي جيه»، وبعض وســـائل الاتصال، وكلها أشـــياء يسهل الحصول عليها في الصومال.

ودوافـــع القراصنة الصوماليـــين مالـية بحتة؛ بالرغـــم من أن تلك الأموال قـــد يُعاد توجيهها إلى مســـارات مختلفة أخرى بعد دفـــع الفدية، وعلى عكس التقارير الإعلامية فلم نر دلائل على أن أموال الفدية حُوّلت إلى جماعة من جماعات المقاومة في الصومال حتى الآن، وبخاصة الإســـلاميون الذين يُعدّون أعتى أعـداء القراصنة، هكذا تطور أسلوب العمل على مســـتويات التخطيط للهجمات، وعلى مستويات الأهداف أيضاً.

من خلال العمليات السابقة نتأكد أن القراصنة يقومـــون بدوريـــات متواصلة في مناطـــق بعينها، وينتظرون وصول ســـفينة من الســـفن التي يظنون أنها مغرية، وكانت عمليات القرصنة الســـابقة قبل ٢٠٠٨م تســـتهدف بصفة أساسية ســـفن الشحن الصغيـــرة البطيئـــة ذات الســـطح المنخفض، لكن النجاح النســـبي للهجمات فـــي النصف الثاني من

٢٠٠٧م وفي ٢٠٠٨م قد زاد من كمية المخاطر التي يمكن أن يتحملها القراصنة، فهم يهاجمون اليوم كل شيء يقترب من منطقة عملياتهم؛ بما في ذلك سفن الحاويات ذات السطح المرتفع والسرعة العالية والسفن الكبرى، وكلها تُعد أهدافاً يصعب الصعود على متنها في البحر المفتوح.

ومعظم الهجمات على الساحل تمت بزوارق يتراوح عددها بين زورقين وخمسة زوارق، تعمل بقيادة «سفينة أمّ» أكبر حجماً، قد تكون هي نفسها مختطفة. ولدى القراصنة في زوارقهم سلّم يصل طوله إلى ما بين ٤ إلى ٦ أمتار لتسلّق السفن، كما أنهم أصبحوا يعتمدون بصورة متزايدة في هجماتهم على أسلحة «AK ٤٧ s»، و«آر بي جيه»، وأسلحة آلية، لاعتراض السفن وتحييد الطاقم في أثناء تسلّقهم السفينة. وقد اكتسب القراصنة مزيداً من الخبرات في ذلك المجال، فأصبحوا يعاملون الطاقم بصورة جيدة؛ لأنه رأس مالهم في عملية التفاوض؛ لذا يحافظون على أفراده أحياء في معظم الأحوال.

ويتحرك القراصنة باستخدام زوارق صغيرة، تعمل بمحركات قوية، ويمكن سحبها إلى الشاطئ، وهي زوارق سريعة، وتتمتع بالقدرة على المناورة، لكنها تفتقر إلى المدى الكافي الذي يمكّنها من الصيد الثمين داخل المياه العميقة.

وقد نشر قطاع البحرية الدولية مؤخراً تحذيراً يوضح فيه مواصفات «السفن الأم» المحتملة، وهي عادة ما تكون مراكب صيد استولى عليها القراصنة قريباً من الشواطئ، ثم بعد ذلك يستخدمونها كنقاط انطلاق لمزيد من الهجمات داخل البحر. وقد وردت تقارير من سفينة صيد يمنية، يبدو أنها استُخدمت كسفينة أمّ، تشير إلى أن القراصنة كانوا يقومون بدوريات في مدخل خليج عدن في السفينة المختطفة، ثم بعد ذلك هجروها واستقلوا زوارقهم حين رأوا الهدف المناسب، واستخدام السفن الأم يوضح كيف استطاع القراصنة أن يزيدوا من مداهم البحري بتلك الصورة الكبيرة، وفي السابق كان التحذير بأن تظل السفن على بُعد ٥٠ ميلاً بحرياً من الساحل، لكن تلك المسافة الآن تمت زيادتها إلى مائتي ميل بحري.

أثر القرصنة في الصومال:

إن ازدياد خطورة القرصنة في المياه الإقليمية الصومالية في أواخر عام ٢٠٠٧م؛ أجبرت برنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة على وقف شحنات الغذاء المنقولة بحراً إلى الصومال، في حين أن تسليم الغذاء براً لا يقل خطورة، كما أنه لا يصلح لنقل كميات كبيرة من المساعدات الغذائية.

وطبقاً لبرنامج الغذاء الأممي؛ فإن الصومال كانت بحاجة إلى ١٨٥ ألف طن على الأقل من المساعدات الغذائية في عام ٢٠٠٨م، وقد تم توفير هذا الغذاء بصورة مؤقتة عن طريق السفن البحرية التي صاحبت قوافل الغذاء التابعة للأمم المتحدة، ولكن المنظمة اضطرت للتوقف شهرين انتظاراً للسفن الحربية التي ترافق سفن المساعدات الغذائية.

ويؤدي عدم تجهيز تلك السفن إلى أن يظل مخزون الطعام الصومالي مهدداً بصورة حادة، فالصومال دولة دون حكومة مركزية فاعلة، وتعاني الجفاف ونقص المياه، وبها أكثر من مليون نازح داخلياً؛ لذا فإن شحنات الغذاء تُعد أساسية لحياة أولئك البشر، ومن ثَمّ يجب أن يضع المجتمع الدولي في أولى أولوياته تأمين عمليات تسليم الغذاء للصوماليين، وذلك بسبب طبيعة البلاد الخطرة، والتي يتفشى فيها العنف والجوع، وينتشر فيها السلاح بحريّة في جميع الأنحاء، وهناك تقارير تفيد بوقوع عمليات يومية من تفجير وقتل ومناوشات ومعارك وخطف.

وبينما يحتفظ القراصنة بأجزاء كبيرة من الأموال التي يحصلون عليها؛ يمررون حصصاً

كبيـــرة إلى القادة المحليين الذيـــن يتورط معظمهم في عمليات الحروب الدائـــرة، ومن المؤكد أن تلك الحصـــص الدورية من الأموال تســـاعد في تمويل الحـــروب الداخلية، وبعـــض التقاريـــر تربط بين أموال القرصنة وبين بعـــض الفصائل التي تضعها الولايـــات المتحدة في قائمة الإرهاب، والتي ظهرت كميليشـــا صغيرة في أثناء حكم المحاكم الإسلامية، لذا فـــإن القضاء على القرصنة يمكن أن يؤدي إلى وقف الإمدادات المالية للفصائل المتنازعة، وبالتالي إضعاف قدرتهم على شـــراء السلاح، ومن ثَمّ وقف الحرب في النهاية.

كما أن نقص الأمن الملاحي يسمح أيضاً بازدهار عمليات التهريب، والاتجار في الســـلاح والبشـــر، ويشـــجع على القيام بعمليات الصيد غير القانونية التي تقوم بها الســـفن الأخرى في المياه الصومالية؛ بسبب عدم وجود دوريات لخفر السواحل بها، وهو ما يجعلهم هدفاً سهلاً للقراصنة.

أثر القرصنة في التجارة الدولية والبيئة:

من البديهي أن الشركات التي لا تصل حمولتها إلى هدفها النهائي في الوقت المحدد سوف تخسر أمـــوالاً، بالإضافة إلى نفقات دفـــع الفدية والآثار الاقتصاديـــة الضـــارة لعمليات القرصنـــة، كما أن تداعيات ذلك ليست مقصورة فقط على الشركات التـــي يتم اختطاف ســـفنها، بل تمتـــد أيضاً إلى شـــركات التأمين التي أصبحت تخسر مبالغ طائلة نتيجة اختطاف السفن، فاضطرت هي الأخرى إلى رفع أقساط التأمين على السفن المارة بخليج عدن، وهو ما مثّل عبئاً إضافياً على الشـــركات التجارية، وقد وردت تقارير بأن شـــركات التأمين قامت برفع أقسطاها إلى عشرة أضعاف سنوياً.

أمـــا إذا زادت المخاطر عن حدهـــا بصورة لا تُحتمل، فإن شـــركات الملاحة ســـوف تتجنب خليج عدن تماماً وتختار المسار الأطول، وهو طريق رأس الرجاء الصالح، متجهة إلى أوروبا وأمريكا بالدوران حول إفريقيا، وهو احتمال مطروح بشدة الآن بسبب مخاطر القرصنة، وذلك الدوران حول القارة سوف يســـتغرق أسابيع إضافية من الإبحار، وهو ما يؤدي إلى اســـتهلاك مضاعف للوقود فـــي ظل تذبذب أســـعار النفط، كما سوف يتســـبب ذلك في وقوع خسائر فادحة لمصر، تصل إلى مليارات الدولارات سنوياً، بسبب نقص دخلها من قناة السويس.

وهناك احتمـــالات متزايدة بانســـكاب كميات ضخمة من النفط في المياه في أثناء تعرض حاملات النفط العملاقة التي تسير في خليج عدن لعمليات القرصنة؛ مما ســـيؤثر سلباً على النظام البيئي في المنطقة، ففي أثناء الهجوم على السفينة «تاكاياما» اخترق القراصنة خـــزان الوقود ليتدفق النفط إلى البحر مهدداً الحياة البحرية.

كما يمكن أن تســـفر هجمات أكبر عن مخاطر لا تُحمد عقباها؛ فقد أصبح القراصنة أكثر جرأة، وباتوا يستخدمون أســـلحة أقوى كثيراً تمكنهم من إشعال النيران في الحاويات العملاقة، أو إغراقها، أو إجبارها على الانجراف إلى الشاطئ، وكل واحد من هذه الأخطار يمكـــن أن يؤدي إلى كوارث بيئية تدمـــر الحياة البحرية وحياة الطيور لعدة ســـنوات قادمة، وإذا كان هـــدف القراصنة هو ابتزاز أموال الفديـــة، وهو لا يزال تركيزهـــم الأهـــم حتى الآن، فإن احتمال تدميرهم للســـفن لا يزال خياراً وارداً بشدة.

أما الســـيناريو الأسوأ فهو أن يصبح القراصنة عمـــلاء للإرهاب الدولي، وحتى الآن لا توجد دلائل على حدوث ذلك سوى الهجوم على المدمّرة الأمريكية «يـــو إس إس كول»، إلا أن الإرهاب البحري لا يمكن تجاهله، فإذا تم إغراق ســـفينة عملاقة متجهة إلى قناة السويس فســـوف يكون لذلك آثار مدمرة في التجـــارة الدولية، فالإرهاب البحري يمكن أن يتخذ أشـــكالاً عدة: مثل هجمات مباشـــرة على السفن البحريـــة أو التجارية، كالهجوم في الســـادس من

أكتوبر عام ٢٠٠٢م على السفينة «ليمبورج»، حيث تم أسر طاقمها واستخدامهم كورقة مقايضة للإفراج عن آخرين، كما يمكن استخدام السفن المختطفة كأسلحة عائمة في حالة تحميلها بمتفجرات؛ يمكنها الارتطام بسفينة أخرى لتفجرها.

اتجاهات جديدة في عالم القرصنة:

في عام ٢٠٠٧م كانت معظم عمليات القرصنة تتمركز في جنوب الصومال وفي منطقة ميناء مقديشيو، لكن اليوم، طبقاً لإحدى مجموعات المراقبة التابعة للأمم المتحدة، ساعد بعض مسؤولي ميناء مقديشيو في تسهيل العديد من الهجمات في عام ٢٠٠٨م، ووقعت غالبية الهجمات في منطقة خليج عدن الذي يُعد من أهم مسارات الملاحة في المنطقة، حيث تمر به ما يقرب من ١٦ ألف سفينة سنوياً، ويمثل صيداً ثميناً مقارنة بميناء مقديشيو، فالشكل المخروطي لخليج عدن جعل من السهل رصد السفن في الخليج، وجعل ملاحقتها أسهل أيضاً؛ مقارنة بالساحل الجنوبي للصومال الذي يعد شاسعاً نسبياً، ويمكن تفاديه بالمرور داخل المياه المفتوحة.

كما حسّن القراصنة من معداتهم، ويستخدمون الآن أنظمة GPS لتحديد الأماكن والهواتف التي تعمل بالأقمار الصناعية، إضافة إلى مناظير الرؤية الليلية التي تساعدهم على الهجوم ليلاً وإفزاع الطاقم وإجباره على الاستسلام، كما استطاعوا الدخول إلى الشبكات الدولية التي تمدهم بمعلومات عن الموانئ في منطقة الخليج العربي وأوروبا وآسيا، كل ذلك ومع استخدامهم للسفن الأم أعطاهم قدرات أعلى فيما يتعلق بالعثور على السفن والاستيلاء عليها؛ لذا لم يعد القراصنة مجرد انتهازيين يبحثون عن الفريسة، ولكنهم أصبحوا أكثر تعقيداً، ومن المتوقع أن يستمروا في تطوير اتجاهاتهم إذا لم يوجد رادع لمخططاتهم، كما أنهم أصبحوا أكثر تنظيماً ودقة واحترافية بالنظر إلى مستوى نمو نشاطاتهم في عام ٢٠٠٨م، كما تفيد بعض التقارير أن عدد القراصنة اليوم تضاعف من المئات إلى الآلاف.

كما أصبح القراصنة أكثر شراسة، فقد وردت تقارير من محللين بشرق إفريقيا أن القراصنة أصبحوا يستخدمون أنظمة دفاع جوي محمولة على الكتف في المياه الإقليمية؛ إضافة إلى استخدامهم أسلحة «آر بي جيه» في هجماتهم، في حين أنه في السابق كانت خططهم تقتصر على استخدام الأسلحة الآلية عندما يقتربون من السفن، واستخدام قاذفات القنابل ينطوي على مخاطر أعلى فيما يتعلق بتهديد الحياة البشرية وكذلك بالممتلكات، وتلك الأسلحة من السهل أن تشعل النيران في ناقلات النفط العملاقة، مما يهدد بنشوب كارثة محققة على سواحل الصومال.